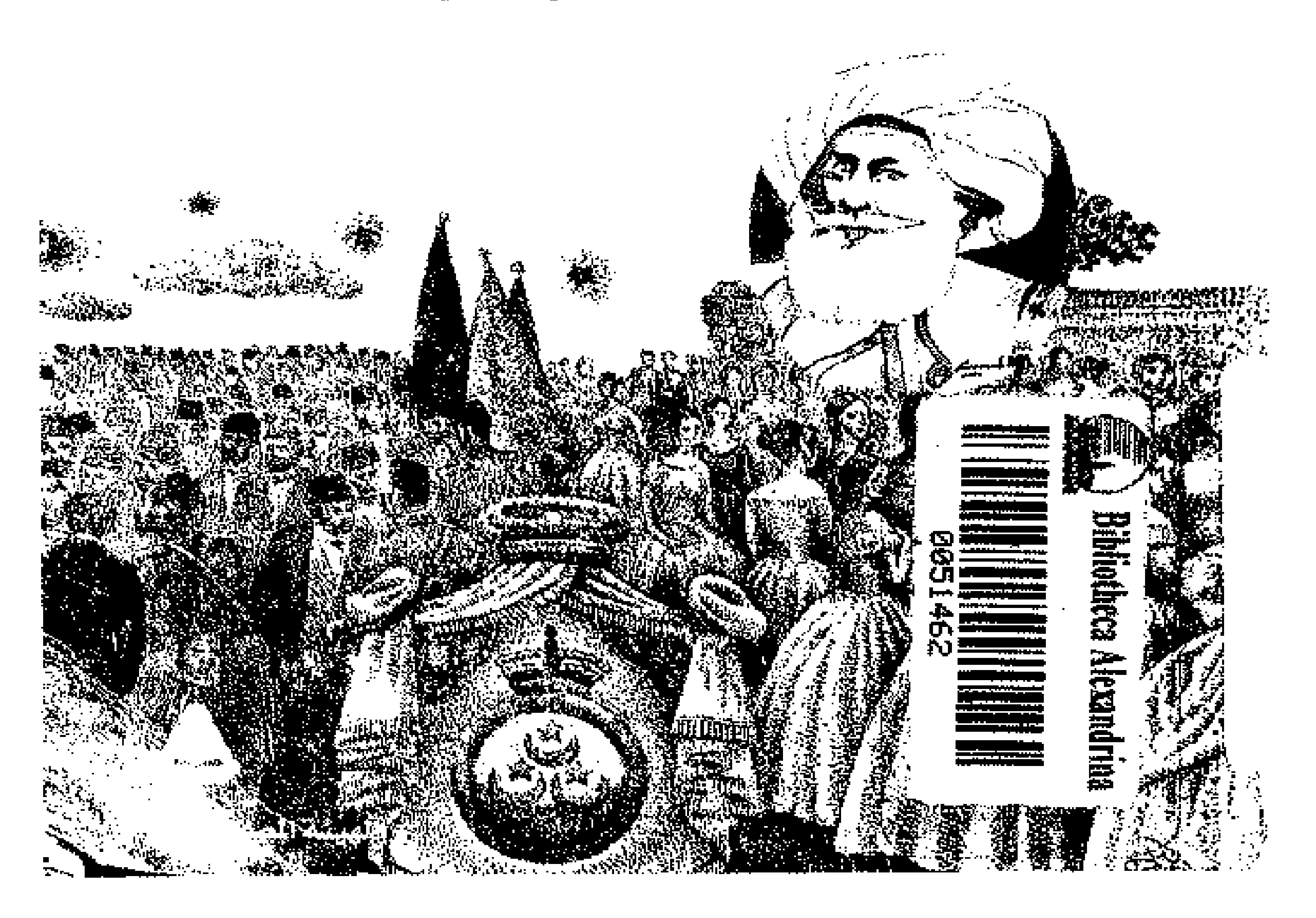
مكتبة
الأسرة
1999

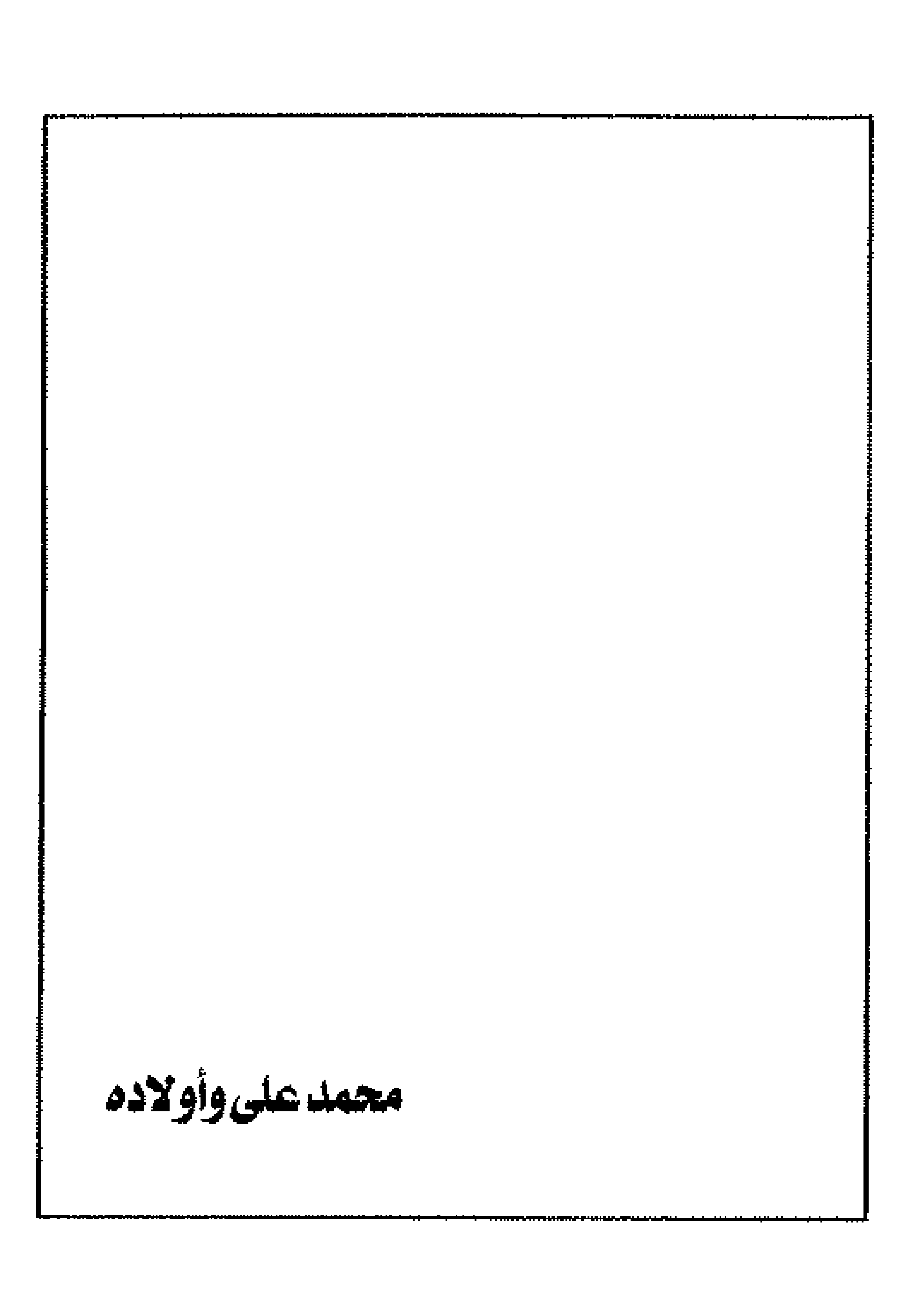
مهرجان القراءة للجميع

المصريات

محمد على وأولاده

جمال بدوى



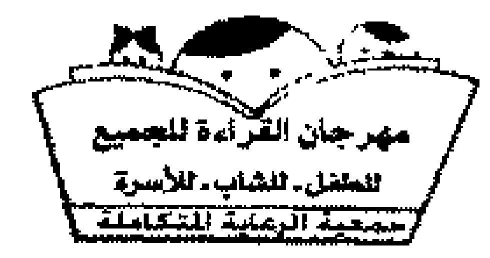


محمد علي وأولاده

محمد على وأولاده

بناة مصر الحديثة

جمال بدوى



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الخاصة)

محمد على وأولاده

جمال بدوى

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان: **محمود الهندى**

المشرف العام:

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

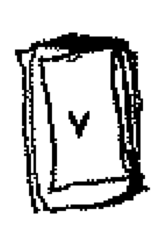
وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هى تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائمًا كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ التى يتلقفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

محمد على فى معيار التاريخ

●● لا خلاف بين المؤرخين على أن مصر الحديثة ولدت مع مطلع القرن التاسع عشر، ولكنهم يختلفون حول مسببات هذه الولادة.. بعضهم يعزوها إلى الحملة الفرنسية التى جاءت عام ١٧٩٨ ورحلت فى عام ١٨٠١م. وحجتهم فى ذلك أن الحملة أيقظت مصر من سباتها، وختمت على مرحلة طويلة من التدهور والتخلف والجمود، وأنها غرست فى مصر بذور النهضة التى ازدهرت فيما بعد، ووضعت البلاد على أعتاب العصر الحديث.

وهذا القول فيه نظر.. ذلك أن مدة إقامة الحملة فى مصر لم تتجاوز ثلاث سنوات وبضع شهور، وهى فترة قصيرة لاتكفى لبناء نهضة أو حتى إرساء قواعد الحداثة فى مجتمع شرقى يخضع لمؤثرات تقليدية قوية، ثم إن مناخ التوتر الذى ساد أيام الحملة لم يمكنها من زرع أفكارها الحضارية، فالمؤثرات الحضارية لاتبدأ عملها إلا بعد أن تكف الحروب وتهدأ المعارك، وهو ما لم يحدث للفرنسيين، فمنذ وطأت أقدامهم أرض مصر، لاقوا مقاومة عنيفة شملت العاصمة وامتدت إلى



الدلتا والصعيد، الأمر الذى جعل بقاء الفرنسيين فى مصر عذابا مقيما لم يحتملوه، فرحلوا إلى بلادهم تاركين فى نفوس المصريين أسوأ الذكريات.

إلا أن هذا التقويم لأثر الحملة الفرنسية، لايمنعنا من الاعتراف بالإنجاز الثقافى الذى تحقق على أيدى الفرنسيين فى أمرين هامين: أولهما تأليف كتاب (وصف مصر) الذى وضع فيه علماء الحملة خلاصة بحوثهم عن كافة الأوضاع فى مصر، فكان هذا الكتاب - ولايزال - نقطة البداية لكل من يتصدى للكتابة عن مصر فى تاريخها الوسيط والحديث، وهو مايراه عميد مؤرخى مصر الحديثة محمد شفيق غربال، ومادعاه للقول بأن هذا المؤلف العظيم يظل مرجعا هاما بما يحتويه من معلومات وبحوث، برغم أن الكشوف الأثرية والبحوث التاريخية قد غيرت أو عدلت مما كتبه علماء الحملة.

أما الأثر الثقافى الثانى للحملة الفرنسية فهو فك أسرار اللغة المصرية القديمة بعد اكتشاف حجر رشيد، مما أتاح للعالم كله أن يعرف تاريخ مصر منذ عصرها الفرعونى بعد أن كان لغزا مغلقا على المصريين أنفسهم، وبفضل هذا الجهد الذى بذله «شمبليون» انجلت أمام العلماء والباحثين فى الجامعات الأوربية معالم التاريخ المصرى، وعرف العالم موقع الريادة للحضارة المصرية التى تمثل حجر الأساس فى البناء الحضارى العالمى.

باستثناء هذين العملين الجليلين، لم تخلف الحملة الفرنسية أثرا كبيرا من الحياة المصرية سواء فى المجال الثقافى أو السياسى أو الأجتماعى،

فالمطبعة العربية التى جاء بها «بونابرت» لطبع منشوراته وصحفه عاد بها «مينو» ضمن مخلفات الجيش ولم تعرف مصر المطبعة إلا فى سنة ١٨٢٨م. وهى المطبعة «الأميرية» التى جلبها محمد على لطبع الوقائع المصرية، وأما «الدراوين» التى اصطنعها بونابرت بقصد تغيير شكل العلاقة بين السلطة الفرنسية الحاكمة، والشعب، فان المصريين لم يتقبلوا هذا الدواء الأفرنجي من حاكم أجنبى لايمكن أن يضمر لهم المصلحة، برغم الشعارات الزائفة عن كونه مسلماً يحب الإسلام والمسلمين.

ولو دققنا فى طبيعة السنوات الأربع التى تلت الحملة الفرنسية، لن نجد أثرا واحداً يدل على تغلغل الأفكار الأوربية بين المصريين، ولن نسمع عن فولتير أورروسو أو موليير أو نظم الإنتخابات والعقد الإجتماعى وإرادة الأمة (...) إلا بعد أن يعود الشيخ رفاعة الطهطاوى من رحلته الميمونة إلى باريس فى عام ١٨٣١م أى بعد ثلاثين عاماً بالتمام والكمال من رحيل الحملة، وكأنّ لم تكن السنوات التى عاشها الفرنسيون فى مصر، سوى سحابة صيف.. انقشعت... وعادت مصر بعدها مسرحاً للفوضى والصراع بين القوى الغازية: العثمانية والمملوكية.. وكلاهما يسعى لاستعادة نفوذه، ثم دخلت انجلترا حلبة الصراع لتحل محل فرنسا، وقام المماليك بدور العملاء لتمهيد الطريق أمام الإنجليز لاحتلال مصر انتقاما من الفرنسيين، ولكن الوطنية المصرية الوليدة نهضت لتتحمل مسئوليتها الجديدة، وتتصدى لحملة «فريزر» فى سنة ١٨٠٧، وتلقن الإنجليز فى رشيد والحماد درسا قاسيا لم يسلموا من لسعته حتى تحقق لهم احتلال مصر فى عام ١٨٨٢ بطلب رسمى من الخديو الخائن «توفيق».

ظهور العنصر الوطني المصرى

●● ونعود إلى فترة تواجد الحملة الفرنسية، لنعترف بفضلها - دون أن نقصد - في ولادة هذا العنصر الجديد الذى ظهر على الساحة المصرية لينافس بقية العناصر المتصارعة التي كانت تحتكر التحكم في مصير البلاد. وأعنى به العنصر «الوطني المصرى» الذى برز خلال المقاومة الباسلة التي قام بها المصريون ضد الفرنسيين، وهو عنصر لم يكن له وجود قبل هذا التاريخ، ولكنه ولد بعد أن شعر المصريون بالفجيعة في النظام العثماني والمملوكي واتضح لهم عجزه الفاضح عن الدفاع عن البلاد وهي تواجه احتلالا عسكريا أجنبيا.. وتوالت هزائم الجيش المملوكي وهربت فلوله إلى الصعيد وعلى رأسهم «كداب الزفة» مراد بك الذى كان يقسم برأس أجداده أنه سيسحق الفرنسيين كما يكسر حبات الفستق، وأما شريكة في الحكم - إبراهيم بك - فقد جمع غلمانه ومماليكه وجواريه، ومعهم الوالى العثماني، وأطلق ساقيه للريح نحو سوريا.. وتركوا الشعب المصرى - وحده - يواجه مصيره بنفسه - وأثبت المصريون أنهم رجال قادرون على التصدى للعسكرية الفرنسية رغم فارق التسليح والتدريب، شعر المصريون - لأول مرة منذ قرون - أنهم يدافعون عن «وطن» يتعرض للاحتلال من جانب دولة أوربية غاشمة.. وآلت الزعامة الشعبية إلى مشايخ الأزهر وعلى رأسهم «عمر مكرم».. واندلعت ثورة القاهرة الكبرى في أكتوبر ١٧٩٨ وسقط جنرالات الجيش الفرنسي تحت وابل الطوب والشوم وغطيان الحلل ورصاص البنادق المتواضعة وكانت هي كل أسلحة أهل القاهرة.. وأوشكت الثورة أن تطبق على الحملة كلها، لولا المدافع التي نصبها نابليون على تلال

المقطم لتدك البيوت والأزهر الذى تحصن الناس بداخله، فأمر بونابرت خيالته باقتحام المسجد وقتل من فيه، واستباحة حرمته.. وتمزيق مصاحفه وكتبه.. وجعلوا من المحراب مربطا للخيول ومرحاضا يتبولون فيه (!!)

● أين كان الأمراء المماليك فى هذه الأيام العصيبة؟

● وأين كان السلطان العثمانى الذى زعم أنه حامى حمى المسلمين؟

كلهم التزموا الصمت.. ومن خلال هذا الصمت ولدت الوطنية المصرية بطريقة تلقائية، ودون ترتيب أو تنظيم أو توجيه.. نعم.. كان شيوخ الأزهر يحركون أهل القاهرة.. ولكن.. من الذى كان يحرك أهل الريف والصعيد فى المدن والقرى والنجوع والكفور؟؟ ومن الذى كان ينظم هذه الجموع فتخرج من قراها لتنقضّ على جحافل الفرنسيين فى كل مكان يتواجدون فيه.. وفى كل طريق يمرون به؟؟

● ● الجواب: لا أحد.. وإنما هو الحس القومي المكبوت والجريح. انطلق من عقاله ليدفع بالمصريين إلى ميادين التضحية والشرف والجسارة دون انتظار لتعليمات أو توجيهات من أحد، وتدفق الشعور بالمسئولية كالشلال يكتسح فى طريقة حاجز الخوف وحسابات القوى، وكان ماحدث فى تلك الأيام المجيدة ثورة وطنية جارفة، ولم تكن «هوجة» قام بها المسلمون «المتزمتون» في القاهرة احتجاجا على تبذل الفرنسيين وخروج نسائهم متبرجات، كما يقول الدكتور حسين فوزى فى «السندباد» (!!) وإذا كان الأمر كما يقول، فهل كان هناك فرنسيون عابثون وفرنسيات متبرجات في القرى والنجوع؟ أم أنها كانت ثورة

عارمة اجتاحت كل المصريين احتجاجا على إنتهاك حرمة بلادهم (!!) وليس أدل على ذلك من تنامى الشعور بالثقة بالنفس حتى بعد رحيل الحملة، فقد اشتد تيار الوطنية المصرية حتى فرض نفسه على الأحداث التي شهدتها البلاد طوال السنوات الأربع التالية، وعندما حاولت العناصر الغازية أن تستعيد نفوذها وجدت العنصر المصرى ماثلاء ليؤكد حقه في اختيار الحاكم وبينما عملية الاختيار في مخاضها الأخير، إذا بالحركة الوطنية تقع في إبهام تاريخى عندما صعد الزعيم عمر مكرم إلى القلعة يوم ١٣ مايو ١٨٠٥ ليضع مقاليد الحكم على طبق من فضة ويقدمه هدية ثمينة إلى الضابط الألبانى الأصل، العثمانلى الهوية محمد على. الذى جاء ضمن المراكب العثمانية لحمل جنود الحملة الفرنسية إلى بلادهم، وتقبل محمد على الهدية بعد أن أقسم على المصحف بأن لايقطع أمرا دون مشورة العلماء، ولايرتكب شيئا من المظالم، ولايفرض ضريبة فيها إجحاف على المصريين (!!)

استبعاد الزعامة المصرية

● لماذا فعل عمر مكرم هذه الفعلة المحيرة؟ ولماذا أحجمت الحركة الوطنية الوليدة عن تنصيب عمر مكرم نفسه، وكان يتمتع بكل مؤهلات المنصب الرفيع من حيث الثقافة والعلم والجدارة والنسب الشريف؟

● هذه إشكالية تاريخية تعددت فيها التفاسير..

فمن قائل أن تقاليد العصر العثمانى لم تكن لتسمح لأى عنصر ـ خارج الدائرة العثمانلية ـ بتولى منصب الولاية .. كانت السلطنة، فى

ذروة نزعتها الطورانية، ترى قصر المناصب الرفيعة على الترك ومن يلوذ بهم من العناصر السلافية والبلغارية والبوسنية والمقدونية والمورالية.. أما العنصر العربى والمصرى، فمحال أن يشغل منصبا قياديا (!!)

ويعض الباحثين يلقون باللائمة على مشايخ الأزهر الذين كانت تتحكم فيهم عقدة الغيرة والحقد على الزعيم عمر مكرم، فلم يرتفعوا إلى المستوى الخلقى القويم فيختاروه حاكماً على مصر.. وكان «عمر» نفسه يعرف هذه المشاعر الدفينة، ودفعته فضيلة إنكار الذات إلى الامتناع عن طلب الولاية، حتى يكون جهاده خالصا لوجه الله والوطن.

ومن قائل أن المصريين أنفسهم ـ تحت تأثير ولعهم بالأجنبى وكراهة ابن البلد ـ لم يتحمسوا لتنصيب عمر مكرم، وأن هذا المرض العضّال القديم قد استحكم فى أخلاقهم، وأضعف ثقتهم فى أنفسهم، ولم يتصوروا أن يحكمهم إلا مستبد ينتمى إلى جنس الترك، ولو كان يتصف بالعنف والفظاظة (!!)

وأثبتت الحوادث فيما بعد، أن معظم هذه التفسيرات كان صحيحا.. فبعد تولية محمد على، وانفراده بالحكم، ونكوصه عن العهود والمواثيق التى أقسم على احترامها (...) كان عليه أن يزيح عمر مكرم ثم ينفيه إلى دمياط وطنطا، تنفيذا لتعليمات «مكيافيللى» التى تنصح الأمير بأن يطيح بكل الذين ساعدوه على الوصول إلى الحكم (!!) ووجد محمد على تشجيعا وتأييدا ـ بل تحريضا ـ من مشايخ الأزهر للخلاص من عمر مكرم، مقابل إنعامات رخيصة أغدقها عليهم، ثم استردها منهم

بعد أن استخدمهم في التآمر على زعيمهم، وعندما ذهبوا إليه محتجين على إلغاء امتيازاتهم لم يجدوا منه سوى أقذع العبارات.. وهي نتيجة طبيعية لمن يبيع نفسه.. ثم يعجز عن استردادها مرة أخرى بعد أن تكون النفس قد تلوثت وفسدت (!!).

وعندما تبحث في تاريخ الجبرتي عن سر إبعاد الزعيم عمر مكرم عن الحكم، لاتجد جوابا واضحا، رغم أنه كان شاهد عيان على العصر كله، وإنما تجد ارتياحا عند الجبرتي لابعاد الزعيم عن الحياة السياسية كلها بعد انقلاب محمد علي عليه، ولأن الجبرتي كان ينقم على محمد على إلغاء الامتيازات التي كان الجبرتي يتمتع ببعضها، فقد انسحبت هذه النقمة على الزعيم عمر مكرم لأنه، في رأيه، سبب البلوى التي جاءت بهذا الجندي الألباني إلى قمة الحكم، فلما وقع عمر مكرم في المحنة، شمت فيه الجبرتي، لأن من أعان ظالما سلطة الله عليه، وأن الذي وقع له بعض مايستحقه ولايظلم ربك أحدا(!!).

ولسنا الآن بصدد تقويم نظام وطريقة الحكم التي نهجها محمد على بعد أن أصبح واليا مستبدا، وحاكما فردا، فسوف يأتي ذلك في حينه، ولكننا بصدد المراحل الأولى التي مهدت له الوثوب إلى الحكم بإرادة مصرية خالصة، ونعني بها مرحلة انبثاق الحس القومي المصري، فكان محمد علي أول من قطف ثمار هذا النبت الجديد، وفي ذلك يقول المؤرخ عبد الرحمن الرافعي في تأريخه للحركة القومية: أن محمد علي هو أول من استعان بالعامل القومي الذي ظهر على مسرح الأحداث السياسية، وأنه من هذه الناحية: ثمرة من ثمرات الحركة

القومية، ودور من أدوارها التاريخية، اقترن ظهوره بظهور العامل القومي، وكانت ولايته نتيجة اختيار وكلاء الشعب، ومناداتهم به واليا مختارا على مصر، ولقد برهن بعد أن تولى الحكم على أنه أكبر بناء في صرح القومية المصرية.

المصالح العليا للبلاد

●● هذا رأى مؤرخ له وزنه وجهده الدائب فى رصد تطور الحركة القومية المصرية. وهو صريح في تقويمه لمحمد على واعتباره ثمرة من ثمرات القومية المصرية، رغم أنه لايمت إلى المصرية بأية صلة، والرافعى فى ذلك ينهج نهج المؤرخين المصريين فى العصور الاسلامية الذين لم يكن يهمهم جنس الجالس على عرش البلاد، ولا الوسيلة التى دفعت به إلى الحكم، وإنما كانوا يتوقفون عند أعماله، فيحكمون له أو عليه، كما يجرى الرافعى فى مجرى المؤرخين التقليديين عند النظر إلى المصالح العليا للبلاد، والمكانة العظيمة التى تحققت لمصر فى عهد محمد على، وعندئذ لايسع الرافعى إلا أن يعترف بأن عصر محمد على يمثل صفحة مجيدة من صحائف الحركة القومية، ففيه نشأت الدولة المصرية الحديثة، وفيه تحقق الاستقلال القومي، وشيدت الدعائم الكفيلة بالقيام به، فيه تأسس الجيش المصرى، والأسطول المصرى، والثقافة المصرية، وفيه وضعت أسس النهضة العلمية والاقتصادية للبلاد.. فهو عصر استقلال وحضارة عمران..

هذا هو محمد على البنّاء العظيم فى رأى الرافعى، فماذا عن محمد على «آخر المماليك العظام وأول الفراعنة الجدد» كما وصفه جمال حمدان؟ والذى أتى به مزيج من الثورة الشعبية والانقلاب العسكرى، وجاء هو بنظام سياسى واقتصادى واجتماعى هو مزيج من الفرعونية والمملوكية ليصبح بالتالى نسخة جديدة من الطغيان الشرقى، وعلما حديثا على الأتوقراطية المطلقة؟ وكما وضع الفراعنة نظام الرى الحوضى بجهد الفلاحين، اصطنع محمد على نظام الرى الدائم بعرق الملايين على مدار الستين فى شق الترع وتطهيرها وتعميقها وبناء الجسور والقناطر ومواجهة الفياضانات العالية واستصلاح البرارى (...) كل ذلك بالسخرة غالبا، وتحت الكرباج والفلكة دائما (!!) وكما كان فرعون مالك الأرض، أعلن محمد على نفسه المالك الوحيد فصادر ملكية الفلاح وغير الفلاح، تاركا له حق الانتفاع وحسب. هذا بعد أن ألغى نظام الالتزام، واسترد للدولة أراضى الأوقاف وإقطاعيات المشايخ العلماء والأمراء المماليك.. ثم لم يلبث أن فرض نظام الأحتكار على الأنتاج الزراعى، رغم إرادة ومعارضة الفلاح وهربه.. ثم فرضه على التجارة الداخلية والصناعة المحلية، جميعا.. وبذلك تحول «المحتكر الأول» إلى صورة كالحة من رأسمالية الدولة.. لقد تحولت الملكية إلى الملكية.. وخلق محمد على لأول مرة فى تاريخ مصر إقطاعا فعليا حقيقيا.. بعد أن كان نظريا.. وبدأ عصر جديد تماما فى تاريخ الملكية الزراعية فى مصر، وتحت دعوى إصلاح الأراضى البور: أقطع الأبعديات والشفالك والوسايا والعزب لأفراد أسرته وعملائه وعماله

وأتباعه وشيوخ البدو، وذلك على نطاق ضخم أرسى نواة الأقطاع الحديث..

مقاييس عصرنا

●● صورتان متناقضتان.. كلاهما يقع على طرف يبعد عن الآخر بعد المشرقين..

فى الأولى يطل علينا محمد على فى صورة المصلح والمنقذ والبناء العظيم.. وفى الثانية يبدو جبارا طاغية غليظ الفؤاد، يتحكم فى مصير البلاد كما يتحكم المالك فى ملكه.. وليس من شأن هذا التناقض أن يزعجنا.. أو يضعنا فى حيرة الباحث الذى ينشد الحقيقة المطلقة، أو القارئ المتعجل الذى يريد أن يختصر الطريق ويجد أمامه حكما نهائيا على الرجل غير قابل للنقض: إما أبيض أو أسود.. فيطمئن وجدانه، ويضع حيثيات الحكم فى أعماق ذاكرته حين يستعرض تاريخ العظماء.. ومحمد على أحدهم بدون شك.. ومن شأن عظماء التاريخ أن تختلف حولهم الأقوال على مر العصور.. ألم يختلف الناس حول هارون الرشيد فقال بعضهم أنه كان رجل لهو وعبث ونساء ومجون؟.. حتى أطلقوا اسمه على الحانات وعلب الليل لاجتذاب السكارى والماجنين.. وقال آخرون: بل كان تقيا نقيا يحج عاما ويغزو عاما، ويصلى فى الليل مائة ركعة.. و.. ألم يختلف الناس حول جدة الخليفة المنصور؟ فقال قائلون أنه كان سفاكا للدماء، لايتورع عن قتل أصحاب الفضل إذا اشتم منهم رائحة التآمر على سلطان الدولة.. ألم يقتل المنصور أبا مسلم الخراسانى الذى يرجع إليه الفضل فى إقامة ملك

العباسيين على سنان رمحه..؟ وهو الذى قضى على دولة الأمويين بماكان يتمتع به من شجاعة وحسن تدبير.. ألم يقتل المنصور الأديب العظيم عبد الله بن المقفع قتله شنعاء فكانوا يقطعون أوصاله - وهو حي - ويلقون بها في النار، وهو ينظر إليها ودخان الشواء يخنق صدره حتى لفظ أنفاسه.. وقال آخرون: بل كان المنصور رجل دولة من الطراز الأول، وهو الذى وطد أركان الدولة بالحزم والعزم والضبط والربط.. ولولاه لذهبت الدولة في مهب الريح، وعصفت بها مؤامرات الأعداء والخارجين.. وأنه كان عالما وفقيها يجالس مالك وأبى حنيفة وأبى يوسف، ويجادلهم جدال العالم (!!)

والأمثلة كثيرة حول اختلاف الناس في تقويم العظمة، وكلهم ينظر إلى الشخصية التاريخية من الزاوية التي توافق منهجه وتفكيره.. فأرباب الفكر الحر يرفضون التضحية بالمبادئ والقيم وحرية الفرد بحجة الحفاظ على أمن الدولة: وعلى النقيض منهم يرى دعاة القومية أن بناة الدولة لايلامون إذا صادروا الحرية الفردية من أجل توطيد أركان الدولة، فمناعة الدولة مقدمة على حرية الفرد.

●● وسواء صحت نظرية هؤلاء أو أولئك.. فان العدالة في تقويم العظماء تقتضينا أن نحكم عليهم بمقاييس عصرهم، وليس بمقاييس عصرنا، وأن نفهم الظروف التي عاشوا فيها، وهي بلاشك تختلف شكلا ومضمونا عن ظروف عصرنا.. وكل هذا يتطلب أن ننتقل بعقولنا إلى العصر الذى كانت فيه مصر قبيل ظهور محمد على لنحدد مقدار المكسب أو الخسارة من خلال المقارنة بين مصر القرن الثامن عشر، ومصر في القرن التاسع عشر.

مصر قبل محمد على

لكى نضع محمد على فى إطاره الحقيقى، ونقوّم مكانته فى منظومة التاريخ المصرى، فإن علينا أن نبدأ بإطلالة على أوضاع مصر فى القرن الثامن عشر وهو القرن السابق على ولادة النهضة المصرية الحديثة.. كيف كانت تحكم مصر؟ وماذا عن مستوى التعليم والثقافة والعادات والتقاليد السائدة.. ماذا كان نصيب المصريين فى ثروات بلدهم.. من واجبنا أن نستجلى هذه الحقائق حتى يتبدى لنا الفارق بين حالة مصر فى قرنين متتالين.. ومن خلال المقارنة يتضح لنا دور محمد على فى بعث مصر من وهدتها، وجعلها قاعدة لدولة عظمى تحمل رسالة المدنية، وتستأنف رسالتها الحضارية، بعد أن كانت فريسة يتكالب عليها الأوغاد من مطاريد العثمانية، وفلول المملوكية الغازية. ويتحكمون فى مصيرها وأموالها ومقدراتها ويزرعون فيها بذور الجهالة والفساد والخرافات والخزعبلات، لقد نضب معينها العلمى والثقافى والحضارى، حتى إذا نزلها أحد الولاة الأتراك، يحدوه الأمل فى مجالسة علماءها والاغتراف من علومها، لم يجد مايشفى

عليه، فقال قولته الأسيفة: «المسموع عندنا فى الديار الرومية - يعنى التركية - أن مصر منبع العلوم والفضائل وكنت فى غاية الشوق إلى المجئ إليها، فلما جئتها وجدتها كما قيل... سماعك بالمعيدى خير من أن تراه» (!!)

ولو كلف هذا الوالى التركى نفسه مشقة البحث عن السبب فى ماآلت إليه مصر، لعلم أن أسياده الذين بعثوا به إلى مصر، هم السبب فى تخلفها وشقائها، وإليهم يرجع «الفضل» فى تفريغها من معالم العلم والحضارة، وإدخالها النفق المظلم منذ وطأتها خيل سليم الأول فى عام ١٥١٧م، فقضى على استقلالها، وشنق آخر سلاطينها على باب زويلة، ورسم لها النظام السياسى والأدارى الذى أودى باستقرارها وأمنها، وأضعف قدرتها الانتاجية، فأقفرت الأرض، وخربت القرى، لأن مصر - كما وصفها بونابرت - بلد إذا أحسنت الأدارة فيه أكل العامر الصحراء، وإذا فسدت الأدارة فيه، أكلت الصحراء الأرض العامرة. ولقد كان النظام العثمانى من أسوء النظم التى مرت على مصر، وماظنك ببلد يتنازع الحكم فيه ثلاث قوى، كل منها تتربص بالأخرى وتكيد لها، والغارم فى النهاية هو شعب مصر الذى كان عليه أن يروى نهم هذه القوى المتعطشة دوما إلى المال.. والدماء (!!)

كان يجلس على رأس السلطة (الوالى) ممثل الشرعية العثمانية وتبعث به الآستانة لمدة عام واحد لايترك منه يوما يضيع دون نهب بقدر ما تساعده قدراته على النهب، فاذا أراد التجديد لمدة عام أو يزيد، كان عليه أن يبعث بالرشاوى والهدايا إلى الباب العالى ليحصل على

مبتغاه وكان إلى جانبه فيالق عسكرية هى (الأوجاقات) التى كانت تضم شراذم من أحط وأسفل ما استطاعت العثمانية جمعه من المرتزقة والعاطلين الذين احترفوا العسكرية، وليس فيهم من شرف العسكرية نصيب، بل كانوا نسوراً جارحة نهشت جلود المصريين بالأنياب والسياط، وتحولوا من حراس على الأرض وحماة لها من ذئاب البدو، إلى عصابات وحشية تنقض على القرى فيغتصبون النساء جهراً ويخطفون الغلمان ويمارسون اللواط علنا... وكانت تلك هى القوى الثانية التى زرعها العثمانيون فى مصر لتثبيت احتلالهم لها حتى مشارف القرن التاسع عشر.

أما القوة الثالثة فكانت قوة الأمراء المماليك الذين ترك لهم العثمانيون حكم الأقاليم، وصارت إليهم سلطة الأدارة المحلية بحكم درايتهم بأمور مصر وأساليب حكمها، وبرغم الصراعات الداخلية فيما بينهم، إلا أنهم جعلوا من أنفسهم حزباً قويا فى مواجهة «الباشا» الوالى، وقادة الوجاقات، وصار زعيمهم يسمى (شيخ البلد) وله من النفوذ مايفوق نفوذ الوالى.

بهذه التركيبة الحديدية، دارت رحى النظام الأدارى لتعتصر المصريين اعتصاراً قاسياً وأليماً، وجعل مصر شجرة عجفاء جفت رحيقها، وتساقطت أغصانها، ولم يتركها إلا جذعاً خاوياً غير قادر على العطاء.. كان مماليك القرن الثامن عشر غير أجدادهم عند مطلع ظهورهم وبلغوا ذروة الفتوة لايعرفون إلا حياة الكر والفر والنزال، فهزموا الصليبيين فى المنصورة، والمغول فى عين جالوت، وأنقذوا

عالم الإسلام من فكي الكماشة التي أطبقت عليه من الغرب والشرق، وحازوا شرف إزالة آخر أثر للوجود الصليبي من فلسطين عندما نجح الأشرف خليل بن قلاوون في تدمير أقوى وآخر حصون الصليبية في الشرق الإسلامي. وكان هذا آخر العهد المجيد لهؤلاء الصعاليك الذين نشأوا رقيقا ثم صاروا ملوكا.. وبعدها.. خلدوا إلى النعيم والخلاعة إلى أن دهمتهم العثمانية فأزاحتهم عن ملك مصر، ولكنهم عادوا من الباب الخلفي، واحتلوا مقاعد السلطة المحلية: سناجقاً وكشافاً، بل احتكروا السلطة الفعلية المباشرة، وجعلوا سلطة الباشا القابع في القلعة لاتزيد على سلطة الطرطور الساكن فوق رأسه، فإذا لم يعجبهم أو إذا استثقلوا دمه أونو جسوا منه الغدر، بعثوا إليه رسولاً يضع على رأسه قبعة لها حافة عريضة تشبه الطبق، فيصعد (أبو طبق) إلى القلعة، ويتقدم من الوالي، وينحني بكل احترام وأدب، ويطوي السجادة أمامه قائلا: إنزل ياباشا(!!) فلا يسع الباشا إلا أن ينزل.. ويتجه إلى بولاق في انتظار أول سفينة تحمله إلى الآستانة، ويأتي من بعده باشا جديد أكثر طوعا لأرادة البكوات وأن كان أكثر رغبة في النهم والجشع.

بروفة علي بك الكبير

●● في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر، استطاع أحد هؤلاء البكوات - هو علي بك الكبير - أن يتمرد على السلطان، ويستقل بشئون مصر، ويضرب النقود بأسمه، ويحرك الجيوش إلى الشام، ولكن العثمانية التي سبق أن احتلت مصر عن طريق الخيانة المملوكية في معركة مرج دابق، استخدمت نفس الأسلوب. واستطاعت شراء ذمة

قائد الجيش - محمد بك أبو الذهب - وهو زوج ابنة على بك فى نفس الوقت، فعاد من الشام ليعلن الحرب على سيده ومولاه وحميه، ويقتله فى الصالحية، وبذلك فشلت المحاولة الاستقلالية الأولى وكانت حركة على بك الكبير هى البروفة التى مهدت لمحمد على باشا الطريق إلى الحكم، ولكن بعد أن أستفاد من أسباب فشلها، وهو خيانة المماليك، ولذا جعل أكبر همه إزاحة هذه الطغمة الباغية بعد أن صارت مثل اللقمة المحشورة فى زور أى حاكم يسعى إلى استقلال مصر وتحديثها وتجديد شبابها، وتقطيع روابطها بالعثمانية التى دب فيها العفن، وبقدر ماكان الوجود العثمانى الرسمى يميل نحو الأفول - تبعا لضعف الدولة المركزية - بقدر ما كان النفوذ المملوكى يزداد شراسة متحالفا مع بقايا الشراذم العسكرية العثمانية التى توطنت، كالداء الوبيل، فى تضاعيف الحياة المصرية، وصار أفرادها يتملكون الضياع والعزب ويحتازون الامتيازات، ويمارسون التجارة، وللأسف، رأينا بعض المصريين من التجار والأعيان يلوذون بهم على سبيل التزلف والتعلق بأذيال الطبقة ذات النفوذ، ويكونون عوناً لهم على مايرتكبون من فظائع ومظالم بنى وطنهم، بل وجدنا بعض النساء ينتسبن إلى هذه الوجاقات العسكرية وراثة عن أزواجهم، ويتمتعن بامتيازاتهم، وتشكل من هذه الشرائح الأرستقراطية قوة ضاغطة على الحياة المصرية فى شتى نواحيها، لاتعرف إلا الكرباج كأداة وحيدة فى التعامل مع المصريين. ولن نستطيع فهم أبعاد هذه العلاقة إلا إذا ألقينا نظرة على نظام الملكية الزراعية، فهو المعيار الذى توزن به الأوضاع فى بلد يقوم اقتصاده

الرئيسي على الزراعة. وتعتمد خزينة الدولة على ماتجبيه من الفلاحين في شكل ضرائب وإتاوات وعادات لاتقع تحت حصر.

نظام الالتزام في جباية الضرائب

(● ● ابتدع العثمانيون نظام (الالتزام) وبمقتضاه توزع البلاد والقرى على (الملتزم) الذى يضمن جباية الضرائب وتسليمها إلى الحكومة، وله سلطة مطلقة في البلاد التي يضع يده عليها، فإلى جانب الضرائب القانونية التي تسمى (المال الميرى) كان من سلطة الملتزم أن يفرض على الفلاحين من الضرائب والأتاوات مايفيض من المال الميرى المقنن وهو «الفايظ» الذى جعله الفلاحون مرادفا للربا الذى يفرضه الملتزم لتحقيق مصادر إضافية لدخله، رغم أن الحكومة كانت تمنحه - مقابل التزامه - بعض الأطيان تسمى (الوسية) معفاة من الضرائب ويلتزم الفلاحون بزراعتها وخدمتها بالسخرة - أى بدون أجر - وكان يعاون الملتزمين في نشاطهم جهاز إدارى محلي - كله من المصريين - الذين خلت قلوبهم من الرحمة، وسخروا أنفسهم - كجلادين - في خدمة الملتزمين مقابل مايحصلون عليه من مال حرام منتزع من لحم الفلاح ورغم ضخامة هذا الجهاز الجهنمى المطبق على أنفاس الريف المصرى، لم تفكر الدولة في النهوض بالثروة الزراعية أو الإنفاق على إصلاح الأراضى أو شق الترع وتطهير المصارف، فقد ركزت كل جهدها في استنزاف الأموال، فتدهور الريف، وهجر الفلاحون قراهم، حتى يذكر الجبرتي أن إقليم المنوفية لم يعد به سوى خمسة وعشرون قرية بها بعض السكان، وباقي القرى هجرها أصحابها

ولم يعد بها لا ديار.. ولا نافخ نار (!!) وكتاب (الريف المصرى فى القرن الثامن عشر) للدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن يعطينا صورة تفصيلية دقيقة عن تغلغل هذا الجهاز الأدارى كالسرطان فى شتى أنحاء البلاد، ويضم شبكة حديدية تتعاون على الإثم والعدوان، وتتحالف على ظلم الفلاحين، وتفرض عليهم المغارم والمظالم ولايجدون مغيثيا ينتشلهم من هذا البؤس.

فهناك شيخ القرية (العمدة) الذى يعينه الملتزم وينوب عنه فى تحصيل الضرائب من الفلاحين. فكانوا يختلسونها لأنفسهم، ويزعمون للملتزم أن الفلاح لم يدفعها، ويضطر إلى دفعها مرة ثانية، وقد سجلت وثائق المحكمة الشرعية عجز الفلاحين عن استرداد أموالهم التى دفعوها ظلما، وكان من مهمة مشايخ القرى إخراج الفلاحين بالسخرة للعمل فى ترميم الجسور وقت الفيضان، وكانوا يقاسمون الصيارفة فى الأموال الحرام التى يأخذونها من الفلاحين مقابل اتقاء شرهم، وبهذه الأساليب غير المشروعة تمكنوا من تكوين ثروات ضخمة بمقياس العصر، واتخذ بعض هؤلاء المشايخ من قسوتهم على أبناء طبقتهم وسيلة للتسلق لدى أجهزة الأدارة المركزية، والأرتقاء بأنفسهم درجة، ووسيلة لجمعهم الثروات، وقد عبر أحد الكتاب المعاصرين عن قسوة مشايخ القرى على الفلاحين، وعدم رحمتهم، بأن فقهاء القرى أصبحوا يكتبون فى تمائمهم ضد النمل قولهم: إرحل أيها النمل كما رحلت الرحمة من قلوب شيوخ القرى (!!).

أما الكاتب المعاصر الذى أشار إليه الدكتور عبد الرحيم، فهو الشيخ يوسف الشربينى مؤلف كتاب (هز القحوف فى قصيدة أبى شادوف)

وهو كتاب يصور عذابات الفلاحين المصريين في العصر العثماني، ويرسم بأسلوب صريح وساخر معاناة الريف من جباة الضرائب القاسية قلوبهم.

وكان الملتزم يقوم بتعيين (مباشر) يعتبر بمثابة الوكيل له في حصة الالتزام، وكان يعاون هذا المباشر عدد من الصيارفة الأقباط، لكل منهم منطقة اختصاص، ووظيفته جباية الأموال المقررة على الفلاحين، يدفع منها النفقات الأدارية التي تتطلبها مصلحة الالتزام ويسلم الباقي للملتزم، والواقع أن بعض الصرافين - كما توضح وثائق المحاكم الشرعية - لم يؤدوا عملهم بأمانة وإخلاص، وكانوا يستغلون نفوذهم أسوأ استغلال، ويفرضون سلطانهم على الفلاحين، وسجل الشربيني في شرحه لقصيدة أبي شادوف: «إن النصراني، يعني الصراف، إذا نزل قرية لقبض أموالها يحضر إليه الفلاحو ن ويكرمونه ويرسلون إليه الوجبة، ويتذللون بين يديه، ويطيعون أمره ونهيه، بل يكون غالبهم في خدمته، وأن بعض الملتزمين كان يولي الصراف أمر القرية، فيحكم فيها بالضرب والحبس، فلا يأتيه الفلاح إلا وهو يرتعد من شدة الخوف».

ونظرا لقسوة الصراف وخراب ذمته، أصبح الفلاحون يخشونه أكثر مما يخشون الملتزم ذاته، وذكر «جيرار» عن نهاية القرن الثامن عشر: إن فئة الصرافين، توصلت بسبب جهل الفلاحين، وبمشاركة الصيارفة مشايخ القرى في أرباحهم المحرمة، وأحيانا بالرشاوى التي تؤمنهم العقوبات إلى جعل نفقات الجباية ربع الايرادات، أي مايزيد على ثلث الأموال المجبية في مصر.

وإلى جانب هؤلاء، كان هناك: الخولى.. والمساح.. والوكيل.. والمشد.. والكلاف.. وفيالق من الخفراء مهمتهم توقيع الظلم على الفلاح.. وتشكلت من كل هؤلاء سلسلة جهنمية تتعاون على استغلال الفلاحين، ونهب أموالهم. ومحاصرتهم فى حقولهم أو بيوتهم إذا ظهرت منهم بوادر التقصير فى دفع المستحق عليهم.

حاميها.. حراميها

إلى جوار هذا الجهاز الإدارى العفن، كان هناك عساكر (الوجاقات) العثمانية وكان أحطهم خلقا أوجاق (السباهية) وكانت مهمته الأساسية مراقبة الأراضى الزراعية، والمحافظة على شبكات الرى، والأشراف على توزيع المياه على القرى، وحماية الفلاحين من غارات البدو، ولكنهم استغلوا نفوذهم فى الريف إلى درجة كبيرة مكنتهم من السيطرة على كثير من الالتزامات حتى أصبحوا يشكلون النسبة الغالبة من الملتزمين، وبدلاً من أن يكونوا مصدرا للأمن والنظام، صاروا مصدرا لترهيب وتخويف أهل الريف، فسلبوا ونهبوا وارتكبوا الموبقات، حتى أن مصدرا معاصرا أرجع أسباب خراب الريف، وفساد الأحوال، ونقص الأموال والغلال، وانتشار الموبقات، وضعف الفلاحين وسوء أحوالهم المعيشية إلى: ماكان يرتكبه أفراد السباهية من المظالم ومايفرضونه من مغارم وعادات وطلب لم يستطع الفلاح منها فكاكا، حتى أصبح المصرى غير آمن على أمواله وأولاده من أعمال هؤلاء الجند، فكان مجرد اقترابهم من القرية بسبب القلق والفزع لسكانها لأن ذلك لايعنى إلا طلب الأموال، وهتك الأعراض، وعندما حاولت السلطة المركزية

وضع حد لما يسمى (الطُلبة) وهي المغارم والأتاوات المعروفة باسم (حق الطريق) عندئذ ثار السباهية، وأنطلقوا كالوعول الهائجة يدمرون ويسفكون الدماء. ويكفي أن تقف على هذه الصورة البشعة التي كتبها محمد بن أبي السرور البكري الصديقي في كتابه (كشف الكربة في رفع الطُلبة) وهو مخطوط في مكتبة الطهطاوي بسوهاج عن الأعمال الإجرامية التي ارتكبها أفراد السباهية بعد إلغاء غرامة (الطُلبة) فيقول إن مصر اختل أمرها، وضاقت معيشة أهلها، وكثر شرها، وخربت قراها، وضعفت فلاحيها، وانفصمت عراها، وانقلبت أحوالها، وخست أموالها، ونقصت غلالها لما أراد الله تعالى في القوم، من نقلها من الوجود إلى العدم، وخراب البلاد، وهلاك العباد، وجلاء الفلاحين، وازدراء الشرع المبين، وقد اتسق الخرق، وازداد الحرق، وأصل ذلك كله، قيام طائفة من الجند المكتوبين في بلاد الأرياف، مع كشاف الأقاليم، فأظهروا العناد، وسعوا في الأرض الفساد، وأحدثوا شيئا سموه (الطلبة) على الفلاحين والمزارعين في ساير الأقاليم، وعلى العمالين والبطالين، وصاروا يضاعفونها في كل سنة من السنين، إلى أن زادت على أموال المقاطعات، بل عمت وطمت، ولم يقدر أحد على المرافعات، وذلك غير ماصدر منهم من الأمور الشنيعة، والأفعال المنكرة الفظيعة، من الزنا واللواط جهارا، وافتضاض الأبكار نهارا، لايتناهون عن منكر فعلوه، ولايأتمرون بأمر ولاتهم ولايمتثلوه ولايتورعون عن تهديد الكشاف بما فيه القتل، إن قصروا عن ذلك، بل ويسلكون بهم أسوأ المسالك، وصار المسلمون منهم في أمر مريج، ليس لهم منه خلاص، بل أضحوا في غاية التعويج، صار أرذل الجند مقلدا

بالسيوف المسقطة، والسروج بالذهب المنقطة، والخيول المسومة، والعدد المقومة، والمرد (الغلمان) الجميلة المزينة بأنواع الزينة المكملة، راكبين خلفهم أجود الخيول، في لهو وفرح لايزول، وإن وجدوا أيضاً ولداً مقبول الصورة، أخذوه من والده بالسيف، وقد حصل منهم غاية الحيف، مع الفسق بنساء الفلاحين، وافتضاض أبكار بنات المسلمين، بل قتل بعضهم، وسلب مامعه، وغير ذلك من القبايح المنكرة، والحوادث الشنيعة المبتكرة».

ويبلغ الأمر بأفراد السباهية، نتيجة محاولة إلغاء (الطلبة) أن قتلوا الوالي ومعه أمير آخر، وطافوا برأسيهما في شوارع القاهرة، وهم يصيحون صيحات هيستيرية وعلقوهما على باب زويلة، ويحكي ابن أبى السرور ماوقع عليه شخصيا من مظالم السباهية بسبب (الطلبة) «حيث يأتون إلى الكاشف (حاكم الأقليم) فيقولون له: اكتب لنا على الناحية الفلانية كذا وكذا مما يريدون، فيقول لهم: بأي طريقة اكتب لكم ذلك؟! فيقولون: اكتب أن فلاناً اشتكى فلانا، من أهالي الناحية الفلانية. فيمتثل الكاشف لما يقولون ويكتب لهم (حق الطريق) بقولهم وجميع ما يقولون لاأصل له، فهذا معنى (الطلبة) وقد كان لي بلد بالمنوفية - يقول البكري الصديقي - ومالها، أي ضريبتها، مائة ألف نصف فضة، فغرمت أنا وأهلها في مائتي ألف نصف فضة - أي الضعف - وجاء إلى بلدتنا المذكورة شخص من العسكر السباهية بطلبة يزعم فيها أن حق الطريق ألف نصف فضة، فحين دخل القرية هرب أهلها جميعا، فرأى امرأة لها ولدين، فأخذهما منها، وألقى بهما في الخرج، فحين رأت الأم ذلك، ذهب عقلها، فجاءت له بمصاغها، وقالت

له: هذا يساوى زيادة على ألف نصف فضة، فأخذ الصاغ منها، وأخرج الولدين من الخرج، فإذا هما ميتين. فانظروا على الجرم الذى مايفعله كافر، بخلاف المسلم، فلا حول ولاقوة إلا بالله العظيم»

وعندما تمكن الوالى وكان أسمه محمد باشا من كسر شوكة السباهية المتمردة فى الخانقاه والقاهرة، وقتل من قادتهم عددا كبيرا، ونفى الباقين إلى اليمن، علق بن أبى السرور على هذا الانتصار الذى أحرزه الباشا على السباهية بقوله: «وهو فى الحقيقة الفتح الثانى لمصر فى الدولة الشريفة العثمانية أيدها الله تعالى» وتمكن محمد باشا بهذا الانتصار من إلغاء «الطلبة» واستحق بذلك من المصادر المعاصرة ألقاب «معمر مصر» و«مبطل الطلبة». وفى هذا دلالة على فداحة المعاناة من جرائم هذه الشرزمة الفاسدة ويرتبط بها عدة ظواهر تستوقف النظر:

● الأولى: إن عددا كبيرا من المماليك انتسبوا إلى طائفة السباهية ليتمتعوا بما كان يتمتع به السباهية من نفوذ على أهل الريف، والرغبة فى حيازة الامتيازات التى انتزعوها بالقوة.

● الثانية: انتماء بعض المصريين إلى صفوف السباهية، بل ان هذا الانتماء صار أمنية عزيزة على الفلاح. كما يقول الشربينى فى هز القحوف. وسجلت وثائق المحكمة الشرعية أن عرب الهوارة امتنعوا عن سداد أموال الميرى بحجة انتمائهم إلى الوجاقات التركية العسكرية، ولكن هذه الوجاقات رفضت هذا الأنتماء وقالوا: «هم ليسوا منا.. والعريان لاتكون عسكرية» وقد ساعد على شيوع الأنتساب إلى الفرق العسكرية التركية: الرغبة فى الحصول على الامتيازات

● الثالثة: رغم أن مهمة السباهية كانت محصورة فى الريف، إلا أنهم، كثيرا ماكانوا يذهبون إلى القاهرة للمشاركة فى الفتن والصراعات التى كانت تنشب بين القوى الحاكمة، وكان سفرهم إلى القاهرة يسبب للفلاحين فزعا ورعبا، نظراً لما يصاحب السفر من نهب وسلب فضلا عن الفوضى التى تسود القاهرة عن دخولهم لها.

●●●

تلك صورة بائسة لما كانت عليه البلاد فى القرن الثامن عشر ووقوعها تحت نير طبقة حاكمة تجمع أشتاتا من الشراذم التركية الوافدة، التصقت بها شرائح من الأنتهازية المصرية الطامحة إلى الثراء على حساب الجرح الدامى في الجسد المصرى، فلم يعملوا على وقف الزيف، ولم نسمع طوال هذاالعصر عن ظهور زعامة مصرية قادرة على الوقوف، في وجه العتاة الظالمين، ولم يجد غالبية المصريين من مهرب سوى اللجوء إلى الخرافات والسحر والخزعبلات، والوقوع فى براثن الأدعياء الذين أوهموهم أن مايجرى لهم إنما هو بقضاء الله وقدره، وأن عليهم أن يتقبلوا هذه المظالم بزعم أنها ابتلاء من الله لهم، وأن مايفعله الحكام بهم إنما هو بعض مهامهم التى تستوجب الطاعة. وتعاون الجميع على إفساد العقائد، وأنحطاط الأخلاق، ونشر الذل والاستكانة والخنوع فى نفوس الناس. حتى باتت صورة المجتمع المصرى فى ذلك العصر مثار أسف للرحالة الأجانب الذين عزّ عليهم أن تهبط مصر إلى هذا الدرك وهى التى وضعت أسس الحضارة الإنسانية.

مصر الحديثة

عندما نسمع تعبير (مصر الحديثة) نذكر على الفور (محمد على) فهو المؤسس والرائد الذى انتقل بمصر من ظلام العصور الوسطى إلى مشارف العصر الحديث، وهو الذى أشعل بيده شرارة النور والعلم والعرفان فعم ضياؤها أرجاء مصر والشرق العربى، وهو بهذا يقف على قدم المساواة مع مينا وخوفو وتحوتمس الثالث ورمسيس الثانى فى مصر القديمة، وعمرو بن العاص وأحمد بن طولون والمعز لدين الله وصلاح الدين وبيبرس في مصر الإسلامية، أولئك الذين جعلوا مصر درة الشرق، وواسطة العقد فى منظومة العالم القديم، ووضعوا أيديهم على مفتاح شخصيتها فباحت لهم بسرها، وجعلت منهم حكاماً يلهج بذكرهم التاريخ.

كان ظهور محمد على إيذاناً بأفول ثلاثة قرون من الجهل والضعف والتخلف، عاشتها مصر تحت حكم العثمانيين. وبزغت بظهوره نهضة جديدة أخرجت مصر من كبوتها ودفعت بها إلى مستوى الدول القوية. وأرسى محمد على الأساس المتين لبناء مصر الحديثة، وأدرك بفطرته

السليمة - رغم كونه أمياً لايقرأ ولايكتب - إن التعليم هو نقطة البداية، وأن الحداثة تعني إحياء العلوم والآداب وفتح المدارس وخلق طبقة من العلماء المتخصصين في الهندسة والطب والعمران والأخذ بالأساليب التي أخذته بها الحضارة الأوروبية.

كان التعليم، قبل محمد علي - محصوراً في الكتاتيب التي تعلم الصبية مبادئ الدين والقراءة والكتابة والحساب، وتدفع إلى الأزهر بمن يسعده الحظ بالهجرة إلى القاهرة، ولم يكن الأزهر يقدم لطلابه سوى قشور من علوم الدين واللغة في شكل حواشي وشروح وتعليقات على كتب الأسلاف، وتوقفت فيه حركة التأليف والإبداع، وقد صدم هذا القحط العلمي الأجانب الذين كانوا يحسنون الظن بهذه المؤسسة العلمية العريقة، كان الأزهر هو شعاع النور الضئيل في هذا الظلام الحالك، ومن الأزهر انتخب محمد علي العناصر المؤهلة لاستيعاب العلوم الحديثة. وكان أول مافكر فيه محمد علي إنشاء مدرسة الهندسة وهذا يدل كما يقول الرافعي على الجانب العملي من تفكيره فإنه رأى البلاد في حاجة إلى مهندسين ليقوموا بأعمال العمران فبدأ بانشاء مدرسة الهندسة عام ١٨١٦، ويذكر الجبرتي في سبب تأسيس هذه المدرسة قصة طريفة. ذلك أن أحد أبناء البلد، واسمه حسين شلبي عجوة، اخترع آلة لضرب الأرز وتبييضه، وقدم نموذجها إلى محمد علي، فأعجب بها وأنعم على مخترعها بمكافأة، وأمره بتركيب مثل هذه الآلة في دمياط، وأخرى في رشيد، فكان هذا الاختراع باعثاً لتوجيه فكره إلى إنشاء مدرسة للهندسة، فأنشأها في القلعة.

قال الجبرتي: إن الباشا لما رأى هذه «النكتة» (والنكتة في لغة الجبرتي تعني الحادثة أو الواقعة) من حسين شلبي، قال إن في أولاد مصر نجابة، وقابلية للمعارف، فأمر ببناء مكتب (مدرسة) بحوش السراية بالقلعة، ورتب فيها جملة من أولاد البلد، ومماليك الباشا، وجعل معلمهم حسن أفندي، المعروف بالدرويش الموصلي، يقرر لهم قواعد الحساب والهندسة وعلم المقادير، والقياسات، والأرتفاعات، واستخراج المجهولات مع مشاركة شخص رومي (تركي) يقال له روح الدين أفندي، بل وأشخاص من الإفرنج، وأحضر لهم آلات هندسية متنوعة من أشغال الإنجليز يأخذون بها الأبعاد والارتفاعات والمساحة، ورتب لهم شهريات وكساوي في السنة، واستمروا على الأجتماع بهذا المكتب وسموه (مهندسخانة) في كل يوم من الصباح إلى بعد الظهيرة، ثم ينزلون إلى بيوتهم ويخرجون في بعض الأيام إلى الخلاء لتعلم مساحات الأراضي بالأقصاب وهو الغرض المقصود للباشا.

ولما ضاقت مدرسة القلعة عن الوفاء بحاجة البلاد من المهندسين، أنشأ في عام ١٨٣٤ مدرسة أخرى للمهندسخانة في بولاق، وعين أرتين أفندي أحد خريجي البعثات العلمية وكيلا لها، ثم تولى نظارتها يوسف هاككيان أفندي أحد خريجي البعثات أيضاً - وهو الذي أدخل زراعة اليوسفي إلى مصر، وإليه ينتسب، ثم تولاها علي باشا مبارك، ومن هذه المدرسة تخرج عدد كبير من المهندسين الذين خدموا البلاد خدمات جليلة وشاركوا في بناء القناطر والسدود وبقية المنشآت العمرانية التي زخر بها عصر محمد علي.

مدرسة الطب:

بعد الهندسة اتجه محمد على إلى الطب، فأسس فى عام ١٨٢٧ مدرسة الطب فى أبو زعبل لوجود المستشفى العسكرى بها، ولتوافر وسائل التعليم الطبى والتمرين، فكانت أشبه بالمستشفى التعليمى، فقامت فى البداية بتخريج الأطباء المصريين للجيش. ثم صار يتخرج منها الأطباء لخدمة البلاد عامة، واختارت الحكومة للمدرسة مائة تلميذ من طلبة الأزهر تحت اشراف الطبيب الفرنسى (كلوت بك) الذى اختار لها طائفة من خيرة الأساتذة الفرنسيين يدرسون علوم التشريح والجراحة والأمراض الباطنية والصيدلة والطب الشرعى والكيمياء والطبيعة والنبات، إلى أجانب أساتذة آخرين لتعليم اللغة الفرنسية للطلبة الأزهريين. وبعد خمس سنوات من إنشاء المدرسة تخرجت الدفعة الأولى من الأطباء توزعوا على المستشفيات وفيالق الجيش، أما المتفوقون منهم وعددهم عشرون فأبقى ثمانية منهم للعمل كمعيدين فى المدرسة، وأرسل الأثنى عشر الباقين إلى باريس لإتقان علومهم، فلما عادوا عينوا أساتذة فى المدرسة. وهم الذين تألفت منهم البعثة العلمية الرابعة، وفى عام ١٨٣٧ نقلت المدرسة والمستشفى إلى (قصر العينى) فجاء وجودها فى قلب القاهرة أدعى إلى نشر التعليم الطبى فى مصر.

وألحقت بمدرسة الطب مدرسة خاصة للصيدلة، ثم مدرسة للقابلات والولادة، واختيرت لها مجموعة من السودانيات والحبشيات تعلمن فيها اللغة العربية وفن التوليد وألحق بها مدرسة متخصصة فى أمراض النساء.

ثم توالى ظهور المدارس العالية (بخلاف المدارس الحربية والبحرية) على النحو التالى:

- مدرسة الألسن بالأزبكية.
- مدرسة المعادن بمصر القديمة.
- مدرسة المحاسبة بالسيدة زينب.
- مدرسة الفنون والصنائع.
- مدرسة الصيدلة بالقلعة.
- مدرسة الزراعة بنبروه.
- مدرسة الطب البيطرى.
- المدرسة التجهيزية (الثانوية) بأبو زعبل.
- المدرسة التجهيزية بالأسكندرية.

وبينما كانت همة محمد على تتجه إلى إنشاء المدارس العالية، ثم المدارس الابتدائية التى أخذت تنتشر فى مدن مصر، اتجه تفكيره إلى إرسال البعثات العلمية إلى أوروبا حتى يتوفر لهذا الجيل الجديد من المتعلمين المصريين فرصة التخصص فى شتى العلوم والمعارف التى تدرس فى الجامعات الأوروبية. ومن الأمور التى تثير دهشة المؤرخين هذا الأهتمام الكبير بالتعليم من حاكم أمى لا يعرف القراءة والكتابة. وفى تفسير هذه الظاهرة يذكر عمر باشا طوسون فى مقدمة كتابه (البعثات العلمية فى عهد محمد على):

من أفضل المواهب الإلهية السنية، أن يشعر الإنسان بما فيه من نقص، ويدرك مايؤدى إليه من الأثر السيئ فى حياته، وهذه الموهبة

العظيمة تستتبع فى الغالب موهبة أخرى أكبر وأعظم، وهى أن يدفعه ذلك الشعور إلى تلافى هذا النقص ثم يوفق إلى حد الكمال، ومن يقرأ التاريخ بشئ من العناية، يجد هذه المنح الإلهية قد قيضت لمحمد على، وأن يد المنعم جلت قدرته قد أفاضتها عليه واحدة تلو الأخرى، فعندما أتاحت له الفرصة عرش مصر لابد أن يكون قد تملكه هذا الشعور الصادق بما ينقصه ليكون عرشه قوى الدعائم، فشمر عن ساعد الجد، ولم يبال بما يحيط به من الملمات، وشعر، رغم أميته، بأن الملك لا يشيد إلا على أمتن أساس من العلم، وأن العلم الذى تدعم به الممالك ليس هو العلم الذى يسمونه علماً فى الشرق، وإنما هو الذى قامت به المدنية الغربية، وشيدت عليه صرح عليائها وقوتها، فأقرت لها الأمم بالغلبة، ووقفت أمامها صاغرة ذليلة.

ابتدأ محمد على ينفذ ماجال فى خاطره، فأنشأ المدارس فى القطر على مثال المدارس فى أوروبا، وجلب لها الأساتذة من هناك، ثم ساق إليها التلاميذ قسراً، ولكنه بعد ذلك أحس بأن كل هذا لايفى بالغرض المروم، وأن حاجة البلاد إلى الأجانب من مدرسين وغيرهم لاتزال حيث كانت، وهو لايريد أن تحتاج بلاده إلى شئ مامن الخارج، فهدته الفكرة إلى الحل الصحيح لهذه المعضلة وهو أن يبعث البعوث من الشبان الذين أهلتهم معاهد العلم بمصر إلى أوروبا ليتمموا دراستهم بها، ويخصصوا فى العلوم التى ليس من المصريين أخصائيون فيها، وبذلك يتخلص من الأحتياج إلى الأجنبى، ويضمن الاستقلال العلمى لبلاده التى كان يعمل لاستقلالها، ولايحب أن تشوب هذا الاستقلال شائبة، فأخذ يرسل التلاميذ تباعاً إلى مختلف الممالك الأوروبية ليتخرجوا فى

الصنائع والعلوم والفنون، ولكن ميله كان أكثر إلى فرنسا. لذلك فكر في الشخص الذي يعهد إليه بالإشراف على بعوثه العلمية بها، فهداه حسن الحظ إلى مسيو (جومار) فكان رئيس البعثات المصرية بفرنسا وغيرها.

ولم يكن مسيو جومار حديث الصلة بمصر. فقد كان ضمن علماء الحملة الفرنسية بقيادة بونابرت إلى مصر، واشترك في تأليف كتاب (وصف مصر) وله في هذا الكتاب العظيم مباحث واسعة جزيلة الفائدة بحكم كونه من نوابغ العلماء المهندسين الفرنسيين، ولم ينس لمصر حقها عليه مدة إقامته فيها، وقد عرف محمد على لهذا الرجل فضله، ويظهر أن جومار لم يكن يرغب في القيام بهذه المهمة يتبين ذلك من الخطاب الذي كتبه إليه ونشر عمر باشا طوسون خطاب محمد على بعد ترجمته إلى العربية عن النص الفرنسي:

القاهرة في ١٠ يناير سنة ١٨٣٥م.

جناب المحترم السيد جومار العضو بمعهد فرنسا.

شكراً لك ياصديق مصر العامل بجد وإخلاص لنفعها حتى كأنك نبراس رغباتي في تمدين البلاد التي جعلني الله على رأسها، إذ لم تنقطع عن إظهار ولائك بأدلة قاطعة، وهي تلك الجهود العظيمة التي تعانيها في مراقبتك التلاميذ الذين أرسلتهم إلى وطنك منذ سنين عديدة، وقيامك حق القيام بتهذيبهم، ولقد عادل جدك تضحيتك، وإني وإن لم أجد وسيلة إلى الآن للتغلب على تمنعك الذي ليس له مصدر غير رقة طباعك، أرجو رغبة في إظهار مايكنه فؤادي من قدر فضائلك العظيمة حق قدرها، ألا ترفض الهدية الصغيرة التي أقدمها

لك، ألا وهي علبة تبغ قد يكون لها قيمة في نظرك، عندما تعلم أني أنا الذي أهديتها إليك، وقد أمرت وزيري الأمين (بوغوص بك) أن يوصلها إليك، وإني أؤكد لك أيها السيد إن هذه ليست مكافأة تليق بجهودك التي عادت على مصر بالفوائد الجليلة، بل هي تذكار صغير من أمير ساعدته على أن يسير بعض خطوات في طريق تمدين الشعب الذي يحكمه، وهي في الوقت ذاته رجاء مني لك بالاستمرار في المستقبل فيما بدأت به، وإني لفي انتظار هذا البرهان الجديد على تفانيك في خدمة قطر مدين لك بكثير من الخدم الصالحة ومن جهة أخرى كن متأكداً من العزيمة الصادقة التي اعتزمتها، ألا وهي معاضدة الرغبات التي يبديها لي أمثالك الملتهبون غيرة على الإنسانية. تلك الرغبات التي تبدونها في سبيل الإصلاح، وإني أهدي إليك في الختام تحيات تنبئك عن خالص مودتي.

محمد علي

أول بعثة:

لعلك لاحظت في صدر خطاب محمد علي إلى مسيو جومار انه مؤرخ في سنة ١٨٣٥ أي بعد سبعة عشر عاماً من تاريخ أول بعثة مصرية إلى فرنسا وخلال هذه السنين كانت البعثات تتوالى على فرنسا وتؤتي ثمارها. أما أول بعثة فكانت إلى إيطاليا سنة ١٨١٣ عندما أوفد محمد علي بعض التلاميذ لدرس الفنون العسكرية وبناء السفن والطباعة والهندسة وغيرها. وقد ضاعت القائمة بأسماء هؤلاء ولم يعرف منهم سوى طالب واحد هو (نقولا مسابكي أفندي) الذي ذهب إلى ميلان

ليتعلم فن سبك حروف الطباعة وفنونها، ومكث هناك أربع سنوات عاد بعدها إلى مصر وتولى إدارة المطبعة الأميرية ببولاق إلى أن توفي عام ١٨٣١م.

ولاندري السبب الذي جعل محمد علي يصرف النظر عن إيطاليا ويتجه إلى فرنسا. ربما كان ذلك بتأثير من صديقه (ديلسبس) والد المقاول (فردناند) صاحب مشروع حفر قناة السويس، وربما لاطمئنانه إلى مسيو (جومار) صاحب الخبرة القديمة بالديار المصرية.. المهم أن قائمة هذه البعثة ضاعت هي الأخرى من وثائق بعثات محمد علي، ولم يذكر عمر طوسون سوى واحد فقط هو (عثمان نور الدين) الذي أرسل سنة ١٨١٩ لإتقان الفنون الحربية والبحرية ثم عاد إلى مصر سنة ١٨٢٠ وترقى في مناصبها إلى رتبة (سر عسكر) ورئيس للأسطول المصري سنة ١٨٢٨ بدلاً من (محرم بك) زوج بنت محمد علي. ويذكر عمر طوسون أن عثمان نور الدين - أثناء بعثته - نزل منزلة سامية - من نفس مسيو جومار، فاقترح على تلميذه أن يسعى عند عودته إلى مصر لدى سيده محمد علي ويرغبه في إرسال بعثات كبيرة إلى فرنسا لتلقي مختلف العلوم فيها، فلما عاد عثمان نور الدين عرض على مولاه هذا الاقتراح، فتلقاه بالقبول، وكان ذلك سبباً في إرسال بعثة سنة ١٨٢٦ ومابعدها إلى فرنسا، وكان محمد علي يحب عثمان نور الدين حباً جماً لبذله قصارى جهده وعنايته في خدمته حتى كان لايناديه إلا بلفظة (ولدي عثمان) ولايكتب له إلا بها، وبنى له منزلاً بجواره غربي قصر رأس التين ليكون على مقربة منه، ولقبه على أثر ما ظهر من مهارته الحربية برئيس البر والبحر، ولم يثبت

ثورة كريت وأراد محمد علي إخماد الثورة، أرسل عليها عثمان نور الدين باشا على رأس قوة عسكرية ضخمة فأخضعها بعد أن أعطى رؤساء الفتنة عهد الأمان على أرواحهم وأموالهم، فلم يوافقه محمد على على ذلك، وصمم على قتلهم، فحار عثمان باشا في أمره، ولم يجد مخرجاً من هذا المأزق سوى ترك خدمة مولاه، فترك كريت ولجأ إلى الآستانة سنة ١٨٣٣ وأقام بها إلى أن توفاه الله.

قدوة الأماثل:

وتوالي إرسال البعثات إلى فرنسا.. ورغم مشاغل محمد علي في بناء الدولة العصرية، فإنه لم يكن مقطوع الصلة بأولاده الذين يتلقون العلم في المدن الأوروبية.. ويبلغ من اهتمام محمد علي، بأعضاء البعثات، أنه كان يتقصى أخبارهم ويتتبع سلوكهم وتصرفاتهم وهم في بلاد الغربة، ويواليهم بالنصائح والإرشادات، مثلما يفعل الأب الحريص على مستقبل أولاده. ويكتب إليهم بين الحين والحين رسائل يستحثهم فيها على الاجتهاد والتفرغ للتحصيل، حتى يعودوا إلى وطنهم وهم على أحسن حال. وهذه رسالة أوردها رفاعة رافع الطهطاوى - الرائد الديني للبعثة الأولى - في كتابه المشهور «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» وتلمس فيها قلق الأب الذي ينتظر عودة ابنه وعلى رأسه تاج العلوم:

«قدوة الأماثل الكرام، الأفندية المقيمين في باريس، لتحصيل العلوم والفنون زيد قدرهم، ننهي إليكم أنه قد وصلنا أخباركم الشهرية، والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم، وكانت هذه الجداول المشتملة

على شغلكم ،ثلاثة أشهر مبهمة لم يفهم منها ماحصلتموه فى هذه المدة، ومافهمنا منها شيئاً، وأنتم فى مدينة مثل مدينة باريس التى هى منبع العلوم والفنون، فقياساً على قلة شغلكم فى هذه المدة عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم. وهذا الأمر غمنا كثيراً، فيا أفندية ماهو مأمولنا منكم، فكان ينبغى لهذا الوقت أن كل واحد منكم يرسل لنا شيئاً من ثمار شغله وآثار مهارته. فإذا لم تغيروا هذه البطالة بشدة الشغل والاجتهاد والغيرة، وجئتم إلى مصر بعد قراءة الكتب، فظننتم أنكم تعلمتم العلوم والفنون، فإن ظنكم باطل فعندنا ولله الحمد والمنة، رفقاؤكم المتعلمون يشتغلون ويحصلون الشهرة، فكيف تقابلونهم إذا جئتم بهذه الكيفية وتظهرون عليهم كمال العلوم والفنون، فينبغى للإنسان أن يتبصر فى عاقبة أمره، وعلى العاقل ألا يفوت الفرصة وأن يجنى ثمرة تعبه، فبناء على ذلك، إنكم غفلتم عن اغتنام هذه الفرصة، وتركتم أنفسكم للسفاهة، ولم تتفكروا فى المشقة والعذاب الذى يحصل لكم من ذلك ولم تجتهدوا فى كسب نظرنا، وتوجهنا إليكم لتتميزوا بين أمثالكم. فإذا أردتم أن تكتسبوا رضاءنا، فكل واحد منكم لايفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل العلوم والفنون وبعد ذلك كل واحد منكم يذكر ابتداءه وانتهاءه كل شهر، ويبين زيادة على ذلك درجته فى الهندسة والحساب والرسم، ومابقى عليه فى خلاص هذه العلوم ويكتب فى كل شهر مايتعلمه فى هذا الشهر زيادة على الشهر السابق، وإن قصرتم فى الاجتهاد والغيرة، فاكتبوا لنا سببه. وهو إما من عدم اعتنائكم أو من تشويشكم. وأى تشويش لكم: هل هو طبيعى أو عارض، وحاصل الكلام أنكم تكتبون حالتكم كما هى عليه حتى نفهم ماعندكم، وهذا مطلوبنا منكم، فاقرأوا

هذا الأمر مجتمعين، وافهموا مقصود هذه الإرادة، وقد كتب هذا الأمر في ديوان مصر في مجلسنا في الإسكندرية بمنة الله تعالى».

الصدمة الحضارية :

وفي كتابه الوثائقي عن بعثات محمد علي إلى باريس، يعطينا عمر باشا طوسون صورة تفصيلية عن حياة الطلاب المصريين في الخارج والعلوم التي كانوا يدرسونها، والطعام الذي كانوا يأكلونه، والصدمة الحضارية التي حدثت لهم عند هبوطهم أرض فرنسا، وإتقانهم اللغة الفرنسية خلال فترة زمنية قصيرة. يقول مديرهم الفرنسي: من المدهش الذي لا يكاديصدق أن عربا أتوا باريس منذ عشرين شهرا تمكنوا من أن يعبروا عن أفكارهم بشعر فرنسي لا عيب فيه، وألفوا مقطوعات منه يشرف الفرنسيين اتيانهم بها. وفي كل ما يخطه قلم هؤلاء الشبان المصريين باللغة الفرنسية يجد القارئ ضرباغريبا من البساطة وحرية الفكر يستأهل الذكر، ويظهر من فحوى كتابتهم انهم قبل ان يكتبوا يفكرون بعقل فرنسي لا بعقل عربي، فمن المنتظر أن الخرافات الشرقية ستنمحي من عقولهم، وأن الحجب الكثيفة التي تغطي أعين الشرقيين وتقيدهم بسلاسل الطفولة ستسقط تدريجيا على الأقل عن أولئك الذين يدرسون عندنا.

وقال الطالب محمد مظهر، (باشا فيما بعد) في رسالة له إلى أحد أصدقائه بالقاهرة: عندما نزلت في مرسيليا ظهر لي جملة مناظر لم أرها من قبل، أولها جمال المباني مع علوها الشاهق ثم الشوارع المرصوفة مع اتساعها واستقامتها، ثم اني سمعت جلبة لم أسمع مثلها، ورأيت بعد ذلك عربات تجرها الجياد (لعله يقصد الحناطير) وهي أول مرة في حياتي أرى فيها هذا

المنظر وكانت تلك العربات لا ينقطع مرورها في الشوارع. وقد استولت عليَّ الدهشة عندما وقع بصري على السيدات الفرنسيات وقد سفرن (من السفور) بحرية بأزيائهن الجميلة في الشوارع والميادين والمتنزهات، الأمر الذي تاباه عادتنا وشرائع بلادنا.

البعثة الأولى:

ويعرض المؤلف بيانا تفصيليا عن أفراد البعثة الاولى وجنسياتهم والعلوم التي تخصصوا فيها، وكان اعضاء هذه البعثة ٤٤ منهم ثلاثة رؤساء واثنين انضما اليها بعد سفرها، وخمسة غائبين. أما الباقون فمنهم أربعة أرمن مسيحيين وثلاثون مسلمون، وأن ثلاثة منهم يحملون لقب شيخ، و١٨ مولودون في مصر وستة عشر خارج مصر، وأحد الـ ١٨ عثماني الأصل مولود في القاهرة من أم مصرية وهو محمد مظهر باشا وأن ١٢ آخرين هم عثمانيون أتوا إلى القاهرة يافعين،.

أما الثلاثة الشيوخ فهم الشيخ أحمد العطار وتخصص في علوم الميكانيكا، والشيخ محمد الدشطوطي وتخصص في دراسة الطب والجراحة والتشريح، أما الثالث فهو الشيخ رفاعة الطهطاوي الذي درس الترجمة من الفرنسية إلى العربية.

ويقدم لنا المؤلف نبذة عن امتحان هولاء التلاميذ في العلوم الطبية كما سجلها كلوت بك وكيف أن كلوت بك ذهب إلى باريس سنة ١٨٣٢ وبصحبته ١٢ تلميذا مصريون منتخبون من متقدمي تلاميذ مدرسة الطب بأبو زعبل، وعند وصولهم باريس اختبروا من الجمعية العلمية الطبية بحضور عظماء العلماء الأوروبيين فأسفر هذا الاختبار عن نجابة هؤلاء التلاميذ وعلو همة

أستاذهم في التعليم، وكانت إجابتهم عن الأسئلة التي وجهت إليهم باللغة الفرنسية لأنهم كانوا يتعلمونها في مصر، وقد اعترفت لهم هذه الجمعية بوصولهم إلى درجة التلاميذ الفرنسيين ولما كانت رغبة محمد على باشا امتحان هؤلاء التلاميذ بفرنسا حتى يظهر مبلغ ما وصلوا إليه من العلوم الطبية التي تلقوها في مصر، فقد تشكلت لجنة من كبار العلماء الفرنسيين وتحدد الاجتماع في الساعة الواحدة من ظهر يوم الأحد ١٨ نوفمبر ١٨٣٢ بقاعة جلسات الجمعية العلمية الطبية الملكية، وأول من دعى منهم للامتحان الشيخ منصور فسئل عن تركيب العين وعلى الخصوص البلورية وكيفية تكون الكاتراكته وعن العملية اللازمة لانقاذ المريض منها، فأجاب وأجاد وصفق له الحاضرون استحسانا، وأثنوا عليه ثناء مستطابا، ثم دعى حسين الهيهاوى أفندى فسئل عن شرح العجان وعنق المثانة وعن الأعراض التي تدل على وجود الحصاة المثانية وعن كيفية استخراجها بالطريقة التي كان يستعملها كلوت بك، فأفاض وأجاب اجابة حسنة . ثم قام ابراهيم افندى النبراوى فسئل عن تركيب المفاصل العضدية وعن خلع الذراع وكيفية ردها فأجاب بما أظهر قوته وأبان للحاضرين ذكاءه وفطنته ولما وجد البارون (ديبويترن) نجابة التلاميذ المصريين نهض فيهم خطيبا فقال: أيها التلاميذ أبناء مدرسة الطب بأبي زعبل، من دواعي الغبطة والسعادة لنا أننا دعينا إلى هذه الحفلة لنشاهد ما اكتسبتموه بمدرستكم الطبية بمصر من العلوم، وقد أبان لنا تفوقكم أن مدرستكم اعادت إلى مصر شهرتها القديمة في العلوم الطبية بعد ما أصابها الخمول، والفضل في ذلك يرجع إلى واليها الأمير الأعظم محمد على باشا الذى قبض على زمامها وسيرها في الطريق الأقوم ونشر ما طوى من مفاخرها الماضية، وشيد ما قوضته بها أيدى الزمان من معالم

الحضارة والعمران، وأنشاء مدرستكم وانتخب لها الدكتور كلوت بك فأحيا بعمله الجليل ذكرى مدرسة الاسكندرية الشهيرة فلحضرته الشكر الجزيل، ولكم أيها الشبان النجباء منا ايضا جزيل الشكر والثناء، فقد نطقتم بالصواب بلغة غير لغة بلادكم مما دل على أنكم تعلمتم على أساس متين، وقد جعل ذلك أملا فى انكم ستحيون مجد أجدادكم العظماء من كبار الأطباء كابن سينا والرازى والزهراوى وانكم ستسيرون على منوالهم وتحيون آثارهم لتكونوا نعم الخلف لهؤلاء السلف.

الأسطوات:

ولم تتوقف البعثات على الدراسات العليا، وانما شملت أيضا أيفاد الاسطوات لتعلم الصنائع والفنون التطبيقية، وفى سنة ١٨٣٢ ارسل محمد على ١٥ تلميذا تحت اشراف أدهم بك منهم اربعة لتعلم معدن الفحم (التعدين) فى انجلترا التى هى أشهر ممالك اوروبا بمناجم الفحم والتعدين، وبعضهم للتدريب فى ورش صناعة الحرير.. ومما يذكر عن ادهم بك انه عندما وصل إلى انجلترا خلع الزى الشرقى المصرى، وارتدى الزى الانجليزى وقلد الانجليز فى عاداتهم وأحوالهم، وما أن علم عزيز مصر بما حدث من أدهم بك حتى أمر بإعادته إلى مصر مغضوبا عليه، وقال: أننى بعثته ليعاين فابريقاتهم (يعنى ورشهم ومصانعهم)ويقف على مصانعهم لينشها فى مصر لا ليقلدهم فى ملابسهم وعاداتهم، ثم عفا عنه بشفاعة حفيده عباس باشا وعينه مديرا لديوان المدارس.

أولادنا فى باريس

كان رفاعة رافع الطهطاوى أشهر وأشهى ثمرات البعثات العلمية الكبرى التى أرسلها محمد على إلى فرنسا، رغم أن المهمة الأساسية لهذا الشاب الأزهرى ان يؤم المبعوثين فى الصلاة ويحثهم على التمسك بالفضائل حتى لا يقعوا فى حبائل الغواية، ولكن عبقرية رفاعة، وحبه للبحث والاطلاع، واستعداده الفطرى للمقارنة، جعله يتغمس فى دراسة الأحوال السياسية والفكرية والاجتماعية المحيطة به، فعاد إلينا وهو يحمل فى عقله أفكارا جديدة كانت الأساس الذى قامت عليه النهضة المصرية - والعربية عامة - فى مجال الفكر والسياسية وأنظمة الحكم الدستورية، ومن هنا طغت شهرة رفاعة الطهطاوى على شهرة مئات المبعوثين الذين تخصصوا فى علوم الطب والهندسة والرياضيات وفنون الحرب، وإذا كان الفكر الحديث لا يزال هائما فى فلك الطهطاوى، ومتصلا بتراثه الذى صبه فى «تخليص الابريز فى تلخيص باريز» و «مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية» وغيرهما من كتب التنوير، فإن أحدا لا يذكر شيئا عن المؤلفات التى وضعها علماء البعثات بعد عودتهم فى مجال تخصصهم .. من منا يذكر كتاب «ثمرة الاكتساب فىّ علم الحساب»، و«جامع الثمرات فى حساب المثلثات» للعلامة

مصطفى باشا بهجت، أو «القانون الرياضى فى فن تخطيط الأراضى» لابراهيم بك رمضان، أو «الأقوال المرضية فى علم بنية الكرة الأرضية لأحمد باشا فايد». أو «غاية الفلاح فى أعمال الجراح» و«نشر الكلام فى جراحة الأقسام» للدكتور محمد على البقلى باشا، و«نزهة الإقبال فى مداواة الأطفال» للدكتور أحمد حسن الرشيدى بك..

هذه عينة من الكتب التى ألفها علماء البعثات ووضعوا فيها خلاصة بحوثهم، وصارت هذه المؤلفات تشكل مناهج التدريس فى المدارس العالية التى أقامها محمد على، وتخرج فيها الرعيل الأول للطبقة المثقفة التى حملت عبء النهضة العلمية فى القرن التاسع عشر، وإذا أردت ان تعرف حجم النقلة الهائلة فى الحياة الثقافية المصرية، فما عليك إلا أن تقارن بينها وبين ما كانت تفرزه القريحة المصرية الخاوية - قبل محمد على - إلا من قشور سطحية، وتعليقات ضحلة على تراث الأسلاف، ناهيك عن الخرافات والخزعبلات التى كانت سائدة فى مصر والشرق.

هؤلاء الرواد:

من المفيد، ونحن نقلب فى التراث العلمى لمشروع الدولة المصرية التى أقامها محمد على، أن نزيح الغبار عن هؤلاء الرواد، ونبحث فى أصولهم الاجتماعية، والبيئة التى خرجوا منها، والظروف التى عاشوا فيها أثناء اقامتهم فى فرنسا، حتى يتواصل حاضرنا بماضينا، وتتضح لنا معالم اللبنات الأولى فى الهرم الثقافى المصرى.

إن المعلومات القيمة التى جمعها عمر باشا طوسون فى كتابه الوثائقى عن «البعثات العلمية فى عهد محمد على» تعطينا صورة وافية عن حجم هذه

البعثات والعلوم التي درسوها والمرتبات التي كانت تمنح لهم. ولكن لم يتطرق عمر باشا طوسون إلى القواعد التي تم على أساسها اختيارهؤلاء المبعوثين، أو الجهات التي رشحتهم، أو الأصول الاجتماعية لهم، وان كانت البيانات التحليلية تدل على أنها كانت تضم مسلمين ومسيحيين، وغير مصريين ينتسبون إلى أصول تركية وشركسية وأرمن وقوقاز وسودان وأحباش من أبناء كبار الموظفين أو الرقيق الذين كانوا يعملون في خدمة ولي النعم، كما كانت تضم تلاميذ ينتمون إلى عامة المصريين الذين توفرت لهم فرص التعليم.

لقد اعتمد عمر طوسون في تأريخه على التقارير التي وضعها عنهم مسيو «جومار» ولكنه اكتشفت بعض الأخطاء في بيانات الطلاب، فصححها بالرجوع إلى دفاتر دار المحفوظات المصرية بالقلعة. ومع ذلك فقد عاني المؤلف معاناة جمة في تمحيص هذه الدفاتر لانها كانت «تقتصر على الناحية المالية فقط وما كان يصرف لهم من مرتبات فضلا عن سقم كتابتها، وتعدد الكاتبين لها بأقلام مختلفة يزيد بعضها على بعض في الرداءة وعدم تحري التدقيق في كتابتها بوجه عام، مما يجعلنا نلقى أشد العناء في استخلاصها. فقد كان القصد منها لم يكن اكثر من قيد ما أنفق على التلاميذ فهي دفاتر حساب لا أكثر ولا أقل، أو دفاتر أصول وخصوم، وذكر اسماء التلاميذ فيها إنما جاء عرضا ضرورة أن لكل منهم حسابا، فلم يكن من الأمور المهمة في نظر كاتبيها ذكر أسمائهم واضحة جلية مقرونة بما يميز بعضها عن بعض، ولا ذكر العلم الذي كان يتعلمه كل واحد منهم، وقد يكون هناك عدة أشخاص يحملون اسما واحدا.. وأدهي من ذلك ان يذكر الاسم بأكثر من صيغة.. مثل اسم الشيخ رفاعة رافع، فلم يكتب في هذه الدفاتر إلا

هكذا «الشيخ رفاعي» ..إلخ».

وقد اجتهد عمر طوسون في تحقيق أسماء الطلاب والعلوم او الصنائع التي تخصصوا فيها والمراكز التي شغلوها مستعينا بما ذكره علي باشا مبارك في الخطط التوفيقية.. وبذلك توفرت لنا حصيلة جيدة من المعلومات.

لبعثة الأولى :

كانت البعثة الأولى التي ذهبت إلى فرنسا في صيف١٨٢٦ تضم ٤٠ طالبا بخلاف الشيخ رفاعة «إمام البعثة»، وأحمد أفندي مختار المسئول الاداري عنها، ثم التحق بهم فيما بعد اثنان، وقد نجحوا جميعا في الامتحانات النهائية، فيما عدا خمسة لأسباب تعود إلى نقص كفاءتهم او مرضهم. وبذلك يكون العدد النهائي لخريجي هذه البعثة ٣٩ شخصاً. يقول عنهم كلوت بك إن منهم (١١) تخصصوا في علوم الإدارة الحربية والمدنية والسياسية و(٨) في علم الادارة البحرية والمدفعية والهندسة العسكرية و(٢) في الطب والجراحة و(٥) في الفلاحة والتاريخ الطبيعي والمعادن و(٤) في العلوم الكيميائية و(٤) في علم الهيدروليكا «قوى المياه» وفن صب المعادن وصناعة الأسلحة و(٣) في الحفر والطباعة. وواحدا في فن العمارة، وواحدا في فن الترجمة هو الطهطاوي. وإليك بيانات شخصية عن بعض هؤلاء المبعوثين والأعمال التي قاموا بها بعد عودتهم إلى مصر:

* أرتين أفندي سكياس الأرمني: تخصص في علم الادارة الملكية. كان مرتبه الشهري ثلاثمائة قرش، عين بعد عودته مديرا لمدرسة الأدارة والترجمة بالقلعة، ثم عضوا في المجلس الأعلى للحكومة فعضوا في مجلس ديوان المدارس، وفي سنة ١٨٣٩ عين سكرتيرا لولي النعم، ثم تقلد نظارة

الخارجية والتجارة خلفا لباغوص بك الأرمنى (خال نوبار باشا) وفى سنة ١٨٥٠ اعتزل الوظائف إلى أن توفى سنة ١٨٥٩ . وأرتين أفندى هو والد يعقوب أرتين باشا صاحب المؤلفات المعروفة عن الملكية الزراعية والذى صار وكيلا لنظارة المعارف حتى عهد عباس الثانى.

* محمد خسرو تيمور أفندى الكرجى (من چورچيا) : أرسل لتعلم الادارة الملكية وكان راتبه الشهرى خمسمائة قرش، مرض بأوروبا وتكلف علاجه فى النمسا ٢٢٩٠ قرشا و٣٦ فضة . وعاد من فرنسا سنة ١٨٣١ ويظهر أنه توفى على أثر رجوعه .

* دويدار مصطفى مختار أفندى: أرسل لتعلم الأدارة الحربية وكان راتبه الشهرى ٢٩١٦ قرشا وبعد رجوعه عين عضوا فى المجلس الأعلى للحكومة ومديرا لديوان الحربية، ثم مديرا لديوان المدارس فكان أول ناظر للمعارف فى مصر، وفى عهده أنشئت عدة مدارس.

* رشيد أفندى أباظة: أرسل لتعلم الأدارة الحربية وكان راتبه الشهرى خمسمائة قرش ومما تعلمه صناعة الرصاص.

* أحمد يكن مصطفى أفندى القوللى: ينتسب إلى (قولة) مسقط رأس محمد على وإلى الاسرة اليكنية . وأرسل لتعلم الأدارة الحربية وكان راتبه الشهرى خمسمائة قرش . وتعلم صناعة الرصاص، ورجع ومعه كتب كثيرة فى الفنون الحربية .

*حسن الاسكندرانى أفندى: أرسل للتعلم فى ترسانة (برست) ثم سافر إلى انجلترا للسياحة وتطبيق العلم على العمل مع زميليه محمود أفندى نامى ومحمد أفندى شنان وتكلفوا فيها مدة سنة، ١٧٤٧ قرشا و٢٠ فضة، وكان راتبه الشهرى ٤١٦٦ قرشا وبعد رجوعه حاز لقب باشا وصار ناظر البحرية

فقائدا للأسطول ولقى حتفه على ظهر السفينة (مفتاح جهاد) التى غرقت فى حرب القرم سنة ١٨٥٥.

* محمد بيومي أفندي: درس العلوم الرياضية وكان مرتبه مائة قرش، وبعد رجوعه صار كبير الأساتذة بمدرسة المهندسخانة ومن نوابغ علماء الرياضيات، ولد بمصر وأصله من دهشور بمديرية الجيزة، وصار استاذا ومرجعا لعلماء الهندسة المصريين ثم انتقل إلى قلم الترجمة بنظارة المعارف، واشترك مع رفاعة الطهطاوى فى العمل، وله جملة مؤلفات في الهندسة والرياضيات. ونقم عليه عباس الأول فنفاه مدرسا للحساب بالمدرسة الابتدائية بالخرطوم وتوفي بها، قال عنه على باشا مبارك: كان من أعظم رجال تلك الرسالة، حسن الأخلاق مهيبا جليلا ذا رأى حسن.

* محمد أفندي مظهر: بعث إلى فرنسا لتلقى الهندسة بها، ثم سافر إلى إنجلترا للسياحة وتطبيق العلم على العمل، وكان مرتبه الشهرى أربعمائة قرش، نبغ فى العلوم الهندسية والرياضية، وقد امتدحه المسيو «جومار» فى رسالته عن أعضاء البعثات وقال عنه: «إن نبوغ مظهر أفندى فى الرياضيات لمما يسترعى النظر» ولما عاد إلى مصر عين ناظرا لمدرسة المدفعية (الطوبجية) بطرة، وهو الذى بنى منار الاسكندرية الكبير القائم فى رأس التين، واشترك مع مسيو «موجيل» بك فى بناء القناطر الخيرية، وأختص بالأشراف على أنشاء قناطر فرع رشيد، ونال فى عهد اسماعيل رتبة الباشوية. ولما ظهر خلل فى بعض عيون هذه القناطر ارسل إلى فرنسا للنظر فى اصلاحها، ويطلق اسمه على الشارع المعروف بالزمالك.

* أحمد طائل أفندي: من قرية بلتان بالقليوبية أرسل إلى فرنسا لتعلم الهندسة وكان راتبه الشهري خمسين قرشا. وعند عودته عين مدرسا في مدرسة المهندسخانة للعلوم الميكانيكية والجبر، ثم مهندسا للركاب العالي، ثم نفي إلى الخرطوم في عهد عباس الأول مدرسا بالمدرسة الابتدائية بصحبة رفاعة الطهطاوي ومحمد بيومي، وعاد من منفاه في عهد سعيد مصابا بالحمى، وتوفي بعد ليلتين من وصوله، قال عنه علي مبارك: كان قصير القامة صغير الجسم، كثير الفهم، لايبالي بأكثر الأمور، وله جرأة وإقدام على الأمراء، وكان محبا للتلاميذ يرغب في تعليمهم وأخذ عنه جميعهم.

* أحمد فايد باشا: من كياد بمديرية القليوبية، تخصص في دراسة الهندسة والكيمياء والرياضيات وكان راتبه الشهري خمسين قرشا، ولما عاد إلى مصر عين معيدا لدروس بهجت أفندي بمدرسة الطوبجية ثم مدرسا بالمهندسخانة وصار من كبار أساتذتها ثم وكيلا لها، وتخرج على يده كثير من المهندسين الكبار، وله مؤلفات في الهندسة والري منها «تحرك السوائل» و«الدرة السنية في الحسابات الهندسية» كما عمل في السكك الحديدية حتى صار باشمهندس عموم السكك الحديدية المصرية وإليه يرجع الفضل في مد خطوطها في أكثر أنحاء القطر وباسمه سميت محطة (فايد) بخط السويس. ونال رتبة الباشوية قبل وفاته سنة ١٨٨٢ .

* أحمد بك دقلة: من بسيون غربية نشأ في مدارس مصر وأرسل ضمن طلبة البعثة الثانية سنة ١٨٢٨ وتخصص في العلوم الرياضية

وعاد سنة ١٨٣٥ وعين معيدا للأستاذ محمد بيرمي في مدرسة المهندسخانة ببولاق. ثم مدرسا لعلوم الجبر وهندسة الري والقناطر والجسور ثم وكيلا للمدرسة وانتقل إلى قلم الهندسة. قال عنه على مبارك باشا في الخطط التوفيقية: أكثر المهندسين الموجودين تلقوا عنه، وكان حسن الألقاء يجتهد في التعليم، ويحث على الفهم وكان من أعظم المهندسين. وله من المؤلفات كتاب (رضاب الغانيات في حساب المثلثات) مات سنة ١٨٥٦.

بعثة الصنائع:

وفي أول يناير ١٨٣٠ وصلت بعثة مصرية كبيرة إلى أوروبا مؤلفة من ٥٨ تلميذا لتلقي الفنون الآلية (الصنائع) من بينهم ٣٤ تلميذا ارسلوا إلى فرنسا، وأربعة إلى النمسا، وعشرون إلى انجلترا، ولم يعثر عمر طوسون على أسمائهم في دفاتر دار المحفوظات، ولكنه عثر على بعضهم في مصادر أخرى، ولم تحدد لهم مرتبات شهرية في الدفاتر، بل كان كل واحد منهم يأخذ في كل أسبوع مبلغا يسيرا من الفرنكات بمثابة «مصروف يد». ويزداد هذا المصروف لبعضهم إذا تفوق في صنعته. ويذكر عمر طوسون أن هؤلاء التلاميذ كانوا يتعلمون بجانب صنائعهم أمورا مهمة منها مايرتبط بالصنائع كالرياضيات والرسم، ومنها مايرتبط باللغة الفرنسية، حتى كان كثير منهم يتلقى علم البيان في اللغة الفرنسية على أساتذة متخصصين. وإليك بعض البيانات عن هؤلاء كما وردت في دفاتر دار المحفوظات:

* عبد الرحمن: ولم يذكر بقية الاسم ارسل لتعلم صنعة آلات الجراحة فى مصنع المسيو «سيرايزى» وكانت أجرة تعليمه فى سنة، ١٦١١ فرنكا و١٥ صلديا (٤٨٣٥ وربع قرش) على اعتبار أن الفرنك يساوى ثلاثة قروش.

أما التلميذ فكان يحصل على فرنكين صحيحين كل أسبوع ثم صار أربعة فرنكات (١٦ قرشا) وعند عودته إلى مصر تسلم ٢٠٠ فرنك مكافأة له على نجاحه الباهر.

* محمد حاكم: ارسل إلى فرنسا لتعلم صناعة الساعات فى مصنع الساعات بمدينة ليون، وكان يأخذ فى الأسبوع ثلاثة فرنكات (١٢ قرشا) ثم صرف له مبلغ ١٨٦٤ فرنكا ثمن كتب وآلات. وكان يتلقى أيضا علم البيان فى اللغة الفرنسية على أستاذ فرنسى وتسلم عند عودته «بقشيش» قدره «٢٠٠ فرنك».

* إبراهيم العتال: ارسل لتعلم الصياغة والجواهر. وقد انعم عليه فى أثناء تعليمه بمبلغ عشرين فرنكا لتفوقه فى تعلم صناعة الصياغة، وتسلم ٢٠٠ فرنك بقشيش قبل عودته.

*حسين محمد: أرسل لتعلم صناعة الشمع وكان يأخذ كل اسبوع فرنكا واحدا، وعند عودته إلى مصر أعطى له مبلغ خمسين قرشا مكافأة.

*مصطفى الزرابى: ارسل لتعلم صناعة المنسوجات الحريرية فى فابريقة بمدينة ليون ومنها سافر إلى لندن وكانت تكاليف تعليمه ٩٧٣ فرنكا وكان يأخذ فى الاسبوع فرنكين.

* محمد اسماعيل: ارسل إلى فرنسا لتعلم النقش والدهان بالمبانى، وتعلم فى فابريقة مسيو غارنى النقاش وتعلم علم البيان الفرنسى على يد استاذ متخصص، وكان مرتبه فرنكين ارتفعت إلى ثلاثة فى الأسبوع.

*سليمان البهناوى: من قرية بهناى بالمنوفية، ارسل لتعلم صناعة السروجية فى فابريقة مسيو هنرى، وسافر إلى لندن وعاد إلى فرنسا وأنعم عليه بمبلغ ٢٠ فرنكا ومبلغ ٥٩٩ فرنكا ثمن قطع حديد وجلد وآلات.

* محمد يوسف: أرسل إلى فرنسا لتعلم صناعة الأحذية أو الجزم والمراكيب كما فى الدفاتر. وقد مرض هناك وصرفت عليه مصروفات علاج كثيرة ثم شفى وعاد إلى صنعته ثم عاوده المرض وتوفى، وصرف على خرجته مبلغ ٣٨٠ فرنكا و١٠ صلادى (٥ر١١٤١ من القروش) وصرف على قبره ٣٠٨ فرنكات: ١٨ ثمن سرير + ١٩٠ ثمن حجر رخام + ١٠٠ أجرة كتابة اسمه بالعربى والفرنساوى على الرخام.

*عبد الرب: كان يتعلم صناعة الاجواخ بفابريقة مسيو أملدلون وكان يأخذ فى الاسبوع ثلاثة فرنكات وكانت أجرة تعليمه فى سنة، مبلغ ٣٦١٩ فرنكا.

*خليل البقلى: كان يتعلم بفابريقة (قلمار) ومعناه مصنع الرسم بالقلم أو بصمم الشيت. وكان راتبه الشهرى ٣٢ فرنكا وقد توجه له مسيو جومار وقاول عليه فى تعلم صناعة النقش بتكاليف بلغت ١٠٨٩ فرنكا فى ثمانية اشهر.

*هنرى روسى: ابن الخواجة روسى ناظر فابريقة دباغة الجلود برشيد فى عهد محمد على. وهو التلميذ الوحيد فى بعثة الصنائع من حيث جنسيته الأوروبية ومن حيث أنه كان يأخذ مرتبا شهريا طوال مدة بعثته. وكانت والدته بفرنسا وكان يزورها كثيرا كما ورد فى دفاتر المحفوظات، وجاء عنه انه كان يتعلم الرياضيات والكيمياء. وكانت أجرة تعليمه فى سنة، ٢٦١٥ فرنكا و١٥ صلديا وقد اشتريت له ساعة ذهبية بمبلغ ٣٢٤ فرنكا عقب قيامه بامتحان فاز فيه. وكان مرتبه الشهرى ١٠٠ قرش وعاد إلى مصر عام ١٨٣٦.

منحة المالك

مذبحة المماليك . . هل كانت النقطة السوداء فى تاريخ محمد على

اختلف المؤرخون حول مذبحة القلعة التى دبرها محمد على للقضاء على المماليك.. بعضهم أدان محمد على ليس فقط لأنه سلك أسلوب الغدر وأوقع بهم بطريقة تتنافى مع القيم الإنسانية، ولكن لأنه أفرغ البلاد من القوة العسكرية الوحيدة التى كانت تعتمد عليها البلاد وقبل أن يقوم فيها جيش نظامى يقوم بمهمة الدفاع والحماية.. ومن المؤرخين من يلتمس العذر لمحمد على لأن المماليك فقدوا قدراتهم العسكرية منذ هزيمتهم أمام القوات الفرنسية. وتحولوا الى عصابات للسلب والنهب.

على اية حال.. لنترك حكم التاريخ مؤقتا.. وندخل فى تفاصيل هذه المذبحة البشعة التى دبرها محمد على بحنكة ودقة.

في صبيحة يوم الجمعة ١١ مارس عام ١٨١١ أخذت القاهرة زخرفها وازينت بالأعلام والبيارق، وخرج الأهالى إلى الشوارع لتوديع الجيش المصرى الذاهب إلى الحجاز لحرب الوهابيين، والذى سيأخذ طريقه من باب العزب المطل على ميدان الرميلة بالقلعة إلى شارع الأزهر ثم

ينحرف يمينا فى شارع المعز لدين الله حتى باب الفتوح.. ومنذ الصباح الباكر كان عزيز مصر محمد على باشا يتصدر أريكة الحكم فى قصره بالقلعة ويستقبل الشيوخ والعلماء والقضاة والتجار والأعيان الذين توافدوا عليه للتهنئة والدعاء لقائد الحملة ابنه أحمد طوسون باشا، ولفت الأنظار قدوم كبار الأمراء المماليك على خيولهم المطهمة، وفى ثيابهم المزركشة للإعراب عن سعادتهم بالدعوة التى وجهها إليهم محمد على لحضور الاحتفال، وليكونوا ضمن الموكب الذى سيصاحب الحملة أثناء مرورها فى شوارع القاهرة..

أما وجه الدهشة فيرجع إلى تواجد المماليك داخل عرين الأسد بعد سلسلة المعارك الدامية التى وقعت بين الطرفين، ودارت رحاها فى الصعيد حيث حشد المماليك قواهم ورفضوا الاعتراف بمحمد على حاكما على مصر دون مشاركة من المماليك الذين كانت لهم السيادة على مقدرات البلاد طوال ستمائة سنة، وكانت دعوتهم إلى احتفال القلعة إعلانا عن المصالحة وحقن الدماء وبدء صفحة جديدة تخلد فيها البلاد إلى الهدوء والاستقرار بعد ست سنوات من الاضطرابات والفتن..

كان هذا هو الانطباع الذى رسخ فى ذهن الحضور، وزادت دهشتهم حين وجدوا محمد على يستقبل أعداء الأمس بوجه بشوش، وكلمات معسولة، ويسأل عن أحوالهم، ويضفى عليهم من عطفه ما جعلهم يقابلون التحية بأحسن منها ويدعون له بدوام العز والإقبال.. ولم يخطر على بال أحد أن هذه الابتسامات ليست إلا سرابا خادعا يخفى وراءه المصير الدامى والنهاية المفجعة للماليك(!!)..

كانت العلاقات بين محمد على والمماليك ـ منذ انفراده بالحكم ـ قد وصلت إلى طريق مسدود، وكان من الصعب على المماليك أن يقبلوا بالأمر الواقع، وهو أن محمد على صار سيدا على مصر بلا منازع، وأن عليهم الانزواء إلى الظل والعيش في سكون.. فالسكون ليس من طبيعتهم، ويعني لهم الموت الحقيقي، ولذلك أعلنوا عليه الحرب واستدرجوه إلى الصعيد حيث تتجمع قواتهم منذ أيام الحملة الفرنسية، واستعانوا عليه بالانجليز وجاءت اليهم حملة «فريزر» سنة ١٨٠٧ لتساعدهم على خلع محمد على ولكن أهل رشيد قاموا بواجب الدفاع عن مدينتهم وطردوا الانجليز شر طردة، ولم يستطع المماليك وأخذوا يدبرون المؤامرات لاغتيال محمد على ففشلوا، وأيقن الثعلب الألباني أنه لا أمل له في البقاء على عرش مصر طالما بقي المماليك ينازعونه السلطان، ويدبرون له المؤامرت.. وهو من عجينة فطرت على الاستبداد والطغيان وعدم قبول أى شريك له في الحكم، ووجد أن المواجهة المسلحة معهم سوف تستنزف قواه وتشغله عن هدفه الاكبر، وأن عليه أن يلجأ إلى سلاحه العتيد: سلاح الغدر والمكر والمكيدة.. ومع أن المماليك كانوا أساتذة في فن الغدر، إلا أنهم ـ في هذا المجال ـ كانوا بالنسبة لمحمد على مجرد تلاميذ (!!).

خطوات محكمة وسرية تامة

● أعرب محمد على عن رغبته في الصلح مع المماليك والسماح لهم بالعودة إلى القاهرة ليعيشوا في سلام ووئام، وأكل المماليك الطعم،

وقبلوا العرض وأخذوا يتوافدون على القاهرة بعد أن ألقوا السلاح، وخلعوا رداء الحرب، وارتضوا العيش الرغيد والحياة الناعمة في أحضان حريمهم وجواريهم، وأصدر محمد علي إعلانا بالأمان العام والصفح عن الأمراء المماليك، وكل من يلوذ بهم، حتى كان ذلك اليوم الدامى الذى استدرجوا فيه إلى القلعة ولم يغادروها إلا جثثا مضرجة في دمائها(!!)..

دبر محمد على خطة اغتيال المماليك في سرية تامة، وخطوات محكمة، ولم يعلم بها إلا أربعة نفر من خلصائه وأقرب المقربين إليه:

● حسن باشا: قائد الفرقة الألبانية..

● الكتخدا محمد لاظوغلي: الممثل الشخصي لمحمد علي وصاحب التمثال الشهير في الميدان المسمى باسمه بحي المنيرة..

● صالح قوش: قائد فرقة الأرناؤود التي عهد إليها بتصفية المماليك..

● إبراهيم أغا: الحارس المسئول عن باب العزب والمكلف بإغلاقه في وجه المماليك.. ولو شئت الدقة فهو (سمسم) الذى تنغلق البوابة بمجرد سماعه كلمة السر.. وكانت كلمة السر: رصاصة يطلقها صالح قوش في الهواء (!!)..

ووضعت ترتيبات المذبحة بحيث يتحرك الموكب وفي طليعته فرقة الفرسان الدلاة، ثم والي الشرطة، ثم الأغا (محافظ القاهرة) ثم المحتسب ثم فرقة الوجاقلية وهي إحدى فرق جيش الاحتلال العثماني،

ثم كوكبة من الجنود الأرناؤود يقودهم صالح قوش.. ثم جماعة الأمراء المماليك يتقدمهم سليمان بك البواب.. ومن بعدهم بقية الجنود الأرناؤود فرسانا ومشاة..

اللحظة الحاسمة

● وعندما حانت اللحظة الحاسمة، دوى النفير إيذانا ببدء الرحيل، فدقت الطبول، وصدحت الموسيقى، ونهض محمد على فهب المماليك وقوفا وبادلوه عبارات الود والتحية واستأذنوه فأذن لهم، فامتطوا خيولهم وأخذوا مكانهم فى الموكب حسب الترتيب الموضوع، واتخذ الركب طريقه منحدراً فى الطريق الوعر الضيق المنحوت فى صخور القلعة ويفضى إلى باب العزب المطل على ميدان الرميلة حتى إذا اقتربت الصفوف الأولى من المماليك من باب العزب ارتج الباب وأغلق من الخارج إغلاقا محكما، ولم يفطن المماليك إلى إغلاق الباب، وأخذت خيولهم تتزاحم بفعل الانحدار الطبيعى حتى وجدوا أنفسهم محصورين فى الخندق الضيق، وفى حركة سريعة كان الجنود الأرناؤود يتسلقون الصخور المطلة على جانبى الخندق ويشهرون بنادقهم نحو المماليك، وفجأة.. دوت طلقة فى الهواء.. وبعدها أنهمر الرصاص على المماليك من فوقهم وعن يمينهم وعن شمالهم ومن ورائهم.. وسدت منافذ النجاة أمامهم.. وصار من المحال عليهم أن يتحركوا وهم على ظهور الجياد فى هذا الزحام العصيب، وأزداد هياج الخيول مع صخب أصوات الرصاص، فأخذت تلقى بالمماليك إلى الأرض وتدوسهم بأقدامها وكأنها تقوم بدور مرسوم لها فى المذبحة.. وحاول بعض الأمراء

الزحف على ركبهم والدماء تنزف منهم حتى وصلوا إلى طوسون ممتطياً جواده. وأخذوا يستعطفونه ولكنه أصم أذنيه عن صرخاتهم. وأجهز عليهم الجند ذبحاً، واستطاع سليمان بك البواب أن يزحف حتى وصل إلى سراى الحريم وأخذ يستغيث لائذا بالنساء ولكن الجند قطعوا رأسه غير عابئين بالتقاليد التي تعطي الأمان لمن يستغيث بالنساء.. وتكدست جثث القتلى بعضها فوق بعض حتى بلغ عددها ٤٧٠ قتيلا هم كل من صعد إلى القلعة في هذا اليوم الدامي، ولم يفلت منهم سوى (أمين بك) الذى وصل إلى الموكب متأخراء فلما سمع أصوات الرصاص هرع إلى سور القلعة، ولكز جواده بضربة عنيفة فهوى به من هذا الارتفاع الشاهق، وقبل أن يلمس الحصان الأرض، قفز أمين من فوق ظهر الحصان فنجا من الموت وظل يركض فى الصحراء - عبر سيناء - حتى بلغ أرض لبنان، وعاش لاجئا فى كنف أميرها بشير الشهابي، ويقال أنه عاد إلى مصر بصحبة الأمير الشهابي وعفا عنه محمد على وأعاد إليه زوجته وأولاده.. وقد صاغ قصته چورچى زيدان فى رواية شيقة اسمها (المملوك الشارد) وقدمتها الإذاعة فى مسلسل عام ١٩٥٤ لايزال عالقاً بذاكرة الجمهور.

وفى الوقت الذى جرت فيه مذبحة القلعة، كان الجنود الأرناؤود ينقضون على قصور المماليك فى القاهرة، يذبحون الأمراء ويستبيحون نساءهم وينهبون أموالهم، وكان الألبان كالوحوش الكاسرة التي تتلمظ شوقاً إلى السلب والنهب والاغتصاب.. ورغم أن أهل القاهرة سارعوا بإغلاق محلاتهم ولجأوا إلى بيوتهم هربا من فظائع الأرناؤرد، إلا أن الوحوش لم تفرق بين بيوت المماليك وبيوت المصريين، فأستباحوا كل

ما تصل إليه أيديهم، واستمرت الفوضى ثلاثة أيام بلياليها ولم تتوقف إلا بعد أن نزل محمد علي إلى شوارع المدينة وتمكن من كبح جماح جنوده وأعاد الانضباط إلى المدينة التعيسة، وبذلك انطوت صفحة المماليك من تاريخ مصر (!!)..

حكم التاريخ على المذبحة

ما هو حكم التاريخ على مذبحة القلعة؟ وهل تجاوز محمد علي حدود العقل والحكمة والإنسانية حين قضى على المماليك بهذه الطريقة البشعة، إن المؤرخ عبدالرحمن الرافعي بعد أن شرح تفاصيل المذبحة بكل دقة قال: نحن لا نريد أن ندافع عن المماليك، وقد سجلنا المساوئ التي ارتكبوها، والمضار التي جلبوها على البلاد، ولكن.. مهما بلغت سيئاتهم فإن القضاء عليهم بوسيلة الغدر أمر تاباه الإنسانية، ولو أن محمد علي باشا استمر في محاربتهم وجهاً لوجه حتى تخلص منهم في ميادين القتال، لكان ذلك خيرا له ولسمعته، ولا يسوغ فعلته أن هذه الوسيلة كانت مألوفة في ذلك العصر، وأن هذه المؤامرة هي صورة مكبرة لمذبحة أخرى دبرها الباب العالي للفتك بالمماليك سنة ١٨٠٤ بنفس الطريقة، فإن تكرار السيئات لا يبررها.. والجملة - يقول الرافعي - فمذبحة القلعة كانت نقطة سيئة في تاريخ محمد علي..

وقد حاول بعض المؤرخين تبريرها بقولهم أنه اضطر إليها دفاعاً عن نفسه، وأن المماليك كانوا يكيدون له حين ذهب إلى السويس لتفقد السفن المعدة لنقل الحملة الوهابية، ولكنه غادر السويس ليلاً وعاد إلى القاهرة قبل إنفاذ المؤامرة، وأنه كان لا يأمن المماليك بعد سفر الحملة وخلو البلاد من القوة العسكرية، فكان عليه أن يقطع دابرهم قبل أن

يتكالبوا عليه، ولكن الرافعي يرفض هذه التبريرات التي تفتقر إلى السند، ويرى أن مذبحة القلعة لم تكن بسبب أحداث آنية، ولكنها ثمرة تفكير عميق وتدبير واسع المدى سابق على مشروع الحملة الوهابية ..

ولم تلق المذبحة تأييداً حتى من أصدقاء محمد علي المدافعين عنه وعن حكمة، ومنهم صديقة الفرنسي مسيو «مانجان» الذي يقول: إنني أبعد ما أكون عن تبرير الفتك بالمماليك، على أنني أعده من بعض النواحي خيراً لمصر، فإن بقاءهم يفضي إلى حرب هي أضر على البلاد من الإيقاع بهم كما أن إرادة الباب العالي كانت تؤدي إلى استمرار تلك الحرب، فالضربة الجريئة التي ضربها محمد علي تنفيذاً لأوامر الباب العالي السرية، قد قضت على نظام المماليك وكانت تركيا تعمل على التخلص منه تدريجياً، ومن هذه الناحية يمكن تبرير عمل الباشا، ومن جهة أخرى فإن الدفاع عن سلامته كان يقضي أن يلجأ إلى طرق حازمة، فقد كان محاطاً بجنود فطروا على الشغب والفوضى، وكان مضطراً إلى إنفاذ جزء كبير من قواته إلى جزيرة العرب، فكان عليه أن يفكر في إضعاف خصومه الذين يزدادون قوة ونفوذاً، فقد بلغه كل ما قيل أنهم كانوا يأتمرون به ليختطفوه عند عودته من السويس، ولما علم أن السياح الإفرنج يلومونه على اغتيال المماليك ويعدونه عملاً منافياً للإنسانية، صرح بأنه يبغي أن يرسم صورة يضع فيها مذبحة المماليك بجانب المذبحة التي ارتكبها نابليون ضد الدوق «دانجان» حيث اتهمه ظلماً بالتآمر عليه وأمر بقتله في محاكمة صورية ..

ويقول مسيو «جومار» الذى اختاره محمد علي مشرفا على البعثات المصرية في باريس: لو أمكن محو تلك الصفحة الدموية من تاريخ مصر، لما صار محمد علي هدفا لأحكام التاريخ القاسية..

المظاليم المماليك

ورداً على قدرة المماليك على إقصاء محمد علي يقول الرافعى إن البقية الباقية من المماليك كان قد ضعف شأنهم، وتقلمت أظافرهم حتى لم يبق من وجودهم خطر على نفوذ محمد علي وسلطانه، فماذا كان يستطيع إبراهيم بك وعثمان بك حسن وغيرهما أن يفعلوه وليس معهم سوى ذلك العدد الضئيل من المماليك الذين كانوا يحيطون بهم؟ وماذا كان يستطيع أن يفعله شاهين بك وسليمان بك البواب ومرزوق بك وغيرهم وقد تركوا إخوانهم في الصعيد وجاءوا القاهرة مستأمنين خاضعين وغادروا حياة الكر والفر ليتعموا بالرفاهية ورغد العيش؟ وما نظن مطلقا أن ثمة خطرا كان يتهدد محمد علي من هذه الناحية، وما نظنه كان في حاجة إلى التخلص من تلك البقية الباقية من المماليك بتلك الوسيلة المنطوية على الغيلة والغدر..

وحول آثار المذبحة على الروح المعنوية للشعب المصرى. يقول الرافعي: إن الفتك بالمماليك على هذه الصورة الرهيبة، كان له أثر عميق في حالة الشعب النفسية، لأن مذبحة القلعة أدخلت الرعب في قلوب الناس، واستولت الرهبة على القلوب، فلم يعد ممكناً - إلى زمن طويل - أن تعود الشجاعة والطمأنينة إلى نفوس الناس، والشجاعة خلق عظيم تحرص عليه الأمم الطامحة إلى العلا، وهي قوام الأخلاق

والفضائل القومية، فإذا فقد الشعب الشجاعة وحلت الرهبة مكانها، كان ذلك نذيرا بانحلال الحياة القومية وفسادها، فالرهبة التي استولت على النفوس بعد مذبحة القلعة كان لها أثرها في إضعاف قوة الشعب الخلقية والمعنوية، وتلك خسارة كبرى، فإنما الأمم أخلاق وفضائل، أضف إلى ذلك أن هذه الحادثة وقعت في الوقت الذي كانت فيه النفوس قد تطلعت إلى مراقبة ولاة الأمور ودبت فيها روح الحياة الديمقراطية، وتعددت مظاهر هذه الروح بما حدث من اجتماعات الشعب واحتجاجاته على المظالم، فنحسب أن مذبحة القلعة قد قضت على هذه الروح وأحلت مكانها روح الرهبة من الحكام، الأمر الذي جعل محمد على أكثر أطمئناناً على انفراده بالحكم، فلم يظهر من الشعب طوال السبع وثلاثين سنة التي قضاها في الحكم بعد تلك الحادثة روح معارضة أو محاسبة أو انتقاد..

ويختتم الرافعي تحليلة لآثار مذبحة القلعة بهذه العبارة القوية: «مع الاعتراف بما أسداه محمد على من الخير للبلاد، فإنه لم يعوض الشعب ما فقده من تلك الناحية الخلقية: ناحية الشجاعة الأدبية، والروح الديمقراطية، تلك الناحية التي هي من أركان عظمة الأمم ومن دعائم حياتها القومية»..

دور أتباع سان سيمون
فى مشروع محمد على

حين شرع محمد على فى تأسيس مصر الحديثة حرص على أن تكون بمنأى عن أطماع الدول الأوربية حتى يحفظ عليها استقلالها الوطنى ولذا كف يده عن الاقتراض من البنوك الاجنبية رغم حاجته إلى المال لتنفيذ مشروعه الكبير كما أعرض عن مشروع حفر قناة السويس حتى لا تتحول إلى «بوسفور» آخر يضع مصر تحت رحمة الدول البحرية كما حدث للدولة العثمانية وادرك بفطنته أن مصر هدف لاطماع الرأسمالية الأوربية المتحفزة للسيطرة والاستعمار وكانت أصداء الحملة الفرنسية لاتزال تتردد فى انحاء مصر وبعثت انجلترا حملة «فريزر» لاحتلال مصر بعد عامين فقط من جلوسه على عرش مصر ولكن هذه الاحتياطات الوقائية لم تمنع محمد على من ان يمد ذراعه إلى أوربا الثقافية يستمد منها الخبرة فأوفد البعوث إلى العواصم الأوربية واستقدام الخبراء والفنيين من كل صنف ليساعدوه على بناء مشروعه الحضارى وصار هؤلاء يتسابقون على الرحيل إلى مصر بعد أن تحولت إلى ورشة عمل هائلة .

وفى ذلك الوقت كانت فرنسا تموج فى حالة من الفوضى العقلية والخلقية والشعور بخيبة الأمل أمام فشل الثورة الفرنسية فى تحقيق شعارات العدالة والحرية التى نادى بها فلاسفة الثورة ولكنها تحولت على أيدى الطغمة الإرهابية إلى مصدر للتعاسة والشقاء وفى خضم هذا الحشد الفكرى برزت فلسفة «سان سيمون» الذى بدأ حياته باحثاً فى علوم الاجتماع وانتهى إلى كونه احد فلاسفة هذه العلوم حتى أعتبره بعض الباحثين المنشئ الحقيقى لعلم الاجتماع الحديث .. ويكفى لتقويم مكانته أن العالم المرموق «أوجست كانت» كان سكرتيرا له ومشاركاً له فى ابحاثه العلمية. ونشأ «سان سيمون» منذ طفولته متمردا على تعاليم الكنيسة الكاثوليكية ثائرا على الظلم الاجتماعى الذى تفشى بعد سقوط الثورة فى احابيل الدكتاتورية فعكف على دراسة العلوم البحتة كالرياضة والهندسة والفلك والطبيعة والكيمياء وتوقف مبهورا أمام انجازات العلامة الانجليزى «نيوتن» فاتخذ منه نبيا لدين جديد هو دين العلم أو دين نيوتن ودعا إلى نبذ العقائد والأخلاق الكاثوليكية لتحل محلها عبادة العلم ودعا إلى قيام مجتمع جديد تكون السلطة العليا فيه للعلماء والفنانين ورجال الصناعة، والصناعة عنده لا تعنى الميكنة واستخدام الآلة وإنما تعنى العمل المنتج فى كافة صورة فالعمل اليدوى صناعة والعمل الادارى والتنفيذى صناعة والعمل التجارى والزراعى صناعة سواء بسواء، ومالك الأراضى أو العقار وصاحب رأس المال يعد صانعاً إذا قام بإدارة أعماله ودعا إلى استخدام الموسيقى كوسيلة من وسائل التثقيف الخلقى والصناعى وطلب من الشاعر «روجيه دى ليل» مؤلف نشيد «المارسيليز» ان يؤلف «لحن الصناع» ليتغنى به العمال

أثناء العمل ورأى انه من الضرورى اعداد جيل من العلماء الذين سوف يتولون مقاليد الأمور في المجتمع واخذ يشجع الشباب المثقف لارتياد بيته فتكونت منهم الجماعة الأولى لرواد الحركة الفكرية فى القرن التاسع عشر. وبعضهم حمل لواء «السان سيموتية» إلى مصر.. وظل «سان سيمون» مبتعدا عن الانغماس فى السياسة العامة وكانت ثقته كبيرة في مقدرة وكفاءة «نابليون بونابرت» وكان يتوقع منه انهاء الفوضى التى خلفتها الثورة ولكنه انقلب على بونابرت بعد أن كشف عن وجهه الدكتاتورى وانحرف عن مبادئ الحرية وصار من ألد خصومة وتعرض «سان سيمون» إلى مطاردة اجهزة الأمن حتى فقد مصادر الرزق وهبط إلى حافة الجوع وغلب عليه اليأس فأطلق على رأسه رصاصة قاصداً الانتحار ولكن الرصاصة انحرفت وذهبت بعينه اليسرى وعاد «سان سيمون» إلى ابحاثه ودراساته الفلسفية طوال السنوات الخمس الأخيرة من حياته وانتهى إلى البحث عن وسيلة للنهوض بالإنسانية إلى اسمى درجات الكمال عن طريق وحدة المعرفة الإنسانية وقيام حكومة موحدة لإدارة شئون الإنسانية تسند إلى هيئة من العلماء والفنانين المنتجين الذين يوجرون عن طريق الاكتتاب العالمى ويطلق عليها اسم «مجلس نيوتن» وفي زعمه «أن الله قد أوجد نيوتن بجانبه واسند إليه ادارة شئون البرية» .. واستغرق فى تأملاته وشطحاته حتى خيل اليه أن الله يحدثه ويوصى اليه بفكرة الديانة الجديدة فيقول له: أن مجلس نيوتن سوف يمثلنى على الأرض فيقسم الإنسانية إلى أربعة اقسام يطلق عليها إنجليزية وفرنسية وإيطالية وألمانية وسيكون لكل قسم من هذه الاقسام الأربعة مجلس يتكون على

قرار المجلس الرئيسي وسوف يرتبط كل فرد في العالم مهما كان موطنه بأحد هذه الاقسام وبالمجلس الرئيسي وبمجلس القسم الذى يتبعه ويرى بعض الباحثين أن هذه الفكرة هي البذرة الأولى لانشاء منظمة دولية تمثلت بعد ذلك في عصبة الامم بعد الحرب العالمية الأولى وهيئة الامم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية.

ومن فكرة الحكومة العالمية انطلق «سان سيمون» إلى المجتمع العالمي المثالي الذي يقوم على التعاون والأخاء والاستقرار بدلا من السيطرة والتسلط وان ترتبط قارات العالم عن طريق القنوات المائية ومنها قناة السويس وإذا كان «سان سيمون» لم يشهد تحقيق هذا الحلم إلا أن أتباعه جعلوا من مشروع قناة السويس الهدف الاسمى لنشاطهم وشدوا الرحال إلى مصر لتنفيذ الفكرة التى اعتنقوها عن ايمان يثير الدهشة وكان الأب «بارتلمي بروسبر انفانتان» اكبر هؤلاء المريدين وهو الذي قاد الحركة الفكرية «السان سيمونيه» بعد وفاة مؤسسها عام ١٨٢٥ وتعرض لمحن قاسية نتيجة اخلاصه وتحمسه في تنفيذ مبادئ استاذه أو رسول الإنسانية - كما كان يسميه - وسيطرت على عقله فكرة الذهاب إلى مصر باعتبارها ارض المستقبل مثلما كانت مهد الحضارة في الزمان الغابر. وخلال الفترة التى قضاها «انفانتان» في سجن «سان بلاجي» في باريس تولدت في ذهنه فكرة الرحيل إلى مصر وكان يستيقظ من نومه هاتفاً: الشرق.. تلك الكلمة الساحرة المليئة بالضياء والغموض.. الشرق الغامض غموض الصحراء .. الشرق معناه مصر.. مصر الساحرة ارض فرعون وموسى.. ارض النيل.. وما ادراك ما هي مصر!

وفى اليوم الذى غادر فيه «انفانتان» السجن كتب مخاطباً مصر: غادرت سجنى فى الغرب وسأضع نفسي فى خدمتك والتف حوله خلق كثير من الذين امنوا بافكار «سان سيمون» الذين يتميزون بارتداء السراويل البيضاء والقمصان الحمر ويطوفون الشوارع لدعوة زملائهم للسفر إلى مصر ليضعوا فنهم وخبرتهم تحت أمرة حاكمها محمد على مدفوعين بحافز انسانى هو وصل البحر المتوسط بالبحر الاحمر ويجعلون من هذا الاتصال وسيلة للتقارب الثقافى والاخلاقي والاقتصادى بين الشعوب وتحويل مصر من بلد زراعى إلى بلد يعتمد على الصناعة ومنتجاتها لتحقيق فكرتهم عن التصنيع واستغلال الانسان للطبيعة بدلا من استغلاله لأخيه الانسان كما كانوا يحملون فى عقولهم افكارا اجتماعية تسعى إلى تغيير نظرة الشرق المحافظ إلى المرأة باتاحة الفرصة أمام الفتاة للتعليم والتثقيف واقامة دعائم التربية الاجتماعية التى تعمل على توافر العدالة والمساواة إلى ابعد حد.

معاونة محمد على

وصلت الدفعة الأولى من اتباع سان سيمون إلى الأسكندرية فى شهر سبتمبر ١٨٣٣ وعلى رأسها الأب «انفانتان» على ظهر سفينة ترفع على ساريتها علم مدرسة «سان سيمون» وتضم عددا من الخبراء والمتخصصين في كافة العلوم ولدى وصول السفينة إلى ميناء الاسكندرية أعلن «انفانتان» نعم اننى جئت إلى مصر لاقوم بتوصيل البحرين بعضهما ببعض وتدعيم اتجاه عزيز مصر - محمد على - الدكتاتورى فى إلغاء الملكية الوراثية فى الأرض الزراعية.. ونأمل أن

يتم هذه الاتجاه عن طريق الاستغلال المثمر لموارد البلاد عن طريق كشف المناجم وانشاء مدرسة للهندسة واقامة زراعات جديدة وتحسين وسائل الرى والصرف في مصر وعلى الفور اسند «انفانتان» إلى المهندس «فورنل» باعداد مشروع حفر قناة تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر. ثم رحل إلى القاهرة حيث حل ضيفا على صديقه القديم الكولونيل «سيف» الذى صار سليمان باشا الفرنساوى وبدأ فى البحث عن وسيلة لمقابلة محمد على باشا عن طريق «فردنان ديلسبس(نائب قنصل فرنسا العام فى مصر. وتمت المقابلة وفي أثناء عرض مشروع القناة لم يحز القبول من محمد على الذى كان مشغولا فى تلك الأيام بفكرة اقامة القناطر الخيرية على النيل.. ولأن مشروع القناة يتطلب الحصول على قروض من البنوك الأجنبية وهو المبدأ الذى كان يأباه محمد على بشدة.. ولكن تحت الحاح «انفانتان» و «فورنل»» طلب محمد على عرض المشروع على المجلس الأعلى - وهو بمثابة الوزارة - ولكن المجلس رفض المشروع وفضل المضى فى اقامة القناطر الخيرية وظهر كان أحلام اتباع «سان سيمون» قد تبددت ولكنهم لم ييأسوا واستمروا فى البقاء فى مصر لتنفيذ أفكارهم الاصلاحية فى مجال الزراعة والصناعة والحرف والمجال الاجتماعي.

وهنا تبدأ حلقة مجهولة فى تاريخ المشروع الحضارى الذى تبناه محمد على وأعنى به الدور الذى قام به اتباع «سان سيمون» خلال اقامتهم فى مصر ووجدوا فيها تربة صالحة لبث أفكارهم الإصلاحية ولم تحظ هذه الصفحة بعناية المؤرخين الذين أرخوا لمحمد على

والمؤثرات الأوربية فى حركة النهضة التى قادها ولم أجد فيما كتبه «الرافعي» عن عصر محمد على أية إشارة إلى أتباع «سان سيمون» رغم أنه اشار إلى أسماء بعضهم عرضاً عند حديثه عن المدارس الحربية والمشروعات الهندسية التى ساهموا فى إقامتها دون أن يذكر انتماءاتهم الفكرية الى أن عثرت على كتاب عالم الاجتماع المصرى الدكتور محمد طلعت عيسى الذى يحمل عنوان «أتباع سان سيمون» وفلسفتهم الاجتماعية وتطبيقها فى مصر» وهو فى الاصل رسالة الدكتوراه التى تقدم بها الى جامعة القاهرة عام ١٩٥٧ واستخلص فيها السمات الجوهرية لفلسفة سان سيمون الاجتماعية وأسباب الفشل فى تطبيق مذهبه فى فرنسا والدوافع التى جعلت اتباعه ينطلقون نحو مصر لتنفيذ احلامهم المثالية وفى مقدمتها حفر قناة السويس.

ولقد تضمنت رسالة الدكتور طلعت عيسى معلومات فى غاية الاهمية استقاها من الوثائق السرية التى ظلت مطوية فى ارشيف وزارة الحربية الفرنسية زهاء قرن وربع القرن وهى وثائق تلقى الضوء على حلقة مفقودة في تاريخ المدرسة السان سيمونية والدور الذى قاموا به لتطبيق فلسفتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية كما انه يكشف النقاب عن أصل المشروع الذى تقدم به «ديلسبس» إلى محمد على أولاً ثم إلى سعيد باشا ثانياً لحفر قناة السويس وعلاقة هذا المشروع بالتقرير الذى أعده أتباع سان سيمون أثناء إقامتهم فى مصر وبالمقارنة بين المعلومات التى ذكرها الرافعي والمعلومات التى توصل اليها طلعت عيسى يتبين أن ديلسبس حصل على نص المشروع الأول ولكنه نسبه

إلي نفسه وتتكر لأصحابه الاصليين فى عملية من عمليات النصب التى اشتهر بها «ديلسبس».

مراحل مشروع شق القناة

فى سرده للمراحل التي مرت بها فكرة شق القناة يقول الرافعي أن بونابرت فكر في وصل البحرين وعهد بدراسة المشروع إلي مسيو «لوبير» كبير المهندسين فقضي عامين فى دراسة المشروع وفحصه وعاونه بعض مهندسي الحملة الفرنسية وقدم تقريره إلي بونابرت بعد مغادرته مصر في ٣٠٠ صفحة واعتقد خطأً أن البحر الأحمر يعلو عن البحر الأبيض بنحو تسعة أمتار وبعد مرور نحو ثلاثين عاماً علي هذا التقرير يذكر الرافعي أن ديلسيبس جاء إلي مصر لأول مرة عام ١٨٣١ فى منصب نائب القنصل الفرنسي ووجد العطف من ناحية محمد علي نظرا لما كان بينه وبين والد ديلسيبس من مودة قديمة حين كان قنصلا في مصر عام ١٨٠٣ وفجأة يقفز «الرافعي» علي الأحداث فيقول أن تقرير «لوبير» وقع في يد ديلسيبس فى الاسكندرية فاكب علي دراسته دراسة عميقة ولم يلبث أن اتجهت نفسه إلي تحقيق مشروع وصل البحرين بقناة بحرية ثم انتقل بحكم منصبه إلي بلاد أخري ولكنه لم ينس المشروع وفي سنة ١٨٤٦ تألفت لجنة فنية من بعض المهندسين من مختلف الأمم لدراسة المشروع وجاء أعضاؤها إلي مصر في أواخر عصر محمد علي واستمروا إلي عهد عباس الأول وعاونتهم الحكومة في اجراء تلك الابحاث وعهدت بتخطيط المواقع إلي بعض كبار المهندسين مثل مسيو «لينان» باشا (وهو فرنسي) فضلا عن ثلاثة من

المصريين وانتهت اللجنة إلى أن فرق المستوى بين البحرين ليس خطيراً واقترحت شق ترعة بين البحرين تجتاز الدلتا ولكن محمد على كان منذ البداية معرضا عن مشروع القناة فلم يستجيب لدعوة المهندسين والماليين الأوربيين فكان يردهم بلطف ويعدهم ويمنيهم ولكنه كان يضمر رفض المشروع حتى الباحث فى رواية الرافعى، يكشف العديد من الثغرات:

أولاً: كيف وقع تقرير «لوبير» الذى سلمه إلى بونابرت فى باريس فى يد ديلسبس فى الاسكندرية بعد ثلاثين عاما من رحيل الحملة الفرنسية ؟

ثانياً: من هم المهندسون الدوليون الذين تشكلت منهم لجنة فنية عام ١٨٤٦ ـ أى فى عهد محمد على ـ ومن الذى كلفهم بهذه الدراسة وما هو دور ديلسيبس فى هذه اللجنة ؟

ثالثا: ما هى الصفقة التى ساهم بها «لينان» باشا فى إعدادت المشروع وهل كان ديلسبس على صلة بهذه اللجنة رغم ابتعاده عن مصر؟

كل هذه الثغرات تشكل علامات استفهام كبيرة حول مشروع حفر قناة السويس والدور الذى قام به أتباع سان سيمون فى اعداد المشروع قبل أن «يلهفه» منهم ديلسبيس ويتقدم به إلى صديقه الوالى سعيد باشا والدراسة التى قام بها الدكتور طلعت عيسى تكشف هذه الحلقة المفقودة عن رسالة أتباع سان سيمون فى مصر، لقد رفض محمد على المشروع الذى عرضوه عليه فكانت صدمة شديدة الوقع عليهم وانهارت آمال

فورنل فى تحقيق فكرة الانسانيـة العالمية التى كان ينشدها من وراء رحلته إلى مصر فصمم على الرحيل إلى بلاده وظل انفانتان في مصر يصارع من اجل مشروعه وكتب إلى زميليه «هوار» و«بريلو» بحثهما على الإسراع بالحضور إلى مصر وأن لا يأخذا من عودة فورنل دليلا على فشل مهمتهم وطلب منهما أن يصحبا معهما نفرا من المهندسين والعمال المهرة والإخصائيين فى الأعمال المائية وكتب إلى زملائه «هولستين» و «أوليفيه» و «أوروبان» الذين استقروا فى مدينة السويس ينبئهم بقرار رحيل «فورنل» ويطمئنهم على وحدة صفوفهم وبذل «انفانتان» الكثير من الجهد والصبر فى سبيل تحقيق وحدة الصف وتشجيع الأتباع على مواصلة العمل من أجل إقامة مشروع القناطر الخيرية وأخذ يضفى على المشروع كل مظاهر الجمال والتضحية وعمل جاهداً على إقناع الأتباع بأنه السبيل الوحيد إلى تحقيق فلسفتهم الاجتماعية بعد أن تبخر مشروع حفر القناة ويقول أنه لأية أمة يمكنها أن تنشئ اليوم عملاً سلمياً بمثل هذه العظمة ولنعرف أن قيام هذه القناطر هو تثبيت لدعائم العلم ونصر أكيد للاتجاه الصناعى وإذا كان هذا العمل يتصف بطابع الانانية القومية إلا أنه يجب أن نغتبط لنجاحنا فيه فبعد فيضان النيل سوف يكون تحت أمرتى جيش قوامه اربعون الف رجل ويلاحظ الدكتور طلعت عيسى أن «انفانتان» كان يبالغ كثيرا فى تقديراته فهو لم يكن المدير الفعلى لمشروع القناطر ولكن «لينان» باشا الذى كان ضابطاً سابقاً فى البحرية الفرنسية هو الذى يتولى تنفيذ المشروع. والجدير بالذكر أن «لينان» هذا يتصدر قائمة اتباع سان سيمون الذين جاءوا إلى مصر وعددهم خمسة وخمسون رجلاً.

وفى أثناء ذلك عاد «بارو» إلى مصر ولحق برفاقه فى العمل فى مشروع القناطر واتجه كل فرد من الاتباع إلى العمل الذى يناسب استعداده فانهمك «آلريك» فى نحت تمثال لمحمد على وآخر لابنه إبراهيم الذى اختار «آلريك» فيما بعد ليكون مدرساً للرسم فى مدرسة الجيزة والتحق «أوريان» «وجرانال» بمدرسة الفنون الجميلة التى انشئت فى مصر لأول مرة وصار «فيرينو» قائداً فى حرس محمد على باشا و «لامبير» مديرا لمدرسة المدفعية بطرة و «لينان» كبيراً لمهندسى مصلحة الطرق والكبارى أما «أوريان» فقد اعتنق الاسلام وتسمى باسم إسماعيل وعمل مدرساً للهندسة فى مدرسة بولاق العسكرية وتولى «برون» إدارة مدرسة الطب كما لحق بالأتباع فريق من النساء ومنهن «سوزان فولكان» التى سجلت ذكرياتها فى مصر تحت عنوان (يوميات سيدة سان سيمونية فى مصر) ويعتبر كتابها مرجعا حقيقيا لنشاط اتباع سان سيمون.

بهذا بعثت الحياة من جديد فى الجماعة بعد التفكك والإخفاق واهتموا بمشروعات حضارية منها انشاء مدرسة للمهندسين بالقناطر ومدرسة للبيادة فى دمياط ومدرسة للفرسان بالجيزة رغم معارضة محمد على فى أول الأمر وإقامة مزرعة نموذجية فى شبرا ومدرسة البنات بالجيزة ولكن مع تعثر مشروع القناطر لأسباب فنية دب اليأس من جديد فى أفراد المدرسة السان سيمونيه وزاد فى تعقيد الأمور انتشار وباء الطاعون فى الاسكندرية وتصاعدت متاعب رئيس الفريق «انفانتان» بسبب احتجاج اسرته على تركه لهم فكتب يقول لصديق:

انهم لم يفهموا على الاطلاق لقد أعمتهم آلامهم الذاتية عن الام الانسانية عامة. انهم لم يفهموا أن الله قد أرسلني لانقاذ البشرية كما فعل من قبل عيسى ومحمد وسائر الانبياء وفي وسط هذه الدوامة نزل نبأ جديد كان له وقع الصاعقة على انفانتان ورفاقه هو تأجيل تنفيذ مشروع القناطر الخيرية فكان الصدمة الثانية بعد رفض مشروع قناة السويس وكتب لامبير. لقد ماتت الأسرة وتساقط الوحل والتحقير فوق رأس الاب «انفانتان» وتخلى عنه الكثير من الاتباع. وعاد معظم الاتباع إلى فرنسا بينما ظل نفر منهم يواصلون رسالة المدرسة في مصر فضلوا الحرمان المادي والمعنوي على العودة إلى وطنهم خافضي الرؤوس وصمموا على حمل الرسالة التي جاءوا من اجلها مهما كانت التضحيات.

مشروع عالمي للقناة

وفي يوم ٢٤ فبراير ١٨٤٨ عاد «انفانتان» إلى باريس وقد تملكه شعور عميق بالألم لعدم تمكن المدرسة السان سيمونية من تحقيق اهدافها السياسية والدينية ومع ذلك ظلت فكرة الانسانية العالمية تملك عليه شغاف قلبه ولم يفقد ايمانه بضرورة شق قناة السويس وتلقى من فشله الأول درسا في ضرورة تعديل وسائله لتحقيق هدفه وتبين له خطأ أن يعمل الاتباع منفردين ولابد لهم من الاستعانة بقوى عالمية ومموليين ودبلوماسيين وفي ٢٧ نوفمبر ١٨٤٦ تكونت جمعية مهمتها دراسة مشروع قناة السويس وضمت الجمعية خبراء من الالمان والانجليز والنمساويين وكان يمثل فرنسا في هذه الجمعية «انفانتان»

وجعل من بيته مقرا للجمعية على أن تنعقد في يوم الاثنين الأول من كل شهر.

وفي الاجتماع الأول للجمعية خطب انفانتان فقال: أننا نشعر بأهمية إعدادنا لهذا المشروع الذي يعتبر أكبر عمل صناعي قامت به الإنسانية ومن واجبنا أن ننفذه بعيدا عن أي صراع قومي بالمعاونة القلبية لثلاثة شعوب كبيرة كانت السياسة تفرق دائماً بين أهدافها. يجب أن نسجل أمام العالم حبنا للسلام ورغبتنا في تحقيق همزة الوصل بين طرفي العالم القديم: الشرق والغرب وكتب «انفانتان» إلى زميله «تالابو» في مصر لكي يرسل إليه خطة عملية للمشروع يمكن على أساسها تحويل الجمعية الخاصة إلى مشروع سياسي يوضع موضع التنفيذ. ودخل المشروع مرحلته الحاسمة عندما التقى «انفانتان» بدبلوماسي فرنسي شاب تعرف عليه في مصر هو: فرديناند ديلسبس، الذي بذل من معونته الرسمية والشخصية ما يسر لاتباع سان سيمون مهمتهم في مصر وخاصة الاتصال بمحمد علي.

يقول الدكتور محمد طلعت عيسى وجد انفانتان في ديلسبس الوسيلة العملية لتحقيق امنيته لما بينه وبين سعيد باشا من صداقة وطيدة فقام انفانتان بتسليم ديلسبس في صيف ١٨٤٥ كافة المستندات الضرورية اللازمة لاقناعه بأهمية المشروع وفي إحدى مذكرات انفانتان المحفوظة بمخطوطات مكتبة الترسانة بباريس نجد هذه العبارة بخط الأب «انفانتان»:

«لقد تسلم السيد ديلسبس من السادة «أرليه وإنفانتان كافة المعلومات والمستندات التي يملكانها عن هذه المسألة فقد جاء إلى ليون ليتفق معهم قبل رحيله وأعطى خطابا للتعارف بالسيد «تالابو» الذى قام بزيارته ايضا فى مارسيليا قبل ابحاره».

وفى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٤٥ كتب «ديلسبس» من مصر إلى «تالابو» قائلا: كل ما يمكن عمله هنا يسير في طريقه المطلوب مهمتكم هى أن تهيئوا الرأى العام فى انجلترا وفى نفس الوقت كتب إلى «ارلية» يبدو لى انك سوف تصبح الرئيس الطبيعى للمجلس التنظيمى المنتظر لشركتنا.

وتمر تسع سنوات يموت خلالها محمد علي ووريثه عباس الأول ويتصدر أريكة مصر سعيد باشا وينجح ديلسيبس بأساليبه الشيطانية فى أن ينتزع من والى مصر فى ٥ نوفمبر ١٨٥٤ فرمانا يخوله شق قناة «السويس» فكيف حدث هذا التحول المفاجئ وكيف صار المشروع لقمة سائغة في فم «ديلسيبس» الذى تنصل نهائيا من رفاق الأمس الذين أعدوا المشروع؟

فى ذلك يقول الدكتور محمد طلعت عيسى وإن كان التاريخ يطوى ركنا هاما من اركان هذه المرحلة معتمدا على تأكيد أن «ديلسيبس» بعدم أتصاله بأتباع سان سيمون وبأن المشروع إنما جاء من وحى المصادفة عند زيارته مع سعيد باشا لمنطقة صحراء السويس وقبول سعيد فوراً للمشروع فإن المستندات والرسائل المتبادلة بين «ديلسيس» وأتباع سان سيمون ومذكرات «انفانتان» الشخصية تؤكد وجود هذا الارتباط نتبين من مذكرات الأب انفانتان ان (جمعية دراسة مشروع

السويس) رحبت ترحيبا كبيراً بنجاح دلسيبس وعقدت الجمعية اجتماعاً عاجلاً لاعداد مشروع تحويلها إلى (شركة عالمية) ووقع الاختيار على «ديلسيبس» ليكون مديرا عاما للشركة وكتب اليه لأخذ موافقته ولكن حدث التحول الفجائي في مسلك الدبلوماسي الشاب وتنكر لأتباع سان سيمون وبلغ به التحدى انه رفض اشراك اى أحد من اتباع سان سيمون في العقد التأسيسي للمشروع وحاول الاتباع عبثا أن يلجأوا إلى الباب العالي في القسطنطينية لأن «ديلسيبس» كان يعتمد على سند أقوى منهم وهو بلاط الامبراطور نابليون الثالث.

عزاء وسلوان

وفي ختام حياته كتب الأب «أفانتان» ينعي جهاده طوال عشر سنوات من أجل شق قناة السويس ويقول: في عام ١٨٣٣ مات اثنا عشر من أبنائي بالطاعون في بطن الحجر ورفاتهم التي غطتهم القناطر التي كانوا يقومون بانشائها حملتها مياه النيل نحو هذا البحر الذى نريد أن نستخدمه كوسيلة لربط الانسانية العظيمة عبر القارات لقد كنت أمل أن أن تكون قناة السويس عملا من أعمال مدرسة سان سيمون وان يتوج باسمنا واحسب ان كل اتباعنا الأحياء سوف يجدون فيه العزاء الوحيد للتضحيات التي بذلوها في سبيل ايمانهم برسالتهم كما يعز على أن يتحول دورنا إلى مجرد متفرجين..

ويختتم الدكتور طلعت عيسى بحثه القيم بهذه العبارات المؤثرة: مهما كانت النتائج السياسية لشق قناة السويس ومهما حاول ديلسيبس أن

يستقل ببطولة هذا العمل فإن إغفال أتباع سان سيمون فى المشاركة فى تنفيذ هذا المشروع افقده ركناً أساسياً من الأركان الاجتماعية للفلسفة السان سيمونية وهو «ان الأخلاق يجب أن تقوم على العمل» وان الإنسان يجب الا يستغل اخاه الانسان بل يجب ان تتوحد الجهود لاستغلال الطبيعة نفسها لصالح الانسان لقد جاء مشروع ديلسبس صورة سوداء فى تاريخ الانسانية وتاريخ فرنسا بصفة خاصة فإن اعمال السخرة والتعذيب التى لازمت شق القناة بعرق ودماء آلاف المصريين لا تتفق بحال مع فكرة الإنسانية العالمية ولا مع مبادئ سان سيمون ولا يمكننا أن نعتبر اتباع سان سيمون مسئولين عن التطور المفاجئ الذى لحق بمشروعهم او عن التيارات السياسية الاستعمارية التى احاطت به وجعلت منه مسرحاً للكسب الاستعمارى واستغلال الانسان لأخيه الانسان دون اى اعتبار لفكرة الانسانية العالمية التى جاهد اتباع سان سيمون حوالى ربع قرن من الزمان فى سبيل تحقيقها ومن العدل ان نشير الى الدور الذى لعبه «انفانتان» والافكار النبيلة التى أوحت اليه به ووجهة نظره السامية وفوق كل ذلك تلك الروح التى اظهرها بعد ان اغفل تماما هو وابناء المدرسة السان سيمونية من أى اشارة إلى جهودهم فى المشروع.

تأسيس الجيش المصرى

فقدت مصر قوتها الحربية منذ سقوطها أمام جحافل الفرس بقيادة قمبيز،، قبل خمسة قرون وربع قرن من ميلاد المسيح،

ومنذ تلك الهجمة البربرية انحل الجيش المصرى الوطنى وانتقلت مسئولية الدفاع عن البلاد إلى المرتزقة الاجانب، وفى بعض الفترات كان يسمح للمصريين بخدمة الجيش دون ان تتاح لهم فرصة الترقى الى صفوف الضباط، وحرص حكام مصر الذين أعتلوا عرشها كابرا عن كابر، على ابعاد المصريين عن الجيش حتى لا تنبت لهم اظافر يستخلصون بها بلادهم من أيدى الأعراب هكذا كان حال مصر تحت حكم اليونان والبطالمة والقياصرة الرومان، والولاة العرب وخلفاء الفاطمية وسلاطين الايوبية والمملوكية والعثمانية.

إذا كان من الحقائق التى لا تنكر إن هذه الدول حققت لمصر مكاناً مرموقا، ومركزاً استراتيجياً ونفوذاً وسيادة على المنطقة العربية، فإن الجانب الآخر من الحقيقة يشهد بأن هذه المكانة لم تتحقق على أيدى الجنود المصريين. وإنما على ايدى المرتزقة والمماليك الذين يباعون

اطفالا في سوق الرقيق. ويتنافس السلاطين والملوك على شرائهم وتدريبهم عسكريا وإلحاقهم بالجيش، وعلى اكتاف هؤلاء ارتفعت الراية المصرية في معارك حطين والمنصورة وعين جالوت. أما المصريون فكانوا بمعزل عن هذه المعامع، لأن الحكام لم يفكروا في تجنيدهم، أو بالأحرى خافوا من تجنيدهم، وتوالت العصور والمصريون في غيبة عن الحياة العسكرية والمعارك القتالية، مما أدى إلى تدهور الروح المعنوية لديهم، وانتشار السلبية واللامبالاة وتعميق الإحساس بالغربة، وفقدان الحس القومي، وضعف الشعور بالانتماء إلى وطن يتعين عليهم الدفاع عنه، والتضحية في سبيله بالمهج والأرواح، ذلك ان جيش الوطن هو الرحم الذي يتولد فيه الاحساس بالانتماء والمدرسة التي يتدرب فيها الشعب على النظام والانضباط، وتنمو في النفوس مبادئ التضحية والفداء من اجل الاستقلال والحرية.

ظل هكذا حال مصر والمصريين إلى ان لمع في سمائها نجم محمد علي في مطلع القرن التاسع عشر. وكان محمد علي طرازا فريدا من الحكام الذين تنطوي قلوبهم على نزعة تقدمية عميقة، وكانت لديه رغبة لحوح في جعل مصر دولة عصرية حديثة تضارع الدول الأوربية في قوتها ونهضتها ومكانتها وادرك أن نهضة مصر لن تتحقق الا بتأسيس جيش نظامي مدرب على احدث فنون القتال، وكان من الطبيعي ان يتجه بصر محمد علي - أول ما يتجه - إلى اتباعه ومماليكه رغم علمه بفساد اخلاقهم، إنما اراد الرجل إبراء ذمته عملا بحكمة الاقربون اولى بالمعروف ولكن هؤلاء الاقربين كانوا من الدناءة والخسة بحيث يصعب إصلاحهم أو تطويعهم لتقبل مقتضيات الحداثة.

همجية :

كانت الشراذم العسكرية الموجودة إلى جانب محمد على من أحط العناصر الهمجية التي لم تتعود النظام او الطاعة، وكان كل همها الشغب والتسابق على النهب والسلب والسطو على الأموال والأعراض وارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وكانت قدراتهم العقلية والنفسية أضيق من أن تستوعب فنون القتال الحديث التى فوجئ بها المصريون أثناء حملة بونابرت وكان أقصى ما يتقنه الارناؤوط والألبان والترك والدلاة. الكر والفر على صهوات الجياد: واستخدام السيوف والسهام والحراب. وهي أدوات عفا عليها الزمن ولم تعد صالحة للوقوف فى أوجه الأسلحة الحديثة التى تستخدمها الجيوش الأوربية، ومع ذلك فقد حاول محمد على في ١٨١٥ ان يخوض المغامرة بكل احتمالاتها، فجمع فرقة من جنوده العائدين من حرب الوهابيين. وأعد لهم معسكراً فى بولاق، وصارحهم بعزمه على إدخال النظام الجديد فى صفوفهم. وقبل ان يعودإلى قصره في شبرا هددهم بعقوبة كل من يحاول التمرد، وما ان ادار عزيز مصر ظهره حتى حشد الجنود جموعهم وهاجوا وماجوا.. وأعلنوا رفضهم البات لأوامر العزيز بل مضوا إلى ما هو ابعد.. وقرروا خلع محمد على (11) وماذا فى ذلك من غرابة ألم يخلعوا من قبل الباشوات الاتراك الذين بعث بهم السلطان لإقرار النظام فى مصر بعد رحيل الفرنسيين؟ وهل محمد على أقوى من خسرو وطاهر وخورشيد وقبطان؟ ونسى هؤلاء الأراذل انهم امام ثعلب يستعمل كل الحيل لإحباط خطط خصومه، وقبل أن ينفض اجتماعهم كان أحد رؤسائهم. عابدين بك. يتسلل إلى قصر شبرا ليطلع العزيز على نوايا جنوده المشاغبين الذين

اعتزموا الانقضاض عليه في قصره بالازبكية، وفي لمح البصر كان محمد علي قد انتقل إلى القلعة فوصلها عند منتصف الليل، وبعث بقواته الخاصة إلى الأزبكية فلما جاءها المتمردون جوبهوا بوابل من الرصاص، وانطلقت فلولهم إلى ميدان الرميلة - أسفل القلعة - وانقضوا على الاسواق نهبا وسلبا، ونجح محمد علي في إخماد الفتنة، وخرج منها بدرس كان ينبغي عليه ان يستوعبه من البداية، وهو استحالة الاعتماد على هؤلاء الهمج في تأسيس الجيش النظامي الذي يحلم به، وبدأت افكاره تتجه إلى البحث عن عناصر أخرى، ولكن كان عليه قبل معاودة المغامرة إخلاء القاهرة من العناصر الهمجية، وهداه تفكيره إلى تشتيتهم وتوزيعهم على معسكرات اقامها في رشيد ودمياط وبعض مدن الوجه البحري، وزيادة في تطمينهم بعث معهم ببعض أبنائه حتى يستل من نفوسهم نزعة الشك.

رأى محمد علي أن عملية انشاء جيش عصري حديث لابد أن تتم في سرية تامة، وفي كتمان شديد، بعيدا عن أعين الأتراك والشركس والأرناؤوط الذين يقفون له بالمرصاد، ويدبرون له الدسائس والمؤمرات، وحبذا لو كان المكان بعيدا عن صخب القاهرة وضجيجها، وهي مركز الثورات والتمرد في كافة العهود، ورأى أن «أسوان» هي أنسب مكان لتنفيذ مشروعه الكبير، وأمر ببناء الثكنات والمدارس التي تصلح للتدريب، وبعث إليها بألف جندي من خاصة مماليكه ومماليك أعوانه ليكونوا النواة الأولى لضباط الجيش المصري المدرب على النظام الحديث، وبقي البحث عن الخبير الذي سيقوم بهذه المهمة التاريخية، وألقت إليه الاقدار بالرجل المطلوب، والذي يزدان به تاريخ العسكرية

المصرية باعتباره الرجل الذى أخلص فى تنفيذ رسالته أشد الإخلاص، وهو الضابط الفرنسي الكولونيل (سيف) الذى اعتنق الإسلام، وأصبح أسمه سليمان باشا الفرنساوى.

تجنيد المصريين:

لقد نجحت فكرة محمد علي خلال ثلاث سنوات، وظهرت إلى الوجود أول كتيبة من الضباط الذين تدربوا على فنون القتال الحديث على يد الخبير سليمان باشا الفرنساوى، وبقي التفكير في جسم الجيش .. أي الجنود .. وخاف محمد علي من تكرار فكرة تجنيد الأتراك والأرناؤوط، فاتجه تفكيره إلى السودان، وطلب من ابنه إسماعيل - فاتح السودان - أن يبعث إليه بعشرين ألفاً من أبناء كردفان وسنار، وأقام لهم معسكرات خاصة في قرية «بني عدى» في الصعيد على أن يتولى تدريبهم الضباط الذين تخرجوا من مدرسة أسوان، ولكن التجربة فشلت بسبب إختلاف المناخ مما أدى إلى تفشى الموت بين الجنود السودانين، عندئذ اتخذ محمد على قراره الجرئ بتجنيد الفلاحين المصريين، وإقدم على الخطوة التى أبى أن يقدم عليها حكام مصر على مدى ٢٣ قرناً. وهى السماح للمصريين بممارسة المهن العسكرية، وتحمل عبء الدفاع عن وطنهم، وإذا كنا - نحن المصريين - نحمد لمحمد على هذه الخطوة التى كان لها ما لها فى ترسيخ الحس القومى، إلا أن الأمانة التاريخية تقتضينا أن نسجل لمحمد على قسوته فى تجنيد الفلاحين المصريين، وانتهاجه طرقاً غير انسانية فى جمع الفلاحين قسراً وقهراً وتقييدهم فى الحبال وسوقهم كالدواب إلى معسكرات التجنيد. يقول

المؤرخ العسكرى محمد فيصل عبد المنعم فى كتابه (مصر تحت السلاح) إن المتتبع للطريقة التى اتبعها محمد على لتجنيد المصريين، يلاحظ بجلاء مدى احتقاره للمصريين الذين كان يدعوهم بالفلاحين. وأمتهانه لآدميتهم رغم أن هذا الشعب بذاته هو الذى اختاره وانتخبه لحكمه، فلقد كانت الأساليب المتبعة لجمع المجندين منفردة إلى أبعد الحدود، الأمر الذى جعل المصريين يكرهون الجندية وهو الشعب الذى طالما عرف عنه الميل إلى النظام والطاعة وحب الوطن.

وهو ينقل عن د. محمد محمود السروجى ما جاء فى كتابه (الجيش المصرى فى القرن التاسع عشر) عن الطريقة البربرية فى جمع المجندين، فكان محمد على يكلف مدير كل مديرية بجمع العدد المطلوب، وهذا بدوره يوزع العدد على القرى الكائنة فى اختصاصه، فيقوم العمد والمشايخ - بمعاونة الجنود - بالانقضاض على القرى فجأة، فلا يلبث اهلوها ان يروا ابناء تلك القرى وقد سيقوا - وهم مصفدون بالاغلال كالمجرمين تماما - إلى عاصمة المديرية، دون تمييز بين العجائز أو الاصحاء أو المرضى أو ذوى العاهات أو الصبية، وكانت تلك الجموع اليائسة تجمع وتوضع فى ايديهم الاغلال يتبعهم اقاربهم من النساء والاطفال إلى مكان الفرز، وهكذا لم يكن التجنيد يسير على نظام معين أو ترتيب للاسماء، بل إن القوة الغاشمة التى هى اشد عمى من الحظوظ والمصادفات هى وحدها التى تلقى بالجنود فى أحضان الجيش وهى فى وضع من اشد ما عرف عسفا ووحشية. وفى بعض الأحيان كانوا يقبضون على المارة او الزوار لإدخالهم فى زمرة المجندين إلى غير ذلك من أعمال الغش والاحتيال والرشوة والانتقام من الخصوم.

ولكن المؤرخ عبدالرحمن الرافعى لجأ إلى تبرير الأعمال التعسفية التى استخدمها محمد على فى تجنيد الفلاحين المصريين، ويعزوها إلى المصاعب التي واجهت محمد على اثناء تجنيد الأهالى لأنهم لم يألفوا الخدمة العسكرية منذ آمال بعيدة - وهذا نقص كبير فى اخلاق الشعب الحربية فإنه ما من أمة تنزع إلى الاستقلال وتقدس الحرية إلا وتجعل الخدمة العسكرية فرضا حتما على ابنائها، فلما شرع محمد على فى تجنيد المصريين قابل الفلاحون هذا المشروع بالنفور والسخط، ولم ينتظموا في صفوف الجندية إلا مكرهين فكانت الحكومة تقبض على المجندين وتسوقهم قسرا إلى المعسكرات.

***

تلك هي أبعاد الصفحة العكسرية في تاريخ مصر الحديث، فيها الجانب المضيئ المشرق الذى يتمثل في تأسيس اول جيش مصرى نظامي ومشاركة المصريين فى الأعمال الحربية وقد اثبتوا جدارتهم القتالية في كافة المعارك التى خاضوها وفيها الجانب المعتم الذى يتمثل فى طريقه التجنيد التى اتبعها محمد علي، والاساليب الوحشية التى سلكها والمعاناة التي عاناها اجدادنا وهم يساقون إلى معسكرات الاعتقال.. ولعل ما حدث لايزال صداه يتردد فى التراث الشعبى الذى يئن بالتوجع والفجيعة ويتغنى بالحنين إلى الوطن فى الملحمة البكائية:
يا عزيز عينى انا بدى اروح بلدى.. والسلطة اخذت ولدى(!!)..

رجل من عصر محمد على
سليمان باشا الفرنساوى
دينامو الجيش المصرى

إذا كان فضل التفكير في تأسيس جيش مصرى حديث يعود إلى ساكن الجنان محمد على باشا، فإن فضل التنفيذ يرجع إلى هذا الضابط الفرنسى الذى جمع بين عمق الخبرة، وسمو الخلق، وروح العلم، ودخل مصر واسمه الكولونيل «سيف» فعاش بين ربوعها، وشرب من رضابها، واندمج في نسيجها الاجتماعي فأسلم، وتزوج وكون أسرة كان من سلالتها الملكة نازلى زوجة الملك فؤاد وأم الملك فاروق: واستطاع بعزيمته وصبره وحلمه أن يقوم خير قيام بالمهمة الجليلة التى عهد إليه بها عزيز مصر، مهمة بناء اللبنات الأولى لجيش مصر الحديث.

وأثمرت جهود محمد على وولده البطل إبراهيم وساعدهما الأيمن سليمان باشا الفرنساوى، وصار لمصر جيش وطنى على أحدث الأساليب العصرية. وما هى إلا بضع سنين حتى كان هذا الجيش يثبت جدارته وتفوقه فى الشام والمورة وتركيا.. وظل سليمان باشا يقود جنوده فى معارك الشرف والبطولة حتى طواه ثرى مصر، ودفن فى ضريحه بمصر القديمة، وكان له تمثال فى الميدان المعروف باسمه فى قلب القاهرة منذ عهد الخديوى إسماعيل ثم شاءت إرادة حكومة مصر

ذات الصبغة العسكرية ، أن ترد له الجميل على طريقتها، فأطاحت بالتمثال وألقت به في غرفة الكراكيب التابعة لمصلحة الآثار(!!).

ولد «سيف» في ١٧ مايو ١٧٨٨ م على ظهر سفينة والده أحد رجال الملاحة وأصحاب السفن في مدينة «ليون» ولما ترعرع دخل في مهنة الملاحة بإحدى السفن الحربية في طولون . وهو في الثانية عشرة من عمره، وتقلب في مختلف الأسلحة فكان هذا من أسباب تفوقه، وعمق تجاربه، ورسوخ قدمه في صناعة الحرب، وساعده على ذلك قوة بنيانه الجسماني، وسمو أخلاقه، وظهر نبوغه في معركة «الطرف الأغر» وأصيب فيها بجرح كان علامة الشرف الأولى له، وكان من أبرز صفاته الشهامة وعزة النفس والإباء، فلما اعتدى عليه رئيسه بالضرب قابل الإهانة بمثلها فحوكم أمام مجلس عسكري وحكم عليه بالإعدام، ولكن العناية أدركته بفضل مساعي الكونت «دي سيجور» فاكتفى بطرده من الجندية البحرية.

وفي سنة ١٨٠٧ م التحق بخدمة الجيش الفرنسي الذي احتل إيطاليا وارتقى بجده واجتهاده من رتبة «نفر» إلى سلك الضباط برتبة ملازم ثان، ووصلت إلى مسامع نابليون شجاعته العسكرية إلى جانب حدته وغطرسته، فدعاه ليقلده وساما وفي نفس الوقت أراد تعنيفه، فلما مثل بين يديه بادره نابليون بقوله: هل أنت «سيف» الذي طالما حدثوني عن شراسته؟ فأجابه بكل اعتداد: إذا لم يكن موجب لدعوتي إلا لأسمع هذا الكلام من جلالتكم، فإنني أعود إلى غرفتي! ثم أعطى ظهره للإمبراطور، وامتطى جواده ورجع إلى مكانه من صفوف الجيش، ولكن هذا الحادث أعقبه ترقيته إلى رتبة ملازم بسلاح الفرسان. ثم وقع

أسيرا في أيدي النمسا. فلما خرج من الأسر انضم إلى جيش نابليون مرة أخرى، واشترك في الهجوم على روسيا، وناله من متاعبها الهائلة نصيب كبير، فرقي بعدها إلى رتبة كولونيل، ولما أفل نجم نابليون بعد سنة ١٨١٥م خرج «سيف» من الجندية واشتغل بالتجارة ولكنه لم يحقق فيها نجاحاً، وأدرك أنه لا يستطيع الحياة بعيدا عن حياة الجندية، وفي ذلك الوقت سمع أن عزيز مصر (محمد على) يعتزم تأسيس جيش مصرى على النسق الحديث، فشد الرحال إلى مصر معززا بتوصية من صديقه الكونت «دى سيجور» الذى سبق أن أنقذه من حكم الإعدام.

وجد محمد على في الضابط الفرنسي العنصر المنشود لتنفيذ الفكرة التى كانت تختمر في ذهنه - وهي تأسيس جيش مصرى حديث - ولم يبح لها لأحد حتى الكولونيل سيف نفسه، وإنما طلب منه السفر إلى السودان للبحث عن مناجم الفحم وامتثل سيف للأمر، ولكنه أخفق في مهمته. فلما عاد إلى مصر كاشفه العزيز بما في نفسه فأصابت من نفس سيف قبولاً، وكانت تلك لحظة تاريخية التقت فيها عزيمة محمد على مع خبرة سيف العسكرية. واتفق الاثنان على أن تتم الخطة في سرية تامة وبعيدا عن أسماع العناصر الهمجية التى تقاوم بكل عنف أية محاولة للخروج على التقاليد العسكرية السائدة، وإنشاء جيش عصرى يستوعب الأساليب الحديثة التى انتهجتها الدول الأوروبية.

حجرة الزاوية:

لم تكن فكرة تأسيس الجيش وليدة اللحظة ولكنها كانت تراود محمد على منذ تولى حكم مصر في عام ١٨٠٥ م كان يرى أن الجيش هو

حجر الزاوية في مشروعه الكبير بالنهوض بمصر من أكفان القرون الخالية، وجعلها دولة مرهوبة الجانب قادرة على صد الأطماع الأوروبية، وتدعيم استقلالها عن السلطنة العثمانية، لقد سمع - وهو لم يزل في مسقط رأسه قوله - عن الهزيمة الفادحة التي منى بها المماليك المصريون أمام جحافل نابليون، وأدرك بحسه وذكائه الفطرى أن هذه الهزيمة لم تكن إلا بسبب تفوق العسكرية الفرنسية تدريبا وتنظيما وتسليحا بينما كانت الشرائح المملوكية في غيبوبة عن التطورات العسكرية الأوروبية، وظلت حبيسة القيم والعادات والنظم التي تجاوزها العصر فحقت عليها الهزيمة، فلما طوحت به الرياح إلى مصر جنديا في الحملة العثمانية لطرد الفرنسيين، رأى بأم عينيه انكسار الجيوش التركية بقيادة الصدر الأعظم مصطفى باشا في واقعة أبو قير البرية أمام جيش نابليون. وحين دفعت به الإرادة الشعبية إلى حكم مصر، وضع نصب عينيه أن يقفز بها إلى مشارف العصر الحديث، ويختصر مسافة التخلف ليلحق بالأمم المتمدينة، ثم أدرك بسليقته أن الدول العظمى - ومعها تركيا - لن تسمح لمصر بأن تتبوأ مكانتها المنشودة إلا إذا أصبح لها جيش قوى يحمى مركزها الدولى، ويمد نفوذها خارج حدودها، ويصون استقلالها من الغارات الأجنبية، وبحكم معرفته بطبيعة العناصر الهمجية التي بين يديه أدرك أنها لن تنصاع طواعية المقتضيات العسكرية الحديثة. وهو ما حدث بالفعل.

الباشبوزق:

كان الجيش المصرى في مطلع حكم محمد على يتكون من أخلاط من الترك والدلاة والألبان والأرناؤوط والدروز التي تعودت على

الفوضى والتحلل من الطاعة والنظام. فإذا تأخرت رواتبهم انقضوا كالوغول الضارية على الأسواق ينهبون ويسلبون كل ما يقع تحت أيديهم، فيسارع التجار بغلق دكاكينهم والهرب إلى بيوتهم يتحصنون بها إلى أن ينجلي الموقف وتزول السحابة السوداء التي تصيب الناس في أعراضهم وأموالهم. وكان هؤلاء الهمج يطلق عليهم اسم (باشبوزق) أي الجنود غير النظاميين. فلما علموا بعزم الباشا محمد علي تكوين جيش يخضع للضبط والربط، شقوا عصا الطاعة، وأعلنوا العصيان والتمرد عليه، بل دبروا مؤامرة لاغتياله.

حدث ذلك سنة ١٨١٥ بعد أن حاول محمد علي لأول مرة تنفيذ مشروعه بعد عودته من حرب الوهابيين، ولكن المحاولة فشلت وكانت تودي بمركزه مما اضطره إلى العدول عنها، وإرجائها إلى وقت آخر.

وفي عام ١٨٢٠ - أي بعد خمس سنوات من التدبير الهادئ الحكيم - عاد محمد علي إلى تنفيذ مشروعه، وقد نجح في تشتيت الجنود الهمج وإخراجهم من القاهرة، وتوزيعهم على الثغور مثل رشيد ودمياط وبعض البلاد الواقعة على فرعي النيل، ولكي ينزع من نفوسهم أي شك في نواياه، بعث معهم بعض أولاده: طوسون باشا وإسماعيل باشا للإقامة معهم في معسكراتهم الجديدة. وفي تلك الأثناء دفع إليه القدر بهذا الضابط الفرنسي (كولونيل سيف) ليضعا معاً نواة تأسيس أول جيش مصري على نسق حديث وكانت الخطوة الأولى إنشاء مدرسة لتخريج أول دفعة من الضابط لتتحمل بعد ذلك مسئولية تدريب الجنود. واختار محمد علي مدينة (أسوان) لتكون مقراً لهذه المدرسة. وكان اختياره لهذه المدينة النائية بقصد أن تكون بمنأى عن أماكن

اللهو التي تشغل الشباب عن رسالتهم وبقصد أن تجرى التجربة فى سرية وبعيدا عن شماتة الأعداء إذا أخفقت.

واختار عزيز مصر خمسمائة مملوك من خاصة مماليكه ليكونوا نواة المدرسة الجديدة، وشجع عدداً من أعوانه على أن يبعثوا عدداً مماليكهم. فاكتمل عددهم ألف مملوك بنى لهم أربع ثكنات كبيرة لاتكون مأوى لهم، ومدرسة يتلقون فيها مبادئ العسكرية الجديدة، وعهد بهذه المهمة الجليلة إلى (سيف) ولم يكن الطريق أمامه مفروشاً بالورود. إذ لم يكن من السهل تعليم أولئك الشبان علم الحرب الحديث وتعويدهم الخضوع للنظام. فضلاً عن شراستهم ونفورهم من الانقياد لضابط غير مسلم.

عراقيل:

يعرض كلوت بك فى كتابه (نظرة عامة حول مصر) العراقيل التى صادفت الكولونيل «سيف» طوال السنوات الثلاث التى مكثها فى أسوان: فمن هذه العراقيل شموخ هؤلاء المسلمين شموخاً يجعلهم لا يستطيعون الخضوع للنصارى إلا بشق الأنفس ومنها أن هذه الفئة المغرمة بالجلبة والضوضاء فى أثناء تلهيها بالألعاب الرياضية لم يكن يروق لها ضبط النفس والجوارح عند الأتيان بالحركات العسكرية الدقيقة ولا فى مكنتها أن تلازم الصمت الإجبارى التام أثناء المناورات فاتقد فى قلوبهم الحقد وحملهم الجهل والاستكبار على تدبير عدة مؤامرات لاغتيال حياة المسيو «سيف» وقد حدث أنه بينما كان يمرنهم على ضرب النار مرت رصاصة على مقربة من أذنه سمع حفيفها وكانت هذه الرصاصة مصوبة إليه. فلم يعبأ بذلك وبقى فى مكانه كأن لم يحدث له شئ

وأمرهم أن يطلقوا النار مرة أخرى. وفي ذات يوم وجد نار الثورة محيطة به فجأة ولما رأوا منه عدم المبالاة صارحوه بقصدهم وأظهروا له أنهم يريدون التنكيل به، فما كان منه حيال ذلك إلا أن طلب منهم مبارزته بالسيف واحدا تلو الآخر وقال لهم إني إنما أريد بذلك أن أمحو عنكم عار القتل عن طريق الخيانة فلم يلبثوا إزاء هذه الشجاعة النادرة أن ثابوا إلى رشدهم وكسروا من حدتهم واعجبوا به إعجابا حملهم فيما بعد على الإخلاص له وحبه من أعماق قلوبهم، فانقلبوا أولياء له بعد أن كانوا أعداء واستخدم هو هذه المحبة المقرونة بالاحترام فجعلها وسيلة لحملهم على التنافس في إدراك أوفر نصيب من الفنون الحربية في مدى ثلاث السنوات. ولما تكونت هذه النواة الأولى للجيش النظامي بتخريج هؤلاء الضباط ظهرت الحاجة إلى جمع الجنود ولم يكن محمد على يريد جمعهم من الأتراك والأرناؤوط لأنهم أظهروا من قبل عدواتهم الشديدة لهذا النظام العسكرى الحديث وثارت ثائرتهم عليه ورفعوا ضده لواء العصيان.

وكذلك لم يكن في استطاعته أن يخاطر بجمعهم من بين صفوف الشعب المصرى فلم تبق له وسيلة سوى تجنيد السودانيين فجند من أهالى كردفان وسنار ثلاثين ألفا وأرسلهم على الفور إلى بنى عدى بالقرب من منفلوط الواقعة على الضفة اليسرى للنيل بالوجه القبلى وفى الوقت الذى وصلوا فيه نزل ضباط المماليك الجدد من أسوان وذهبوا إلى بنى عدى لتدريب هؤلاء الجنود وتعليمهم وتولى الرئاسة عليهم.

وما جاء شهر يناير من سنة ١٨٢٣ م. حتى تألفت الست الآلايات الأولى وعليها أولئك الضباط النظاميون من المماليك وانقضت سنة

١٨٢٣ م وانقضى من سنة ١٨٢٤ م إلى شهر يناير في إتمام تعليمهم وتدريبهم. وفي هذا الوقت أرسل محمد علي باشا أحد هذه الآلايات إلى شبه جزيرة العرب والثاني إلى سنار والأربعة الأخر أرسلت إلى مورة تحت قيادة إبراهيم باشا ومع هذا فلم تكلل هذه الجهود بالنجاح بل باءت بالفشل إذا أنشب الموت أظفاره في هؤلاء السودانيين وأهلكهم ألوفا ألوفا فظهر من ذلك أن أجسامهم لا يلائمها غير مناخ بلادهم وأنهم فوق ذلك لا يحتملون مشاق الخدمة العسكرية.

وكان محمد علي يزداد شعوراً كلما مرت الأيام بضرورة إيجاد جيش منظم فجال بخاطره ثانياً أن يجمع جنوده من بين المصريين وهذه فكرة فيها ما فيها من الجرأة والأقدام والاستهداف للمخاطر. فقد هاج المصريون في عدةنواح عندما طلبوا لهذه الخدمة وقامت الثورات في جهات متعددة إلا أنها قمعت. وتوصل محمد علي إلى تحقيق ما جال بخاطره وانتهى الأمر بالفلاح المصري أن يرضى بحالته الجديدة ويتعودها بعد أن رأى أنه يتناول غذاء جيدا ويرتدي كساء جميلاً في ظل العلم لم يكن له في سابق حياته.

في حومة المعارك:

لم يقتصر دور سليمان باشا الفرنساوي على التعليم والتدريب وتخريج الدفعات الأولى من الضباط والجنود وإنما اشترك في إدارة المعارك الكبرى التي قام بها الجيش المصري وأرسله عزيز مصرمحمد على مع ابنه ابراهيم في حرب المورة فأظهر في هذه الحرب بسالة وإخلاصاً جعلا له أرفع مكان في نفس إبراهيم باشا.

وفي الصفحات التي كتبها عمر باشا طوسون عن الجيش المصرى البرى والبحرى في عهد محمد علي، معلومات هامة عن سليمان باشا الفرنساوي، منها أنه بعد انقضاء حرب المورة، عاد ومعه فتاة يونانية اختارها من السبايا اليونانيات اللائى وقعن في قبضة الجيش المصرى ثم اقترن بها ورزق منها بأولاده وهم اسكندر بك الذى لم يعمر طويلاً. وبنتان اقترن بإحداهما شريف بك الذى أصبح فيما بعد المشير. «شريف باشا» الفرنساوى ورزق منها بذريته الذين كان من بينهم حرم عبد الرحيم باشا صبرى والد ملكة مصر نازلي فؤاد واقترنت الأخرى بمراد حلمى بك الذى أصبح فيما بعد مراد حلمى باشا أحد الوزراء المصريين ورئيس المحكمة المختلطة.

ولما عاد سليمان باشا إلى مصر من حرب المورة تفرغ لإعادة تنظيم الجيش المصرى من صميم المصريين ووثق به محمد علي وإبراهيم باشا فأمداه بمعاونتهما وركنا إليه في هذه المهمة العظيمة حتى تمكن من جعل مصر ذات جيش قوى مدرب على أحدث الأساليب العصرية فكافأه محمد علي ـ على ذلك برتبة اللواء. ثم جاءت الحوادث التي أفضت إلى حرب الشام سنة ١٨٣١ م. فجردت مصر عليها الجيوش البرية والبحرية وأسندت القيادة العليا فيها إلى إبراهيم باشا فكان سليمان باشا فيها قائداً للمدفعية وفتح الجيش المصرى مدينة عكا الحصينة وأسر حاكمها عبدالله باشا الجزار وأرسله إلى الأسكندرية.

ثم توغل إبراهيم في داخلية البلاد السورية وافتتحها وتطورت هذه الحرب تطوراً عظيماً وكان النصر فيها معقوداً بلواء المصريين ومنيت

الجيوش العثمانية فيها بالهزيمة تلو الهزيمة حتى أصبح الجيش المصرى على أبواب الآستانة وكان لسليمان باشا في هذا النصر المبين الحظ الأوفر خصوصا بعد أن رقي إلى رئيس أركان حرب الجيش المصرى. ثم تدخلت الدول في هذه الحرب وضربت أساطيلها سواحل الشام وأنزلت إنجلترا جنودها بها وتوجه جزء من الأسطول الإنجليزى إلى الأسكندرية وتهدد محمد على فأوقف الجيش المصرى عن الزحف إلى الآستانة وقضت السياسة الأوروبية بعد ذلك بانسحابه من سوريا بعد أن أقام فيها تسع سنوات وشبت الفتن والثورات حوله قبل انسحابه من هذه البلاد فأخمدها ووضع سليمان خطة الانسحاب للجيش المصرى فعاد الثوار إلى مناوشته وهو منسحب، ومع ذلك فقد تمكن من الجلاء عن سوريا ودخل القاهرة دون أن يفقد مدفعا واحداً فكافأه محمد على.. على.. ذلك برتبة ميرميران أى (المشير).

وظل بعد ذلك في رئاسة أركان حرب الجيش المصرى متمتعاً بثقة محمد على ورعايته وثقة ولده سر عسكر الجيوش المصرية فارتفعت منزلته وعظمت ثروته.

وفى سنة ١٨٤٦ م.كان في معية إبراهيم باشا في زياراته لفرنسا فشاهد الحفاوة العظيمة التي أعدها له (لويس فيليب) ملك فرنسا وحضر مناورات الجيش الفرنسي الكبرى وقابل عظماء القواد ورجال الحرب وانعم عليه الملك بوسام جوقة الشرف ثم انتهز هذه الفرصة وزار مدينة ليون مسقط رأسه وزار فيها شقيقته وأقاربه وأصدقاءه الأقدمين ثم عاد إلى مصر وقدم إلى محمد على تقريراً ضمنه مشاهدته وما استجد في نظام الجندية الفرنسية.

ولم يزل متمتعا بثقة محمد علي وثقة ولده السر عسكر البطل إبراهيم باشا حتى توفيا وتولى الأمر عباس الأول فعهد إليه سر عسكرية الجيش وقيادته العامة وكان لديه كما كان لدى سلفية ثم كان لدى سعيد توليه الأريكة المصرية كذلك إلى أن توفى سليمان باشا فى عهده فى ١١ مارس سنة ١٨٦٠م.

إبراهيم باشا النبراوى
بائع البطيخ الذى أصبح نابغة الطب المصرى

هذا نموذج للعبقرية المصرية التى كشفت عن نفسها عندما أتيحت لها فرصة العلم والترقى. إنه من جيل الرواد الذين خرجوا من تراب مصر وانطلقوا الى مراكز العلم فى أوروبا فبلغ أعلى مراتب التبوغ. أنه إبراهيم باشا النبراوى الذى وصفه على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية بأنه أنجب من اشتهر فى الجراحة وأنه ذو إقدام على ما لم يقدم عليه غيره، وأنه يجرى العمليات الجراحية المنتجة للصحة ولم يسبقه فى ذلك غيره، وذاع صيته وبلغت أخباره عزيز مصر محمد على فاختاره طبيبا خاصا له، واصطحبه فى رحلته إلى أوروبا عام ١٩٤٨ وكثرت عليه الإغداقات وانتشر ذكره وطلبته (الفاميليات) أى العائلات الكبيرة والأمراء، وبعد عودته من البعثه عين مدرسا بمدرسة الطب المصرية التى أنشأها العلامة الفرنسى «كلوت بك» وترقى فى المناصب العلمية الى جانب اهتمامه بترجمة المؤلفات الطبية، فترجم لاستاذه كلوت بك عن الفرنسية ثلاثة كتب، وبعد استقالة كلوت بك عين إبراهيم باشا النبراوى وكيلا لكلية الطب بعد أن ثبتت جدارة المصريين، وإحلالهم

محل الأجانب، وظلت مكانته ترتفع عند الأسرة العلوية فاختاره الوالى عباس الأول طبيبا خاصا له، ونال لديه الحظوة العظمى، ولما سافرت أم عباس الأول لأداء فريضة الحج صحبته معها ليشرف على صحتها وصحة من معها من الحجيج، وظل إبراهيم باشا النبراوى متربعا على عرش الطب الى أن لاقى وجه ربه فى عام ١٨٦٢.

ولهذا الرائد العظيم قصة أقرب إلى الخيال. فقد بدأ حياته فى قريته نبروه صبيا يعمل فى فلاحة الأرض إلى جانب أبويه الفقيرين، وكان كل حظهما من حطام الدنيا بضع قراريط من الأرض يشقيان فى زراعتها بالخضروات أو الفواكه، ثم يقوم الأب ببيع محصوله فى عاصمة المديرية (طنطا) عسى أن يعود بربح أوفر مما يحصل عليه فى القرية، وفى هذا المناخ المتزج بالشقاء والشظف والحرمان عاش الصبى «إبراهيم» كما يعيش ملايين الصبية من أقرانه فى ريف مصر. وعرف طريقه الى الكتاب فحفظ القرآن الكريم وتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب، ثم لاح له أن يساعد أبويه فى كفاحهما، ويوفر على أبيه مشقة تسويق بضاعته فى المدينة، وجنح به طموحه أن يقتحم العاصمة - فهى أكبر المدن وأعظمها - ومن ثم تصور أن يكون العائد متناسبا تناسباً طردياً مع حجم المدن. ولابد أن يكون أهل القاهرة أقدر من غيرهم على دفع أثمان تفوق ما يدفعه سكان المدن الصغرى فيعود إلى أهله ومعه المال الوفير الذى يخفف عنهم مشقة البؤس.

كان الأب قد زرع قراريطه بالبطيخ، فلما نضج، حمل ابراهيم محصوله على ظهر جمل أستأجره ومضى يشق مسالك الدلتا نحو

القاهرة، واتخذ طريقه الى حى الجمالية حيث الكثافة السكانية، فلما عرض بضاعته للبيع لم يجد الثمن الذى كان يبتغيه، ثم رأى أن يتمهل ولا يتسرع فى البيع حتى تصل الأسعار الى المستوى المنشود.. ومضى يوم اثنان دون أن تتزحزح الأسعار إلى الأعلا.. وعندئذ وجد أن الوقت ليس فى صالحه، وعوامل الطبيعة تعمل على إفساد البطيخ وبواره.. حتى إذا انتهى العرض والطلب وجد أن خسارته فادحة، وأنه قد خرج من المولد بدون حمص، كما يقول المثل، وعز عليه أن يعود إلى أبويه خالى الوفاض. بعد أن وعدهم بالخير العميم، فدفع بما تجمع لديه من مال قليل إلى صاحب الجمل الذى استأجره من نبروه، وطلب منه العودة الى القرية ويبلغ والديه عن أسفه لعدم قدرته على الوفاء بما وعد، وأنه سيبقى فى العاصمة ليشق طريقه عسى أن تعوضه الأيام عن الخسائر التى منى بها.

فى رحاب الأزهر:

عند هذه المرحلة الجديدة من حياة إبراهيم النبراوى يذكر المؤرخ الدكتور جمال الدين الشيال أن إبراهيم ساقته قدماه إلى إحدى الحوارى المجاورة للجامع الأزهر، وقد أنهكه التجوال بحثا عن عمل، وبينما هو جالس راح ينظر إلى المارة من أهالى الحى، وهو يلعنهم ويلعن بلدهم فى نفسه، وجذب انتباهه منظر غريب طريف، لقد نظر فرأى شيخا كبيرا ذا لحية طويلة بيضاء بيده كتاب، وبيده الأخرى مسبحة يرسل حباتها الواحدة بعد الأخرى، وعن يمين الشيخ وعن شماله ومن ورائه عدد كبير من الفتية المعممين، والشيخ يسير فى تؤده ووقار، والفتيان

يتبعونه في أدب جم واحترام بالغ، وتتبع إبراهيم هذا الموكب، واستعاد في ذهنه صورة شيخ القرية وكتابها وأقرانه من الصبية الصغار.

وانتهى المسير بالشيخ وتلاميذه إلى باب المسجد فدخلوه، ومال إبراهيم إلى جار له وسأله عمن يكون الشيخ، وعما يكون المسجد، فذكر له أن هذا المسجد هو الأزهر، وأن هذا أحد شيوخه، وأن هؤلاء تلاميذه الذين يتلقون عنه العلم، فبهرته الصورة، واستهواه وقار الشيخ، وزى الفتية وهم يرفلون في جببهم وعمائهم، ولمعت الفكرة في خياله لمعان البرق فانتفض واقفا، واتخذ سبيله إلى المسجد ودخل مع الداخلين وراعه كثرة حلقات الدرس، كل شيخ يجلس بجوار عمود ومن حوله التلاميذ به في شكل حلقه، وهم يستمعون إلى أستاذهم في اهتمام، وجلس ابراهيم إلى أقرب حلقة واستمع ثم استمع، ثم انتقل إلى حلقة ثانية وثالثة ورابعة.. ولم يكد ينتهي اليوم حتى قر عزمه أن يصبح أزهريا يطلب العلم كما يطلبه مئات غيره من المنكبين على الكتب ينهلون من صفحاتها ما يعمق ثقافتهم، فعل ذلك وفي ذهنه أن يعود يوما إلى قريته نبروه وقد صار عالما مرموقا فيصبح شيخا للقرية ينحني الجميع لتقبيل يده، ويسعون الى رضائه، وتقبل عليه الدنيا فيعوض الخسائر والتي لحقت به من صفقة البطيخ

إلى مدرسة الطب:

ومضت الشهور وابراهيم يكشف عن نبوغ فطري، واستعداد طيب لتلقي المزيد من العلوم، حتى لفت نظر شيوخه وأساتذته، وكان يلقى

من تشجيعهم ما يحفزه على التعمق. إلى أن كان أحد الأيام حين أرسل إليه شيخه يستدعيه، فهرول مجيباً، ولكنه لم يكد يقبل عليه حتى وجد في حضرته جماعة من الناس، فيهم من يرتدى زى أمراء الجيش، ومنهم من يتزيا بزى الشيوخ، وتقدم إبراهيم فقبل يد أستاذه، فتلقاه الشيخ بالترحيب، وتوجه بالحديث الى الضيوف وهو يقدمه اليهم بعبارات كلها إطراء وثناء، وفهم إبراهيم من الحديث أن هؤلاء السادة هم أعضاء لجنة جاءت إلى الأزهر لتختار نخبة من نوابغ الطلبة ليكونوا نواة مدرسة الطب الذى يزمع محمد على إنشاءها، وعهد إلى كلوت بك بتأسيسها.

وهكذا انتقل إبراهيم النبراوى من طالب بالأزهر يتمنى أن يكون شيخا صاحب كتاب في نبروه، إلى تلميذ في مدرسة الطب الجديدة حيث يدرس علوما جديدة لم يسمع فيها من قبل مثل الكيمياء والطبيعة والتشريح ودراسة الأمراض والأدوية، ويستمع فيها إلى أساتذة ليسوا من دينه ولا من جنسه فهو لا يعرف لغتهم، ولا يعرفون لغته - وكلهم قادمون من فرنسا لاعداد أول فرقة من الطلبة لدراسة الطب، ثم إيفاد المتقدمين منهم إلى باريس لتلقى الدراسات العليا المتخصصة.

وكما نبغ ابراهيم النبراوى في حلقات الأزهر، نبغ كذلك في مدرسة الطب، وقضى سنوات الدراسة جميعا بنجاح وتفوق. فكان ضمن أفراد أول بعثة ذهبت إلى فرنسا لإتمام علومهم، وكان اختياره بترشيح من ناظر المدرسة كلوت بك الذى توسم فيه النبوغ. وسافر

إبراهيم النبراوى إلى باريس عام ١٨٣٢ فوجد نفسه أمام عالم يختلف تماما عن عالم نبروه وطنطا والقاهرة.. الرجال غير الرجال.. والنساء غير النساء.. والأخلاق والعادات وطرق التعليم تختلف عن المحيط الذى عاش فيه.

وفى عاصمة النور خفق قلب إبراهيم بحب فتاة فرنسية فتزوجها، ولم يشغله الزواج عن المهمة التى أوفد من أجلها، ولابد أن تكون زوجته الفرنسية قد ساعدته على إتقان اللغة الفرنسية، وسرعة هضم العلوم التى كانت تلقى بالفرنسية. حتى إذا أتم دراسته عاد إلى وطنه عام ١٨٣٦ وبصحبته زوجته الفرنسية، فعين مدرسا بمدرسة الطب المصرية، فكان من أوائل المصريين الذين شغلوا مراكز التدريس، ونجح مدرسا وطبيبا مثلما نجح طالبا فى الأزهر. وأظهر مهارة فائقةحتى قصده الناس كل فج، وبلغت شهرته مسامع محمد على فقربه إليه وجعله طبيبة الخاص.

زوج مخلص:

وظل إبراهيم النبراوى وفياً لزوجته الفرنسية مخلصا لها، ولم يتزوج غيرها الى أن أدركتها المنية فحزن عليها حزنا شديدا، وعندئذ أنعمت عليه (الوالدة باشا) أم الوالى عباس الأول بفتاة من حريمها اسمها إشراقة فتزوجها وكان قد رزق من زوجته الفرنسية ولدان، أحدهما يوسف باشا النبراوى، وقد تلقى علومه الأولى بمصر، ثم أرسل فى بعثه الى فرنسا سنة ١٨٥٥، فى عهد سعيد باشا للتخصص فى الفنون والعلوم

الحربية وعاد الى مصر عام ١٨٦١ فعين ضابطا في الجيش المصرى، غير أنه لم يمكث به إلا قليلا، ثم عاد إلى فرنسا فأقام بها طويلا، وتزوج هناك من سيدة فرنسية، وكانت له جهود حميدة في إقناع المسئولين الفرنسيين للموافقة على إنشاء المحاكم المختلطة، ثم استدعى إلى مصر بعد إنشاء هذه المحاكم وعين رئيسا لواحدة منها.

أما الابن الثاني خليل فقد تلقى علومه بمصر، ثم التحق بمدرسة الطب المصرية وبعد إتمام الدراسة بها أرسل في بعثة طبية إلى النمسا وفرنسا، وعاد إلى الوطن في عهد الخديو إسماعيل وعين طبيباً بالمصلحة الطبية.

ومن نسل هذا الرجل العظيم رائدة الصحافة والنشاط النسائي السيدة «سيزا نبراوى» التي يذكرها تاريخ الأدب والصحافة المصرية في الأربعينات من القرن العشرين. وكانت سكرتيرة للاتحاد النسائى، وأصدرت العديد من المجلات التي كانت تدعو إلى حقوق المرأة.

هذه قصة فتى من قلب الريف المصرى، كما رواها المؤرخ الدكتور جمال الشيال، وقد تنقل القدر بهذا الرجل من بائع بطيخ فاشل إلى طالب بالأزهر، ثم انتقلت به عناية محمد على إلى مدرسة الطب ثم إلى فرنسا حتى أصبح طبيباً ومدرساً ووكيلاً لكلية الطب، وطبيباً خاصاً لحكام مصر، وارتقى به نبوغه إلى أن حصل على أكبر لقب في وطنه وهو رتبه الباشوية. ولعل في هذه القصة ما يحفز شبابنا على الجد والجلد والمثابرة وقوة العزم.

أما الجانب الانسانى فى شخصية إبراهيم باشا النبراوى فقد أشار اليه العلامة على مبارك فقد وصفه بأنه كان إنساناً كريم الشيم رفيع الهمة، يغلب عليه الفرح والانبساط ، فكنت تراه دائما مستصحباً للمغانى وآلات الطرب. ولم تمنعه العلوم الطبيه والعمليات الجراحية من أن يشبع هوايته وحبه للفنون والطرب.

عباس الأول
أسوأ حكام الأسرة العلوية

خذها منى نصيحة :

لاتصدر حكما عاما على حاكم تاريخي بأنه «طيب» أو «شرير» .. فذلك تبسيط يأباه المنهج الموضوعي في تقويم المشاهير، ولايعرف التاريخ منذ نشأة المجتمعات الانسانية حاكما يمكن أن تصفه بأنه ملاك .. كما لم يوجد حاكم يمكن أن تضعه في زمرة الشياطين .. وكل حاكم مهما بلغ شططه لايخلو من أعمال طيبة .. ومهما بلغ حاكم من الصلاح والرشد فإن سجل أعماله لايخلو من أخطاء .. لماذا؟ لأن الحاكم هو في الأصل بشر .. ليس من هؤلاء ولا من أولئك .. ولو نقبت في تاريخ الحكام العظام الذين اشتهروا بالعدل والصلاح فستعثر لهم على هنات وأخطاء ..

●● عندك - على سبيل المثال - السلطان العظيم صلاح الدين الأيوبي، الذي دمر الصليبيين في حطين، وطهر القدس من أرجاسهم، والذي وحد البلاد العربية في جبهة صلبة ضد الغزو الأوروبي، ومع ذلك عندما شعر بدنو أجله، قام بتقسيم البلاد العربية التي وحدها، إلى

كيانات صغيرة وجعل على رأس كل منها واحدا من أشقائه وأولاده.. فكانت النتيجة أن تفسخت الوحدة العربية، وأشتعلت حرب الأشقاء والأعمام بدلا من حرب الفرنجة، وكانت النهاية سقوط الدولة الأيوبية فلم تعمر أكثر من ثمانين سنة، ووقعت لقمة طرية في أيدى المماليك الذين جلبوهم من أسواق الرقيق فصاروا حكاما.. وأطاحوا بأسيادهم الذين لم يرتفعوا إلى مستوى المحنة: محنة الصليبيين والمغول معا..

وعلى سبيل المثال في الناحية الأخرى.. لو بحثت عن أسوأ حكام الأسرة العلوية التى أسسها محمد على فلن تجد أسوأ من عباس الأول الذى خلف جده طبقا لتسوية لندن ١٨٤١ التى جعلت الحكم فى أكبر أمراء الأسرة فكان عباس ابن طوسون ابن محمد على لأن سعيد - أكبر اولاد محمد على بعد وفاة ابراهيم كان أصغر من عباس وشاء حظ مصر العاثر أن يئول حكمها إلى هذا الرجل غريب الأطوار والذى كانت أبرز صفاته القسوة والغلظة والنفور من الناس وكراهية العلم والنور والتحضر، والتآمر على أقرب الناس إليه حتى هرب معظم أفراد الاسرة الحاكمة إلى استانبول فرارا بحياتهم بعد أن استولى عباس على أراضيهم ومجوهراتهم. وكان «الخنق» وسيلته إلى التخلص ممن يتوجس منهم حتى كان الناس يختفون - فجأة - دون أن يعرف أحد مصائرهم (!!).

فى جوف الصحراء:

●● ولأن هذا الحاكم الغريب كان يفضل الجهل والظلام والرعب، فقد قام بتبديد الميراث الحضارى الذى تركه جده، فأغلق المدارس والمصانع وحل الجيش، واستدعى البعثات التى كانت تتلقى العلم فى

أوروبا، ودفعه نفوره من البشر إلى بناء مجموعة من القصور في جوف الصحراء يأوى إليها كما تؤوى الخفافيش وهو قصره فى «الخرنفش» وبات يتنقل بين هذه القصور تحيط به كوكبة من الغلمان.. فقد بنى قصرا هائلا فى العباسية وكانت يومئذ صحراء جرداء - بلغت نوافذه ألفين، كما بنى قصرا فى القطامية، وآخر فى العطف عند ملتقى النيل مع ترعة المحمودية، ورابعا فى بنها وهو القصر الذى قتل فيه.. واستخدم عباس فى بناء هذه القصور.. السخرة وأرغم الفلاحين المصريين على العمل دون أجر.. حتى قال عنه أحد المكارية (طائفة مؤجرى الحمير) : «انه يكلف الفلاحين بأعمال شاقة فى الصحارى ولايدفع لهم من الأجر إلا القليل، ومعظمهم يموتون يومياً فى قصور الباشا، وقد كان من واجب سموه أن ينفق هذه الأموال فى تحسين أحوال مصر بدلا من بناء القصور فى الصحراء ولو أنه ألغى السخرة لأغضينا الطرف عن سيئاته العديدة.. انه يأخذ أقوى شبابنا ليعملوا فى مشروعاته ويهملوا الزراعة»..

وبينما كان عباس يقسو على الفلاحين ويرهقهم عسراً كان عطوفاً على الأعراب البدو، ويتغاضى عن نشاطهم فى السطو والنهب والتخريب، ويغدق عليهم الأموال، ويشجعهم على فرض الإتاوات على الفلاحين ويستخدمهم فى إذلال المصريين وفى عهده انتشرت الجاسوسية بشكل مخيف، فصار الانسان لايأمن على حياته من الخنق أو الالقاء فى النيل.. أما أبسط العقوبات فهى النفى إلى أقاصى السودان، كما فعل مع رفاعة الطهطاوى ومعاونيه..

وعمد عباس إلى إهمال الجيش الذى قامت عليه النهضة في عصر محمد علي، والذى كان مضرب المثل في النظام والكفاية، وأدمج فيه شرذمة من الأرناؤود بلغ عددهم حوالي ستة آلاف مسلحين بالمسدسات، فتحولوا إلى عصابات لاغتصاب الناس والسطو على أموالهم وأعراضهم في الوقت الذى جرد فيه المصريين من السلاح ومنعهم من حمله، وكأنما أراد أن يسهل لهؤلاء السفاحين فرصة الاعتداء على المواطنين (!!).

والمؤرخون المعاصرون لهذا الأمير الغامض، يعزون كل ذلك إلى جهله وعدم حصوله على أى قسط من التعليم كما لم تتح له الظروف للسفر إلى أوربا والأطلاع على الحياة الحضارية فيها..

ومع كل هذه السيئات فقد وجد عباس الأول من يذكر له بعض الحسنات، منها قيامه بإصلاح وتمهيد الطريق البرى بين القاهرة والسويس، ومنها تنفيذ مشروع السكة الحديد بين الأسكندرية والقاهرة والسويس. ورغم أن هذين المشروعين يخدمان المصالح الانجليزية التى كان عباس يميل إليها، ورغم أن ذلك بمثابة (قناة سويس برية) بديلاً عن مشروع القناة البحرية التى كانت فرنسا تتبناها.. إلا أن المؤرخ عبد الرحمن الرافعي يضع ذلك في ميزان حسنات عباس، إذ يرى أن مشروع السكة الحديد أنفع للبلاد وأبعد عن الضرر من مشروع القناة، لأن مصر - فى رأى الرافعي - لم تستفد شيئا من فتح قناة السويس، بل كانت القناة - في رأيه - شؤما على مصر، أما السكة الحديد فقد نهضت بعمران البلاد التى مرت بها، بخلاف القناة، وأنها من المشاريع الجليلة

التى تذكر لعباس.. ويضيف الرافعى إلى مآثر عباس: استتباب الأمن.. وقضاءه على الأشقياء وقطاع الطرق ومطاردتهم بكل قسوة حتى انقطع دابرهم..

كذلك وجد عباس الأول فى شخص الوزير الداهية «نوبار باشا» مدافعا حصيفا.. ولاننسى أن نوبار كان بوقا للمصالح الانجليزية فى مصر، ولعب الدور الأكبر فى تحويل ولاء عباس من فرنسا إلى انجلترا.. فهو يصف عباس بالكرم برغم ماعرف عنه من شح، وينفى عنه تهمة القسوة والظلم ويقول أن المصريين لم يعانوا فى عهده من الضغوط المالية والاقتصادية مثلما كان الحال فى عهد جده، ويرى أن «عباس» أغلق المصانع لمصلحة المستهلك المصرى، لأن المنتجات الأوروبية أرخص وأحسن نوعية من المنتج المحلى، وفى رأى نوبار أن «عباس» كان تجسيدا للسيد العظيم أو الأمير الشرقى الحقيقى: فقد كان يعيش منعزلا متفردا ويصدر أوامره لتنفذ بالسمع والطاعة العمياء، وينقل عن عباس قوله: إذا كان لى أن أحمى التجار فلست ملزما بتقليدهم ويرى فى عصر عباس مرحلة من مراحل تطور مصر، ويفند وجهات نظر من هاجموه، وأنه كان موضعا للتجنى والأحكام الخاطئة ويمتدح تخفيضه لنفقات الدولة وشدة حرصه على مصالح البلاد، وإقرار الأمن بالشكل الذى لم تعرفه مصر من قبل.

وبرغم هذا الدفاع الحماسى إلا أن سنوات حكم عباس الأول التى بلغت خمس سنوات ونصفا، كانت فترة جمود فى مسيرة النهضة التى بدأها محمد على، وكانت نهايته ـ مثل حياته ـ غامضة، فقد علم الناس

بدأ وفاته فجأة - وبدون مقدمات - يوم ١٤ يوليو ١٨٥٤ مما أثار الشكوك حول ظروف الوفاة، وقال القنصل الانجليزى أن طبيبين ايطاليين قاما بفحص جثته وأنه مات فى نوبة صرع، وأن الأطباء كانوا يتوقعون ذلك فى أى وقت أو أن يصاب بالجنون، واستدلوا على ذلك بشدة قسوته فى أيامه الأخيرة.

أما الرافعى فقد ذكر روايتين عن الطريقة التى قتل بها، والرواية الأولى ذكرها «أسماعيل باشا سرهنك» فى كتابه (حقائق الأخبار عن دول البحار) والثانية ذكرتها «مدام أولمب إدوار» كما سمعتها فى أوائل عهد اسماعيل ودونتها فى كتابها (كشف الستار عن أسرار مصر)..

روايتان:

●● ويؤخذ من رواية اسماعيل باشا سرهنك أن «عباس» كانت له حاشية من المماليك يصطفيهم ولهم عنده منزلة كبيرة مما جعله يغدق عليهم الرتب العسكرية العالية بدون كفاءة يستحقونها، وكان لهم كبير من خاصة غلمانه يسمى خليل درويش بك وقد أساء معاملة هؤلاء المماليك فاستطالوا عليه بالغمز واللمز، وخاصة لأنه كان صغير السن فاتخذوا من حداثته مغمز الأقاويل فسخط عليهم وشكاهم إلى سيده فأمر بجلدهم وتجريدهم من ملابسهم العسكرية وتسخيرهم للعمل فى اسطبلات الخيول، وتدخل بعض الباشوات للعفو عنهم لدى الوالى فعفا عنهم وأعادهم إلى مناصبهم، فاستأذنوا فى الذهاب إلى الوالى فى قصره ببنها للاعراب عن تشكراتهم وهم يضمرون قتله، واتفقوا مع غلامين كانا يقومان على حراسة فراشه، وفى الليلة المتفق عليها دخلوا

عليه وهو نائم فلما شعر بهم استيقظ وحاول النجاة ولكنهم تكالبوا عليه حتى اخمدوا أنفاسه..

أما رواية «مدام أولمب» فخلاصتها أن الأميرة «نازلى هانم» ابنة محمد على هى التى دبرت مؤامرة اغتياله بعد أن لجأت إلى استانبول واشتريت مملوكين يتمتعان بقسط وافر من الجمال والميوعة، واتفقت معهما على الذهاب إلى مصر، ويعرضان نفسيهما فى سوق العبيد وهى واثقة بأن وكلاء عباس لن يتركوهما. وتم لها مارسمت ودخل الغلامان فى خدمة الأمير بعد أن أعجب بهما وعهد إليهما بحراسته ليلا كعادته، فلما كانت الليلة الموعودة استجمعا شجاعتهما، ولم يكد عباس يستغرق فى النوم حتى انقضا عليه وخنقاه، ولم يدعا له الوقت ليصيح أو يستغيث ثم نزلا من فورهما إلى الاسطبل وطلبا من السايس تجهيز حصانين بزعم أن الباشا يطلب حاجة عاجلة من قصره فى العباسية، ولكنهما اتجها إلى الإسكندرية حيث ركبا على ظهر سفينة إلى الآستانة، وهناك منحتهما الأميرة نازلى مكافأة سخية على انفاذ المؤامرة.

تقول مدام أولمب إن إلهامى باشا - ابن عباس - تعقب الغلامين القاتلين ليثأر لأبيه، فالتقى بأحدهما فى استانبول فقتله رميا بالرصاص من مسدسه، ولم يستطع اللحاق بالثانى ولم يعثر له على أثر وقيل أنه أوى إلى بلاد الأرناؤود فرارا من القتل.

أما مصير الحكم بعد مقتل عباس، فقد أراد بعض أنصاره إخفاء خبر وفاته إلى حين حضور ابنه «إلهامى» من أوربا وإقصاء «سعيد» الذى كان عليه الدور، وكان سعيد مقيما فى الأسكندرية وبعث أنصار عباس

إلى محافظ الأسكندرية ليشترك معهم فى المؤامرة وتولى الأمور فى الثغر، إلا أن المحافظ إسماعيل سليم باشا ـ رفض العرض وذهب من توه إلى سعيد في قصره بالقبارى وأبلغه بنبأ مقتل عباس فركب فورا إلى القاهرة وصعد إلى القلعة وأعلن جلوسه على أريكة مصر..

●●●

من مآثر عباس الأول التى يذكرها الاستاذ الرافعى : أنه لم يفتح على مصر أبواب التدخل الأجنبى، ولم يمد يده إلى الاستدانة منهم، بل ترك خزانة مصر حرة من اثقال الديون الأجنبية إلخ.. ويبدو أن الرافعى لم يطلع على أوراق ووثائق ذلك العصر والتى تؤكد ان عباس حين مات ترك مالية الدولة مدينة بما يقارب مائة مليون فرنك فى الوقت الذى كانت فيه خزانة الدولة خاوية تماما (!!).

سعيد باشا
أول من وضع بذور الثورة العرابية

أنت تعلم أن الثورة العرابية كانت أول انتفاضة مصرية خالصة لتحرير مصر من النفوذ الأجنبي الذى تفاقم فى عصر إسماعيل، واكتسى وجها أوربيا بعد أن كان تركيا شركسيا.. وتعلم أيضا أن الروح الوطنية الناهضة تجسدت فى شخص «أحمد عرابى» الضابط الذى قاد - أولا - حركة التمرد داخل الجيش ضد الشراذم الشركسية المهيمنة على الجيش.. ثم.. قاد - ثانيا - ثورة الشعب والجيش ضد استبداد الخديو توفيق والطبقة الحاكمة التى كانت تحتقر المصريين وتعمل على بقائهم في قعر السلة الاجتماعية.. وماكان عرابى ليصل إلى مركز القيادة العسكرية والشعبية، لولا الاجراء الخطير الذى اتخذه الوالى «سعيد باشا» بالسماح بترقية الجنود المصريين من رتبة «النفر» إلى سلك الضباط.. وشاء القدر أن يكون من هؤلاء المحظوظين «أحمد عرابى» الذى كان أشبه بنواة مصرية في محيط شركسي، فالتفت حولها كل العناصر المهضومة داخل الجيش. وتجسدت فى هذه العصبة المصرية الروح الوطنية المتطلعة إلى العدالة والمساواة حتى حدث الصدام التاريخى فى

وقائع الثورة العرابية.

والسؤال الذى يشغل بال الباحث التاريخى هو: لماذا أقدم سعيد باشا على هذه الخطوة المصيرية التى كان لها أثر بعيد فى حركة التاريخ المصرى فى القرن التاسع عشر، وفتحت الباب أمام الطبقات المصرية المطحونة لتمسك زمام القيادة بعد قرون من الاستعباد والقهر عاشتها مصر تحت حكم الموجات المتتالية من العناصر المملوكية والعثمانية؟ وهل كان نضوج فكرة الوطنية المصرية فى عهد سعيد يعود إلى ميوله العاطفية نحو مصر والمصريين؟ أم كانت نموا طبيعيا لمشروع «التمصير» الذى بدأه أبوه محمد على ببناء دولة عصرية على ضفاف النيل، ولاتكون مجرد ولاية عثمانية تتلقى التعليمات والأوامر من استانبول!!

سعيد يبث روح الوطنية:

بالنسبة للافتراض الأول فالمأثور عن سعيد باشا أنه كان محبا للمصريين كارها للترك. لدرجة أنه كان يتمنى أن يعثر على الشريان الذى ينقل الدم التركى إلى جسمه لكى يستأصله. وكان يجاهر بهذه المشاعر الصريحة غير عابئ بغضب الطبقة التركية المتمكنة من الجيش، والمحتكرة للمناصب العليا. وكان يعمل على تقريب «عرابى» وصحبه وينفخ فيهم روح الوطنية المصرية حتى أنه أهدى إلى عرابى كتابا عن الحملة الفرنسية على مصر وقال له: «أنظر كيف ترك أبناء وطنك - يقصد المصريين - الفرنسيين يضربونهم» ويعترف عرابى بأن هذا الكتاب أقنعه بأن تنظيم الجيش على النسق الحديث مرتبط بقيام

حكم نيابى ودستورى فى البلاد. وكان سعيد باشا يجاهر بعزمه على استقلال مصر عن العثمانية وغير العثمانية. وأن يقوم فيها حكم مصرى صميم. وفى خطبة له ألقاها فى مأدبة عامة قال أن يريد كمصرى أن يربى هذا الشعب ويجعله كفؤا للأستغناء عن مساعدة الأجانب. وكان من شأن هذا الكلام أن يغضب الأمراء والحكام من الأتراك، ولكنه لم يأبه لهم ومضى إلى تصفية العناصر التركية فى وظائف الإدارة الصغرى وإحلال زعماء البدو ومشايخ القرى المصريين مكانهم وأمر بأن يكون ثلث الموظفين الذين يتولون عمل نظار الأقسام (المآمير) من المصريين وفى عهد سعيد باشا تم تعيين أول مصرى فى منصب محافظ الجيزة وبلغت به الحماسة فى تمصير الوظائف أنه كان يجمع الموظفين المصريين ليحثهم على المثابرة والجلد، ويهددهم بعقوبات شديدة إذا لم يحققوا النجاح المنشود. ولاننسى أن سعيد باشا هو الذى جعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية بدلا من التركية. وهو الذى زرع بيده أول طبقة من الضباط المصريين داخل الجيش. وبدأ بتجنيد أبناء مشايخ القرى الذين كانوا يتمتعون بالأعفاء من الخدمة العسكرية ثم ترقيتهم إلى سلك الضباط وفى ذلك يقول عرابى فى مذكراته:

«وكان والدى شيخا على قرية هرية رزنة وكان عالما فاضلا تقيا أقام بالجامع الأزهر عشرين سنة تلقى فيها الفقه والحديث والتفسير، فلما بلغت سنى أربع سنوات أرسلنى إلى مكتب تحفيظ القرآن حتى ختمت القرآن الكريم وعمرى آنذاك ثمانى سنوات وبضعة شهور، ثم بدت لى المجاورة فى الأزهر حتى بلغت إثنى عشر عاما، وبعد سنتين رجعت

إلى بلدى، وكان سعيد باشا قد أمر بدخول أولاد مشايخ البلاد وأقاربهم فى العسكرية فدخلت ضمنهم».

وترقى عرابى من تحت السلاح إلى رتبة ملازم ثان ثم ملازم أول ثم يوزباشى ثم صاغ ثم بكباشى ثم قائمقام إلى أن جرفته أحداث الثورة.

بذور التمصير فى عهد محمد على:

ولكن بعض المؤرخين يرى أن الأهواء والأمزجة الشخصية لاتكفى لتفسير الأحداث التاريخية الهامة. ومن ثم لم تكن حماسة سعيد باشا للوطنية المصرية ترجع إلى أسباب عاطفية، وإنما هى نمو طبيعى لمشروع التمصير الذى أرسى بذرته محمد على. فبدأه بالقضاء على تشتيت السلطة وتركزت مقاليدها فى يد الدولة المتجسدة فى الباشا ذاته، ورغم الصعاب التى تعرض لها المصريون من جراء نظامه الاقتصادى المعروف باسم «الاحتكار» فإن هذا الاحتكار زوده بالأموال اللازمة لشتى مشروعاته التى ارتبطت فى مجموعها بإنشاء الجيش الجديد، فقد أهتم محمد على بالتعليم الذى هدف إلى إعداد الكوادر اللازمة للجيش: من مهندسين وأطباء وضباط، كما جند المصريين للمرة الأولى منذ قرون، وأصبحوا يشكلون معظم الجنود العاملين بعد أن درج حكام البلاد، منذ تدهور الامبراطورية الفرعونية على تجنيد الأجانب بحجة أن المصرى غير صالح للجندية، كما عرفت مصر فى عهد محمد على نوعا جديدا من التعليم كان مرتبطا بالجيش فى المحل الأول، وأرسلت البعوث إلى أوروبا، واستقدم الفنيون الأوروبيون إلى مصر، وترجمت الكتب فى الوقت الذى أمكن فيه فك طلاسم اللغة الهيروغليفية، ونشأ

فيه علم المصريات القديمة الذى كشف للمصريين وللعالم أجمع حقيقة الحضارة التى قامت واستمرت على ضفاف النيل آلاف السنين، وأدى كل ذلك إلى شعور المصريين بالانتساب إلى وطن له كيانه الخاص وتاريخه الخاص، وبدأ إزدهار الثقافة، واستقر الأمن والنظام فى عهد محمد على بسبب صرامته، وقوة الحكومة، وترتب على هذا كله: نمو الشعور بالوطنية المصرية الذى ما لبث أن عبر عنه أشخاص مبرزون فى مجال الأدب والمعمار والفنون العسكرية والهندسة والفلك والطب وغير ذلك وهذا النشاط الذى شهده عصر محمد على هو الذى أوجد الطبقة الوسطى المصرية فى مجال التعليم والإدارة وليس الاقتصاد الذى احتكرته الدولة - حقيقة أن محمد على اعتبر المصريين غير أكفاء لتولى المناصب الإدارية الكبرى، إلا أنه استعان بهم فى وظائف الإدارة الصغرى، وبقيت المناصب العسكرية والإدارية الكبرى فى أيدى الأتراك والشراكسة فى المحل الأول ثم فى أيدى الأرمن والأوروبيين، ورغم أن كل موظفى الدولة الذين كانوا يشغلون الرتب الأعلى من رتبة شيخ البلد خلال الربع الأول من القرن التاسع عشر، كانوا من الارستقراطية - التركية الشركسية، فإن محمد على حاول إحلال مشايخ القرى والبدو المصريين محل الأتراك وإن لم تصب التجربة نجاحاً كبيراً.

●● أما فى مجال التعليم فقد خشى محمد على أن يصطدم بمشايخ الأزهر، ومن ورائهم الشعور الدينى الذى كان باستطاعة المشايخ تحريكه، لهذا أوجد التعليم الحديث المنفصل عن الأزهر، مما أوجد ازدواجية فى المجال الثقافى، وبمرور الوقت ازدادت أهمية المثقفين الجدد الذين أفادوا من «علمنة» أجهزة الدولة، وبخاصة إثر ازدياد

المؤثرات الأوروبية. إما تمشيا مع رغبات الولاة من أبناء أسرة محمد علي، أو بفعل تدفق الجاليات الأوروبية وزحف القوانين والمؤسسات الاقتصادية الأوروبية، والمثقفون الجدد المتصلون بالثقافة الأوروبية هم الذين بشروا بالوطنية ونقلوا ألوانا من الفكر الأوروبي الذي كان يموج بشتى التيارات خلال القرن التاسع عشر، في الوقت الذي كان لا يزال للفكر الإسلامي وزنه، وبخاصة في دوائر رجال الدين والطرق الصوفية، وإن كانت أهمية هذه الفئات كانت تسير في طريق الاضمحلال التدريجي بفعل إزدياد سلطة الحكومة من جهة، والتغيرات التي طرأت على المجتمع المصري منذ عصر محمد علي.

وهكذا أنشأ محمد علي الجيش الذي ثار على الشراكسة في أوائل الثمانينات، وشن حروب الشام التي بعثت النعرة المصرية خاصة ابنه إبراهيم غذى بنداءته وتصريحاته الاتجاه إلى التمرد السافر على الامبراطورية العثمانية التي كانت لا تزال لها هيبتها باعتبارها أقوى الدول الإسلامية، وكان البعض لا يزالون يعتبرونها دولة الخلافة. ثم جاء سعيد لينفخ في المصريين الروح الوطنية التي كان لها أثرها لدى عرابي.

(من دراسة للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى ضمن كتاب مصر للمصريين).

مخاوف الترك من تجنيد المصريين:

●● وأنت ترى من هذا أن فكرة الوطنية المصرية التي تعني الاستقلال السياسي والعسكرية، إنما غرست بذورها في التراب

المصرى على يد محمد على، ثم والاها ابنه سعيد بالرعاية حتى آتت أكلها فى عهد اسماعيل، ثم تفجرت بالثورة فى عصر توفيق. وكانت أداة محمد على لتحقيق هذا الحلم الكبير: إنشاء الجيش المصرى القادر على إخراج مشروعه من عالم الأحلام إلى دنيا الحقيقة. وقد أقدم محمد على على هذه الخطوة الجريئة - تجنيد المصريين - على خلاف كافة الحكام الذين سبقوه منذ سقوط آخر دولة فرعونية قبل مقدم الاسكندر الأكبر إلى مصر بسنوات معدودة، فكانت الوصية السحرية التى يتوارثها هؤلاء الحكام هى: إبعاد المصريين عن الجيش حتى لا يستخدموا السلاح فى تحرير بلادهم من الأجانب، وكانت هذه الهواجس تنتاب القادة الترك المحيطين بمحمد على عندما علموا بعزمه على تجنيد المصريين، وصارحوه بمخاوفهم من الإقدام على هذه الخطوة التى لا تحمد عقباها، ولكنه طمأن خواطرهم بأن تجنيد المصريين سيقتصر على مستوى (الأنفار) أى الجنود فقط، أما رتب الضباط والقادة فستبقى حكرا على الأتراك ومن معهم من الشركس والألبان والأكراد وكل الفئات التى ورثت الامتيازات من المماليك.

لم يأبه محمد على بتحذيرات هذه الفئات الممتازة، لأنه كان يدرك مراميهم الحقيقية وهى إبقاء الامتيازات لهم مثلما كان الحال فى العصر العثمانى وقبله العصر المملوكى. وكان يرى فى وجودهم عقبة فى طريق مشروعه الكبير، وهو بناء مصر الحديثة، وكان محمد على على استعداد للإطاحة بأى عقبة تقف فى سبيل هذا المشروع، بدليل أنه ذبح المماليك فى القلعة، واستأصل جذورهم من التربة المصرية، ولم يكن من المعقول أن يفعل نفس الشىء مع هؤلاء المحيطين به والذين

ساعدوه على الانفراد بالسلطة، ولكنه لجأ إلى أسلوب آخر وهو خلق نواة لطبقة مصرية تأخذ مكانها الطبيعي عن طريقين:

- إتاحة الفرصة أمام المصريين لتملك الأراضي الزراعية.
- إتاحة الفرصة أمام المصريين للدخول في الجيش.

بالنسبة للموضوع الأول اصطنع محمد على طبقة ارستقراطية زراعية لها حق التوريث في الأبعديات والشفالك التي أنعم بها عليهم كمكافأة عن الحروب التي خاضوها ثم مضى إلى خطوة أبعد فأعطاهم حق الملكية المطلقة وكافة التصرفات الشرعية، فكان ذلك ميلاد الطبقة البورجوازية المصرية الجديدة التي قدر لها أن تقود الحركة الوطنية في مصر لمدة قرن حتى قيام ثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢.

وبالنسبة للجيش: استبعد محمد على تجنيد العناصر الهمجية التي كانت موجودة في مصر، وكانت أقرب إلى قطاع الطرق منها إلى العسكرية المنتظمة وأدرك أنها غير صالحة للخضوع لأساليب التربية العسكرية الحديثة، كما فشل مشروع تجنيد السودانيين، وكانت خطوته التالية بتجنيد المصريين.. وبهاتين الخطوتين وضع محمد على اللبنة الأولى في مشروع التمصير.. فلما جاء ابنه سعيد مضى في هذين السبيلين إلى ما هو أبعد. وهو إعطاء المصريين حق تملك الأراضي الزراعية والاستمتاع بنفس الحقوق التي كانت تتمتع بها الأرستقراطية التركية في عهد أبيه. مما أدى إلى بزوغ طبقة كبار الملاك الذين سوف يشتد ساعدهم في عهد إسماعيل ويتحملون عبء المواجهة ضد الأوروبيين عند اشتداد الأزمة المالية، وهم الذين سوف تتكون منهم

المجالس النيابية التي عرفتها مصر بدءا من سنة ١٨٦٦ . أما عن الجيش فقد قفز سعيد إلى خطوة أبعد من خطوة أبيه وهي السماح بترقية الجنود المصريين إلى سلك الضباط. وكأنما فتح بيده الباب لتدخل منه الثورة العرابية.

من أجل جمال عيون فرنسا

من الجائز أن تجامل صديقك فى أفراحه فترسل اليه «بوكيه» ورد أو بطاقة تهنئة، ومن الواجب أن تجامله فى أحزانه وأزماته بعبارات تنم عن المشاركة الوجدانية، أما أن تجامله بإرسال الجيش ليحارب معه فى بلاد بعيدة، فهذا أغرب أنواع المجاملة التى سجلها تاريخ مصر الحديث، عندما بعث الوالى «سعيد باشا» بكتيبة من الجيش المصرى لتخوض حربا مع المكسيك مجاملة لامبراطور فرنسا «نابليون الثالث» وفاء لروابط الصداقة بينهما (!!) ثم رأينا تبعات هذه الصداقة تمتد الى الخديو اسماعيل فجعلته يحتكم الى هذا الامبراطور فى النزاع الذى نشب بين الحكومة المصرية، وشركة قناة السويس حول الامتيازات المجحفة التى تضمنها عقد تأسيس الشركة، وغاب عن العاهل المصرى أن الخصم لا يكون حكما عادلا، وأن مصالح الدول الاستعمارية لا تعترف بالصداقات الشخصية، فجاء حكم الامبراطور وبالا على الحقوق المصرية، وانحيازا إلى المصالح الفرنسية (!!) .

كان سعيد - ومن بعده اسماعيل - يثقان ثقة عمياء فى نزاهة ملوك أوروبا، وفرنسا بالذات، على عكس مؤسس الأسرة العلوية محمد على الذى كان شديد الحذر من ناحية الأطماع الأوروبية، ولم يكن يحسن الظن بهم، ولا يسمح لهم بالتغلغل فى شئون البلاد تحت ستار المشروعات والمصالح المشتركة وعمل على حماية الاستقلال الوطنى من الوقوع فى براثن النفوذ الأوروبى، فرفض بشدة مشروع شق قناة السويس حين عرضه عليه «فرديناند «دليسبس» وأتباع الفيلسوف الفرنسى «سان سيمون» الذين سيطرت عليهم، الى حد الهوس، فكرة ربط القارات بالقنوات الملاحية، واستبدل بمشروع القناة بناء القناطر الخيرية لتنظيم الرى الدائم وزيادة الثروة الزراعية، وإن كان الموقف الرافض للهيمنة الأوروبية لم يمنع محمد على من اقتباس أساليب النهضة الأوربية فى تأسيس مشروعه الكبير، فبعث البعثات الى هناك، واستقدم العلماء والخبراء الى مصر، ليعملوا تحت عينه الثاقبة، ورقابته الصارمة، ومضى وزيثه عباس الأول على هديه فى مقاومة النفوذ الأوروبى، وإذا كان عهد عباس يتميز بالجهالة والتخلف والرجعية، إلا أن استمساكه بالاستقلال الوطنى هو الحسنة الوحيدة التى تذكر له، فسلم البلاد، بعد أربع سنوات شداد الى من جاء بعده، وهى خالية من النفوذ الأجنبى.

بلاهة الوالى سعيد :

فلما كان عصر سعيد. نجح «دليسبس» فيما فشل فيه أيام أبيه، واستغل ضعف شخصية الوالى الجديد وانبهاره الشديد بالحضارة الفرنسية،

وصداقته الحميمة مع الامبراطور نابليون الثالث، في الحصول على امتياز شق قناة السويس وإبرام عقد يلزم الحكومة المصرية بأعباء فادحة، ولم يتريث سعيد في دراسة بنود العقد وتمحيص ما يحتويه من مظالم، وأسرع بتوقيع العقد ثقة منه في سلامة النوايا الفرنسية، ثم بلغت به البلاهة – وليس النخوة – أن استجاب لمطلب صديقه الامبراطور نابليون الثالث بإرسال كتيبة من الجيش المصري لتحارب الى جانب القوات الفرنسي في المكسيك(!!) .

كان نابليون الثالث يحلم بإقامة امبراطورية فرنسية في العالم الجديد، فانتهز فرصة قيام ثورة في المكسيك ضد نظامها الجمهوري وعمل على إذكاء نارها، وحاول تحريض انجلترا وأسبانيا لتدخل بحجة حماية الرعايا الأوروبيين، فلم تأبه الدولتان لتحريضه، فتحمل وحده مسئولية التدخل، بعث بقوات فرنسية تعرضت لهزائم متوالية، فلما تحرج موقفه لم يجد من ينقذه من ورطته سوى صديقه الحميم سعيد باشا، وأبت شهامة الوالي المصري أن يعتذر لصديقه بأن من غير المنطقي أن يذهب الجيش المصري ليحارب في بلاد لا تربطها بمصر صداقة أو عداء من بعيد أو من قريب، وإنما استجاب للاعتبارات الشخصية وقام بتجهيز كتيبة قوامها ١٢٠٠ جندي وضابط تحت قيادة البكباشي السوداني خيرةالله محمد، وأبحرت الكتيبة الى المكسيك في عام ١٨٦٣ وخاضت المعارك التي فرضت عليها في شجاعة تحسد عليها حتى أن القائد الفرنسي وصف أفرادها بأنهم أسود وليسوا جنودا، وبعد أربع سنوات من الحرب اليائسة كانت الكتيبة قد فقدت معظم

أفرادها بمن فيهم قائدها، ولم يبق منهم سوى ٣٠٠ جندى عادوا الى باريس في صحبة الجيش الفرنسي المهزوم، فاستعرضها الامبراطور وأشاد بشجاعة أفرادها وخلع عليهم الأوسمة، وبعد وصولهم الى الاسكندرية استعرضهم الخديو اسماعيل – بعد وفاة سعيد – في قصر رأس التين وأمر بترقية بعض رجالها اعترافا بشجاعتهم.

ولم تكن حملة المكسيك هي الوصمة الوحيدة التي دمغت عهد سعيد بالخضوع للنفوذ الأوروبي، فهو أول من مد يده بالاستدانة من البنوك الأوروبية، ومهد الطريق الوعر أمام خليفته اسماعيل فمضى فيه الى النهاية التي أطاحت به، وهوت بمصر الى مستنقع الاحتلال. وفي ذلك يقول مؤلف كتاب (تاريخ مصر المالي) وهو خبير أوروبي: وإلى سعيد باشا يرجع الفضل التعس في عقده أول قرض اقترضته مصر من أوروبا، وخرج على سياسة أبيه محمد علي وأخيه ابراهيم باشا اللذين استطاعا أن ينهضا بالبلاد، ويجاهد في سبيل استقلالها ذلك الجهاد الذي كلل بالنصر دون أن يكون لديهما من الموارد المالية سوى ميزانية لا تتجاوز خمسين مليون فرنك. وقد أورد المؤرخ إلياس الأيوبي معلومة لم أعثر عليها عند غيره، وهي أن سعيد باشا قدم الى صديقه دليسبس – عند بدء المشروع – كل المتوافر عنده من المال، وقدره خمسمائة ألف ريال، وتحمل على نفقته الخاصة تكاليف حفر ترعة المياه العذبة التي قامت الشركة بإنشائها بأيدي المصريين، حتى إذا فشلت الشركة في تسويق الأسهم الباقية المعروضة للبيع، أخذت الشهامة سعيد باشا فاشترى الأسهم وأنقذ الشركة من إخفاق محتم، وأنه ولولا وقوف سعيد

باشا، بجهده وماله وسلطانه - الى جانب صديقه الحميم، لما رأى المشروع النور، وتكشفت خبايا المشروع وما فيه من افتئات على الحقوق المصرية، وبعد أن انهالت أصوات النقد والملام على سعيد باشا لتفريطه في مصالح البلاد، لم يسع سعيد إلا أن يعترف بخطئه وتسرعه في توقيع عقد الامتياز، بلا ترو لصديق، وهو فرنساوى، فخاطبوه.. أو خاطبوا حكومته.. أما أنافلست أستطيع سحب امتياز أعطيته (!!).

ويعزو المؤرخ عبد الرحمن الرافعي خضوع سعيد باشا للنفوذ الأوربى إلى ضعف شخصيته، وانبهاره بالأوروبيين وشدة ركونة إليهم، وميوله الفرنسية التى جعلته ينصاع لتأثيرات «دليسبس» وأضرابه، حتى أخذ الأجانب يبسطون أيديهم على مرافق البلاد، ويستطيلون على الحكومة وسيادتها، ويشمخون بأنوفهم، وصار للقناصل والجاليات الأوروبية نفوذ لم يكن لهم من قبل في عهود محمد على وإبراهيم وعباس الأول.

وإذا كان القرض الذى استدانه سعيد (وهو أحد عشر مليون جنيه) يتواضع بالقياس إلى القروض الفادحة التى اقترضها اسماعيل، فإن درجة خضوع سعيد للنفوذ الأوربى تهون بالمقارنة إلى ما ارتكبه إسماعيل. إسماعيل. فقد فتح البلاد على مصاريعها أمام المرابين والأفاقين والمغامرين من حثالات الدول الأوربية، وجعل منهم بطانته وخاصته وأصحاب الرأى والمشورة.. وانتهت سياسته الخرقاء إلى تطويق البلاد بسلاسل النفوذ الأوربى، وانهيار صرح الاستقلال السياسى والاقتصادى الذى كسبته مصر في عهد محمد على.

الخصم والحكم:

كان إسماعيل أوربي النزعة، مما جعله يثق في ساستها ورجال المال فيها، ويعتقد فيهم حسن النية، ولم يفطن إلى مطامعهم الاستعمارية، وبلغت به السذاجة أن لجأ إلى صديقه الامبراطور نابليون الثالث ليكون حكما في النزاع بينه وبين شركة قناة السويس حول الامتيازات الظالمة التي نص عليها العقد في عهد سلفه سعيد باشا، وقد شعر إسماعيل – في بداية حكمه – بفظاعة الالتزامات التي كبلت مصر بأعباء جسيمة، فأزمع إلغاءها إنطلاقا من الشعار الذي أعلنه بأن «تكون القناة ملكا لمصر، لا أن تكون مصر ملكا للقناة» فاعترض على البنود التي تلزم الحكومة المصرية بتقديم عشرين ألف عامل لحفر القناة بالسخرة، وتفرض على مصر أن تدفع للشركة تعويضات في حالة تقصيرها عن توفير هذا العدد، واعترض على إعطاء الشركة حق تملك جميع الأراضي الواقعة على ضفتي القناة وإعفائها من الضرائب.. إلخ.

ورفضت الشركة الفرنسية التنازل عن هذه الامتيازات، وحرضت الصحف الفرنسية على شن حملة ضد حكومة مصر، وتعضيد حق الشركة في هذه المكتسبات، وكان من الطبيعي أن ينحاز الرأى العام الفرنسي إلى جانب مصالحه الاستعمارية ومن خلفه دوائر المال والبنوك والحكومة.. فماذا يعمل خديو مصر إزاء هذا التكتل الاستعماري؟؟ لجأ إلى صديقه الحميم نابليون الثالث ليكون حكما في النزاع دون أن يدرك بأن امبراطور فرنسا لايمكن أن يتخذ موقفا محايدا يعارض المصالح الاستعمارية لبلاده، وتجاهل إسماعيل الحقيقة البديهية بأن

الخصم لا يمكن أن يكون حكما عادلا .. وأن سياسات الدول الاستعمارية لاتعرف الصداقة الشخصية، وأن امبراطور فرنسا لا يستطيع إلا أن يحابى سياسة بلاده مهما كانت درجة المحبة مع خديو مصر، واستخدم «دليسبس» كل أسلحته لاحباط مسعى إسماعيل بما فيها سلاح المرأة، وهى فى هذه الحالة الامبراطورة «أوجينى» التى كانت تربطها بدليسبس قرابة عائلية، فلجأ إليها للتأثير على زوجها الذى ارتضاه الخذيو حكماً.

الحكم الجائر:

وفى عام ١٨٦٤ أصدر الامبراطور حكمه ويقضى بإلزام الحكومة المصرية دفع تعويضات باهظة إلى الشركة الفرنسية مقابل تعديل بعض بنود العقد، وبلغت هذه التعويضات ٨٤ مليون فرنك (ثلاثة ملايين و٣٦٠ألف جنيه مصرى). وإذا علمت أن كل رأس مال الشركة هو ثمانية ملايين جنيه، أمكنك أن تقدر فداحة التعويضات التى حكم بها الامبراطور، وانها تقارب نصف رأس مال الشركة. ويصف الرافعى هذا الحكم بأنه من الأحكام الجائزة فى التاريخ، لأنه بنى على أسباب لا يسيغها عدل أو منطق، وإنما هو حكم قضت به «عدالة» نابليون الثالث، وخرجت مصر من هذا التحكيم بصفقة المغبون، واعتبرت الشركة حكم الامبراطور فوزا مبينا كفل لها إتمام المشروع على حساب مصر، ولو أن إسماعيل استمسك بشروطه ولم يقبل تحكيما، لما استطاعت الشركة أن تخطو خطوة فى العمل إذ كان كل شىء معلقا على الأيدى العاملة المصرية، ولولاها لوقف المشروع وقضى عليه بالفشل دون أن تحرك

مصر ساكنا، ولكن شاء حظ مصر العاثر أن يركن إسماعيل إلى «العدالة الأوربية» فوقع عليها الظلم والاعتساف.

ربة السحر والجمال:

أما مؤرخ عصر إسماعيل - إلياس الأيوبى - فيرى فى هذا الحكم نصرا للخديو على الشركة، بزعم أن اسماعيل حقق به تحرير البلاد من قيد كانت مغلولة به، وله فى ذلك حجج وتبريرات طويلة، إلا أن هذا الحكم الجائز - من وجهة النظر الوطنية - لم يوهن علاقة المودة بين الخديو والامبراطور، وانما زادت قوة ورسوخا، حتى أن إسماعيل عندما أقام الاحتفلات الأسطورية، بافتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ ذهب بنفسه إلى فرنسا لدعوة الامبراطور وزوجته أو جينى، وأناب نابليون زوجته لحضور الاحتفالات، فلما جاءت اهتز لها عرش الخديو ووضعها على رأس الجمع الحاشد من ملوك وأمراء أوربا، وبدت فى نظر مؤرخى ذلك العصر كأنها إلهة الجمال والسحر والجلال، أو كأنها بين وصيفاتها فى هذا الجو المخملى، أشبه بكليوباترا وهى تصعد مياه نهر السندس لتقابل مارك أنطونيو. وبلغ من انبهار الناس بها أن قال الأيوبى: من يدرينى أن تلك الامبراطورة الجميلة الأندلسية المولد والنشأة، قد تكون سليلة بيت عربى رفيع العماد، أو فرع دوحة ملكية أظلتها سماء «الحمراء» الشعرية فى غرناطة، مسقط رأس تلك الامبراطورة الجميلة، ومنبت صباها (!!).

لقد أنفق الخديو إسماعيل القناطير المقنطرة من الذهب والفضة على هذه الاحتفالات، كى يبدو أمام ملوك أوروبا بمظهر الثراء الباذخ،

وكانوا جميعا يعرفون ان إسماعيل ابتز هذه الأموال من عرق الشعب الكادح ليقدم أطايب الطعام، وأثمن ألوان الشراب، حتى أن فرنسيا شرها قال بعد أن أتى على كل محتويات مائدت: لقد أكلت ثروة ثلاثة فلاحين مصريين (!!).

والأكثر دهشة أن عدالة السماء انتقمت من كل هولاء الذين أكلو ثروة الفلاحين المصريين وحشوا بها بطونهم، وأصابتهم اللعنة بعد عودتهم إلى ديارهم، ولم تمض بضعة شهور حتى كانت ألمانيا قد أعلنت الحرب على فرنسا (حرب السبعين) وهزمتها هزيمة منكرة.. هوت بسمعتها إلى الحضيض، وإذا بالأمير الألماني الذى كان يراقص أوجيني في قصر الجزيرة ويبادلها عبارات المجاملة الكاذبة، يطيح بعرش زوجها الامبراطور نابليون الثالث، أما «أوجيني» التى بدت كأميرة الأحلام فى مصر، فقد هوت من عالق العز، وزال عنها جمالها، وذبلت فتنتها التى سحرت عاهل مصر، وإذا بها تنجو بحياتها على سطح قطار حملها إلى إنجلترا، وهبطت إلى محطة لندن وهى معفرة الثياب والوجه وليس معها إلا القليل من المال والمتاع، وذابت فى زحام العاصمة اللدود أن يشعر بها أحد، وعاشت فى عزلتها الباردة وهى تعانى آلام الشيخوخة حتى هزمها الموت.

تطور الحياة البرلمانية
فى مصر

مجلس شورى النواب

عرفت مصر الحياة النيابية لأول مرة في تاريخها الحديث في شكل «مجلس شورى النواب» الذي أقيم عام ١٨٦٦ بإيعاز أو بإيماء من الخديو إسماعيل. ولم يكن لهذا المجلس سلطات برلمانية كما هو الحال في النظم الديمقراطية العريقة مثل: تقديم الأسئلة والاستجوابات وسحب الثقة من الحكومة، ولم تكن له صلاحيات دستورية لأنه لم يكن في مصر دستور يفصل بين السلطات، ويحدد صلة كل منها بالآخر، ومع ذلك يبقى لهذا المجلس شرف البداية، ولايعيبه أن هذه البداية كانت متواضعة، فكل الكائنات الحية كانت في نشأتها مجرد نطفة أو جنين ضعيف ثم لايلبث الوليد أن يستوى خلقا شديد المراس. وقد جرت على هذا المجلس سنة التطور الطبيعي، وتوفرت له عناصر الاكتمال والنضوج من خلال المحن والكوارث التي تعرضت لها مصر في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. وكانت أشدها محنة الاحتلال البريطاني الذي دأب على إجهاض أي محاولة القيام حياة نيابية كاملة، والحيلولة دون أن يملك الشعب المصري زمام أمره، وقد

يبدو غريبا أن يحدث ذلك على يد بريطانيا العظمى - أم الديمقراطية ولكن تزول الغرابة إذا تذكرنا أن الدول الاستعمارية ترى فى الديمقراطية صناعة أوروبية خالصة مقصورة على الشعوب البيضاء، ولايجوز تصديرها إلى دول المستعمرات (!!).

لماذا فكر إسماعيل فى إنشاء هذه المؤسسة النيابية التى يفترض أن تنتقص من سلطانه المطلق؟ وتحد من هيمنته على كل مقدرات البلاد؟

لاشك أن إسماعيل، وهو يوقع فرمان إنشاء مجلس شورى النواب، فعل ذلك ضمن مشروعه الكبير لتحديث مصر، واقتباس مظاهر الحضارة الأوروبية، لقد أقام مدارس البنات، ونشر التعليم، وشاد القصور والأوبرا ودار الكتب.. فلماذا لايستكمل معروضات «الفترينة» الحضارية بهذا المجلس الذى صنعه على عينه، وخلقه بيده، وحدد له الاختصاصات الضئيلة التى لاتتجاوز مناقشة الموضوعات التى تحيلها إليه الحكومة، أو الاقتراحات التى يتقدم بها النواب.. ثم .. لاشىء بعد ذلك .. فليس للمجلس أن يمارس أبسط حقوق المجالس النيابية مذ نشأتها وهو: مناقشة الميزانية العامة للبلاد ومعرفة مصير الأموال التى يقدمها دافعو الضرائب (!!).

ليس لنا أن نلوم إسماعيل على بخله فى منح المجلس سلطات فعلية، فالمجلس جاء «منحة» من ولى النعم، وليس استجابة لمطلب الشعب، وفى مثل هذه المنح والأعطيات لايليق بالمتلقى أن يحدد شكل الأعطية ونوعها وحجمها، وإنما عليه أن يظهر مشاعر الامتنان والتشكرات لكل ما جادت به الإرادة السنية (!!) وهو ما فعله أعضاء المجلس حيث

أسرفوا في تمجيد وتقديس الذات الخديوية إلى حد العبودية أثناء ردهم على خطب العرش (!!) ولابد أن نلتمس لهم العذر، لأن النظام السياسى كان استمرارا للحكم المطلق الذى فرضه محمد على منذ تنكر للإرادة الشعبية التى أختارته وأجلسته على الأريكة المصرية رغم أنف السلطان العثمانى، فإذا جاء حفيد محمد على ليفتح هذه النافذة الصغيرة لينفذ منها شعاع ضئيل من نور الديمقراطية، فلابد أن يقابل عمله بالامتنان دونما إسفاف أو إسراف فى العبودية(!!).

ديكور للتجميل:

لم يكن إسماعيل يتمنى أن يصنع مجلسا يشاركه الحكم أو يشكل قيدا على حريته المطلقة، وإنما كان أقصى ما يبتغيه أن يقيم بناء شكليا أو «ديكورا» يجمل صورته أمام ملوك أوروبا، فيظهر لهم فى شكل العاهل المتحضر الذى لايقل عنهم فى الأبهة والمدنية، ولكن.. لم تمض بضع سنين حتى تطورت الأمور على غير ماكان يقصد إسماعيل، وإذا بالأعضاء الذين أريد لهم القيام بتمثيل دور «النواب» قد اندمجوا فى أدوارهم، ونزعوا أقنعة «التمثيل»، وامتلكوا زمام المبادرة، وفرضوا أنفسهم على الحياة السياسية، وصاروا شركاء فى تقرير مصير البلاد بعد أن تدهورت الحالة المالية، وبعد أن غرق إسماعيل فى مستنقع الديون، وأوشكت مصر أن تغرق معه فى هاوية ليس لها قرار، وبات استقلالها مهددا، والدول الأوروبية تتربص بها وتتلمظ، عندئذ تحمل هؤلاء النواب المسئولية، وتقدموا الصفوف ليدرأوا عن مصر شبح الاحتلال. ولكن باءت جهودهم بالفشل بسبب وطأة النفوذ الأجنبى، وسلبية السلطان

العثماني، وتخاذل الأريكة الخديوية. وسوف يذكر التاريخ للحياة النيابية الوليدة أنها شبت عن الطوق، ومرت بأطوار النمو والارتقاء، واستخلصت حقوقها البرلمانية بأظافرها، وانتزعت سلطاتها من براثن أحفاد محمد على الذين جبلوا على الاستبداد والطغيان.

شريك مخالف:

هل كان إسماعيل ، وهو يضع لبنات مجلس شورى النواب، يتوقع أن ينقلب «الهزار» إلى «جد»؟ وأن يتحول هذا المجلس الضعيف المسالم إلى شريك مخالف شرس؟ وأن يصيح أحدهم في وجه الطاغية حين أراد فض المجلس دون النظر في الميزانية: أننا هنا سلطة الأمة.. ولن نخرج من هنا إلا بقوة الحراب (!!) قالها عبدالسلام المويلحي في صباح يوم الخميس ٢٧ مارس ١٨٧٩م عندما توجه رياض باشا - وزير الداخلية ورمز الاستبداد - وهو منتفخ الصدر إلى قاعة مجلس النواب بالقلعة ليتلو قرار فض الدورة، حتى تكتمل المؤامرة التي دبرها رئيس الوزراء نوبار باشا مع الوزيرين الدخيلين - الإنجليزي والفرنسي - لإعلان إفلاس مصر كحل أخير لأزمة الديون الأجنبية، وعلمت العناصر الوطنية في المجلس بما تدبره الحكومة في الخفاء، فأعدوا مشروعا مضادا، يقضي بأن يلتزم المصريون بتسديد الديون من دخلهم القومي بشرط تنظيم الشئون المالية، وإصلاح مفاسد الإدارة بعيدا عن الوزيرين الأجنبيين، وشعرت الحكومة بما تعده المعارضة الوطنية، فبيتت النية على إجهاض المشروع الوطني، والتمهيد لإعلان إفلاس مصر، واستصدرت مرسوما خديويا بفض المجلس قبل موعده، وما كاد

رياض باشا يفرغ من تلاوة قرار فض الدورة حتى انبرى له النائب الجرىء عبدالسلام المويلحى (وتذكر هذا الاسم جيداً فسوف نلتقى به كثيراً فى تلك الأحداث الجسام) وقال للباشا رياض: كيف ينفض المجلس وهو ينظر بعد فى القانون الخاص بالشئون المالية؟ إن الأهالى قد أنابوا عن أنفسهم نواباً للمحاماة - يقصد الدفاع - عن حقوقهم، فمن الواجب أن يعرض جميع ما يتعلق بالأهالى على نوابهم لينظروا فيه ويتدبروه ومن المستحيل أن ينفض المجلس (!!).

وبهت رياض باشا لهذه اللهجة التى لم يتعود سماعها من مصرى ينتمى أبوه إلى فئة التجار، فقال مستنكراً: ماذا تقول حضرتكم؟ مستحيل فض المجلس؟ كيف يكون فض المجلس مستحيلاً بعد أمر خديوينا المعظم.. هل حضرتكم فاهم قيمة مسئولية ما تقوله؟ واتجه رياض إلى بقية الأعضاء لتخويفهم حتى لاينضموا إلى النائب الجرىء، وقال لهم: ما أظن حضرات إخوانك يوافقون على ما تقول ..! وكانت المفاجأة أن اندفع الأعضاء الوطنيون لشد أزر زميلهم وأعلنوا تضامنهم معه فى كل ما يقول .. وهم رياض باشا بالنهوض إيذاناً بإنهاء الجلسة، عندئذ صاح عبدالسلام المويلحى فى وجهه: إننا هنا سلطة الأمة .. ولن نخرج من هنا إلا بقوة الحراب (!!) عندئذ وجم رياض لدى سماعه هذه العبارة التاريخية التى أعادت إلى الأذهان أحداث الثورة الفرنسية، لقد قالها «ميرابو» فى وجه مندوبى الملك لويس السادس عشر حين اقتحموا مجلس طبقات الأمة لطرد النواب قبل مناقشة القضايا التى كانت بين أيديهم، وصارت هذه العبارة الفتيل الذى أشعل الثورة .. وتداعت الذكريات فى رأس رياض وهو يسمع نفس العبارة بلسان مصرى

مبين، فعاد إلى مقعده صائحا: يعنى حضرتكم تقلدون نواب فرنسا الذين ثاروا على حكومتهم؟ يعنى حضراتكم الآن.. بعمائمكم وجببكم مثل نواب أوروبا وأمريكا ؟؟ ورد النواب الإهانة بعشرة أمثالها، وصاح أحمد العويسى: يا باشا أنت الآن تشتم نواب أمتك التى تعطيك أنت وغيرك مرتباتكم الشهرية، وقال عبد الشهيد بطرس: إن كلامك هذا وقاحة والمجلس لايقبل هذه الوقاحة من ناظر الداخلية بل يردها عليه، وقال أحمد الصوفانى: أوافق العضو على رد الاهانة للناظر حتى يعلم أن فى البلاد أمة حية، ولها نواب يدافعون عن كرامتها، وهنا قال عبدالسلام المويلحى: أسمعت يا باشا...؟؟! أرايت عاقبة تسرعك فى الكلام..؟ اعلم أن المسألة ليست مسألة زى وثياب.. بل مسألة نواب لهم عقول تفهم جيدا رغبات الأمة التى أنابتهم عنها.. أليس من العيب، وأنت وزير فى وزارة يزاملك فيها وزير انجليزى وآخر فرنسوى، وهما فى الحقيقة خفيران عليكم وعلى الحكومة، ثم تجمع أمس - أمام الوزيرين الأجنبيين - أصحاب الجرائد وتقول لهم: إن الحكومة عزمت على فض مجلس شورى النواب غدا .. فالحذر كل الحذر من أن تنشروا كلمة واحدة عن هؤلاء النواب فى جرائدكم لأنهم ناس جهلاء وهمج .. تقول عن نواب بلادك.. مصر العزيزة.. ونحن جميعا درسنا فى الأزهر الشريف! واختتم الشيخ حسن عبدالرازق هذه الملحمة الوطنية بقوله: إن ما قاله المويلحى يعبر عن أفكارنا جميعا.. فصاح النواب: موافقون.. موافقون.. فلم يملك رياض باشا إلا أن غادر قاعة المجلس وهو يهذى: إذن أنا منسحب .. أنتم عصاة.. أنتم ثوار.. فتوجه المويلحى بمخاطبة كاتب الجلسة: لاتحذف حرفا واحدا مما قيل فى جلسة اليوم.. حتى إذا

نقلتـه الجـرائد غـدا علمت الأمـة جـمـيـمـا من هم الهـمج: النظار أم النواب(٤١).

واستجاب النواب لطلب المويلحي باعتبار المجلس في حالة انعقاد دائم.. وتناوب الأعضاء على المبيت في القاعة.. حتى اهتزت أعصاب الحكومة، فاستقالت ثم توالت الأحداث التي أفضت إلى عزل إسماعيل ثم نشوب الثورة العرابية.

سنة التطور:

تذكر أن هذه الواقعة حدثت سنة ١٨٧٩ أي بعد ثلاثة عشر عاما من قيام المجلس الذي أراد صانعه أن يكون برلمانا صوريا، وشاءت الإرادة الشعبية أن يكون برلمانا حقيقيا، ولم يرد على خاطر إسماعيل أن سنة التطور لابد أن تمضي في طريقـهـا إلى مـالا نهـاية، وأن الخطوة التي قطعهـا لابد أن تتلوها خطوات حتى يبلغ الكتاب أجله، ويملك الشعب المصري زمام أمره ويفرز رجالا يعرفون حقوقهم البرلمانية ويتمسكون بها، إن غالبية النواب الذي واجهوا استبداد رياض باشا بهذه الصورة القاسية، هم نفس النواب الذين تشكل منهم مجلس شورى النواب عند ولادته، ولكن الأحداث صهرتهم، والمحن أنضجتهم، فهي خير مدرسة لتفريخ القيادات الوطنية. وعندما رسم الخديو إسماعيل طريقة انتخاب أعضاء المجلس، توخى أن يكون الانتخاب محصورا في عمد البلاد ومشايخها، ولم يترك للشعب حرية الانتخاب حتى لايفلت الزمام من يده، وحتى لايتسلل إلى عضوية المجلس بعض العناصر المثقفة التي لاتخفي سخطها على الخديو وحكمه الأتوقراطي وتبذيره أموال الشعب.

ونهمه الشديد في امتلاك الأراضي حتى صار يملك خمس الأطيان المصرية.

إبعاد المثقفين:

جاء تشكيل المجلس - كما لاحظ المؤرخ عبدالرحمن الرافعي - على الصورة التي أرادهم ولي النعم من العمد وكبار ملاك الأراضي، وخلوا من العناصر المثقفة أو المعارضة. أما طبقة التجار والصناع فلم يكن لهم ممثلون إلا النزر اليسير الذي لا يؤثر في طابع المجلس. وكذلك خلا من الطبقات المتعلمة التي تخرجت من المدارس والبعثات العلمية منذ عهد محمد علي، فهؤلاء لم يكونوا ممثلين فيه، لأن نظام الانتخاب في ذاته لم يجعل لهم حظا في عضوية المجلس، أضف إلى ذلك أن هذه الطبقة كانت إلى ذلك العصر منصرفة إلى مناصب الحكومة، ولم تتجه إلى الحياة الحرة، ولم تألفها بعد، فكانت بحكم هذه الظروف جزءا من الأداة الحكومية، وبذلك حرم المجلس من هذه العناصر الحرة المثقفة التي تبعث في الهيئات النيابية نورا من الحياة والحرية والاستقلال في الرأي، وتبث فيها روحا من الشعور بالواجب والشجاعة الأدبية، والتطلع إلى المثل العليا.

ولم تكن في البلاد - حين تأسس المجلس - صحافة تنبه الأفكار، وترشد النواب إلى واجباتهم وتبصرهم بحقائق الأمور، وتنشر مداولاتهم، وتستثير اهتمام الكافة بمباحثهم، ولا ثمة جمعيات سياسية تبث أفكارهم ومبادئها القويمة في نفوس النواب، ويتألف منها ومن الصحافة رأي عام يراقب المجلس ويواجهه إلى الوجهة التي ينشدها.

ومن ناحية أخرى لم تكن في البلاد ضمانات نظامية أو قانونية أو قضائية أو فعلية تحمي حرية الآراء وتكفلها. فكل هذه الظروف كان لها أثرها في تضييق حياة المجلس، وتحديد مواقفه وخططه وأعماله.

سلطان المجلس:

رسم إسماعيل نظام مجلس شورى النواب في لائحتين:

* اللائحة الأساسية: وتشتمل على بيان سلطة المجلس وطريقة انتخابه وموعد اجتماعه.

* اللائحة النظامية: وهي أشبه باللائحة الداخلية التي تنظم مداولاته.

وقد أوجز الرافعي ما جاء في اللائحتين مستخلصا نظام المجلس وسلطاته على النحو التالي:

أولا: إن المجلس لم تكن له سلطة قطعية في أي أمر من الأمور، وهو إن كان يصدر قرارات فيما يعرض عليه من الشئون إلا أن هذه القرارات لاتعدو أن تكون «رغبات» ترفع إلى الخديو، وله فيها القول الفصل،ولم تحدد اللائحة الأساسية ولا اللائحة النظامية المسائل التي يبدي رأية فيها، بل عبر عنها بأنها المسائل «التي تراها الحكومة من خصائصه»، وأشير في بعض المواد إلى أنها المسائل المتعلقة «بالمنافع الداخلية» ويبدي رأيه أيضا في المقترحات التي يتقدم بها الأعضاء.

ثانيا: يتألف المجلس من عدد لايزيد على ٧٥ عضوا، ينتخبون لمدة ثلاث سنوات ويتولى انتخابهم عمد البلاد ومشايخها في المديريات،

وجماعة الأعيان في القاهرة، والاسكندرية، ودمياط، وكان عدد نواب كل مديرية بحسب التعداد فينتخب واحد أو اثنان عن كل قسم من أقسام المديرية بحسب كبر القسم وصغره، وينتخب ثلاثة نواب عن القاهرة، واثنان عن الاسكندرية ، وواحد عن دمياط.

ثالثا: يشترط فيمن ينتخب عضوا أن يكون مصريا، ومن المتصفين «بالرشد والكمال» ولاتقل سنه عن خمس وعشرين سنة، وأن لايكون ممن صدرت ضدهم أحكام جنائية بالليمان أو من المحكوم عليهم بالإفلاس، أو الطرد من وظائف الحكومة بحكم، واشترط في العضو العلم بالقراءة والكتابة في الانتخاب السابع، أي بعد مضي ثماني عشرة سنة على تأسيس هذا النظام، لأن مدة كل مجلس ثلاث سنوات، ومعنى ذلك أن النواب كانوا يعفون من هذا الشرط في الانتخابات الستة الأولى.

ولوحظ في هذا التمييز أن هذه المدة تكفي لانتشار التعليم في البلاد، حيث يشترط في الأعضاء بعد انقضائها أن تكون لهم دراية بالقراءة والكتابة، واشترط في الناخبين أن يكون لهم إلمام بالقراءة والكتابة في الإنتخاب الحادي عشر، أي بعد انقضاء ثلاثين سنة على الانتخاب الأول.

رابعا: يحصل انتخاب نواب كل مديرية في عاصمتها، وكل ناخب ينتخب العضو النائب عن قسمة، ويناط فرز أوراق الانتخاب بلجنة مؤلفة من المدير والوكيل وناظر قلم الدعاوى وقاضي المديرية.

خامساً: يجتمع المجلس شهرين في كل سنة، من ١٥ كيهك لغاية ١٥ أمشير (أى من منتصف ديسمبر إلى منتصف فبراير)، أما المجلس الأول فيجتمع من ١٠ هاتور إلى ١٠ طوبة «نوفمبر، يناير»، ويكون اجتماعه فى القاهرة، وجلساته سرية، وللخديو جمع المجلس أو تأخيره أو إطالة مدة إجتماعه أو تبديل أعضائه «حله» وإجراء انتخابات جديدة «مادة ١٦ و١٧ من اللائحة الأساسية».

سادساً: تعيين رئيس مجلس النواب ووكيله منوط بالخديو دون أن يكون للمجلس رأى أو ترشيح فى هذا التعيين «مادة ٣ من اللائحة النظامية».

سابعاً: يفتتح الخديو المجلس بمقالة «خطبة العرش» ويقدم المجلس جوابه عنها بكتاب لايقطع فيه بشيء من الأمور التى يقتضى نظرها المجلس «مادة ٤ و٥ من اللائحة النظامية».

ثامناً: ينتخب المجلس من بين أعضائه لجانا تسمى «أقلاما»، ومن أعمالها فحص صحة نيابة الأعضاء، وتعرض قراراتها على هيئةالمجلس، ومن يقرر المجلس صحة انتخابهم تعرض أسماؤهم على الخديو ليعطى كل واحد منهم «البيرولدى» أى الأمر باعتماد عضويته.

تاسعاً: للمجلس توقيع عقوبات على من يتخلف من الأعضاء بدون عذر عن حضور الجلسات «مادة ١٢ من اللائحة النظامية».

عاشراً: يتمتع الأعضاء أثناء انعقاد المجلس بشيء من الحصانة النيابية، فلا ترفع عليهم دعوى «جنائية» فى أثناء الانعقاد إلا إذا ارتكب أحدهم جريمة القتل «مادة ٥٣ من اللائحة النظامية».

حادى عشر: إدارة نظام الجلسات منوطة برئيس المجلس، ولايجوز للعضو أن يتكلم إلا إذا طلب الكلام وأذن له الرئيس بذلك ولايتكلم إلا وهو فى موضعه، وتصدر القرارات بطريقة أخذ الآراء علانية وبالأغلبية.

وعلى المجلس احترام رأى الأقلية، والإصغاء لأقوالها وملاحظاتها «مادة ٣٥ من اللائحة النظامية، وهذه القاعدة من أهم أركان النظام النيابى».

ثانى عشر: أعضاء المجلس يحضرون إلى المجلس بملابس «الحشمة اللائقة» وجلوسهم فيه يكون «بهيئة الأدب» (مادة ٤٠)، ولايجوز لأى عضو نشر مناقشات المجلس أو طبعها إلا بإذن من الرئيس، وإلا كان عرضة للجزاء الذى يوقعه به المجلس (مادة ٥٤).

هذه هى القواعد الجوهرية التى على أساسها أنشئ مجلس شورى النواب، وخلاصتها أنه مجلس استشارى ينتخب أعضاؤه بواسطة عمد البلاد ومشايخها لمدة ثلاث سنوات، ويجتمع شهرين فى كل سنة، وجلساته سرية، وليس له رأى نافذ فيما يعرض عليه من الشئون. ولاريب فى أن المجلس النيابى الذى يقوم على هذه القواعد لايمكن أن يؤثر تأثيرا عمليا فى سياسة الحكومة، مالم يتطور نظامه مع الزمن، ويكتسب حقوقا ومزايا جديدة، ولو جعل إسماعيل باشا للمجلس سلطة قطعية فى شئون الحكم، وخاصة فى مسألة الضرائب والقروض، لبعث فيه روحاً من الحياة والنهضة، ولأمكن أن تنال مصر على يده مزايا عظيمة، فإن تصرفات الحكومة المالية كانت فى حاجة إلى رقابة فعلية

تتولاها هيئة نيابية، ولو وجدت هذه الرقابة لوضعت حدا للقروض الجسيمة التى تلاحقت فى عصر إسماعيل وأفضت إلى التدخل الأجنبى فى شئون مصر.

نائبــان مشـاغبــان

كان مجلس شورى النواب - النواة الأولى للحياة النيابية بمصر - أقرب إلى المجالس المحلية منه إلى المجالس البرلمانية التى عرفتها أوروبا قبل قرون والتى عرفتها مصر فيما بعد، فلم يكن للمجلس صلاحيات تبيح له مناقشة السياسة الخارجية والداخلية وحتى النظر فى الميزانية العامة للبلاد، وهو أبسط حقوق المجالس النيابية بل هو الحق الذى كان سببا فى نشأة البرلمان الإنجليزى، واقتصرت مهمة أعضاء مجلس شورى النواب على التداول فى المسائل المحلية البحتة مثل نشر التعليم الابتدائى وردم البرك والمستنقعات وضريبة المواشى والتخفيف من وطأة السخرة على الفلاحين وإلغاء القانون الذى يبيح للحكام ضرب العمد (!!) وبقيت مهمة المجلس فى الإطار الذى حدده الخديو إسماعيل، والتزم الأعضاء بالصلاحيات التى جادت بها أريحية ولى النعم، ولم يكن لهم أن يخرجوا عليها، ولم يكن من المتصور فى ظل الحكم الاستبدادى أن تظهر أجنحة المعارضة داخل المجلس.. وليس صحيحاً مازعمه بعض كتاب الغرب بأن النواب رفضوا الجلوس فى

مقاعد اليسار المخصصة للمعارضة، لأنه لم تكن هناك معارضة أصلاً. ولأن المعارضة مرتبطة بوجود أحزاب، بعضها يؤيد الحكومة، والبعض يعارضها، ولم يكن في مصر أحزاب في تلك الفترة من تاريخها السياسي.. بل كان من المستحيل أن يسمح «إسماعيل» بظهور معارضة لحكمه حتى أنه أمر بطرد نائبين ظهرت منهما بوادر الشغب داخل المجلس (!!) وقد افتتح الخديو إسماعيل أول جلسة لمجلس شورى النواب بالقلعة يوم ٢٥ نوفمبر ١٨٦٦ واكتشف رئيس المجلس إسماعيل باشا راغب أن اليوم يصادف عيد ميلاد الخديو، فاغتنم الفرصة ليوجه إلى ولي النعم أيات التبريك، ويعلن اعتبار اليوم عيداً سنوياً تعطل فيه مصالح الدولة، وصار ذلك تقليداً سار عليه ملوك الأسرة العلوية. ثم ألقيت خطبة العرش فكانت أول خطبة من نوعها تعرفها الحياة السياسية المصرية. ولم يرد في الخطاب أي ذكر لوظيفة المجلس وحدود سلطاته أو المهام الملقاة على عاتق الأعضاء باستثناء «تذاكر المنافع الداخلية وإعلان الآراء السديدة» أما مصير هذه الآراء السديدة ومدى التزام الحاكم بها، فهو شيء لم يتطرق إليه خطاب العرش ولو على سبيل التلميح.

يرى المؤرخ عبد الرحمن الرافعي أن هذا الخطاب من الوثائق الهامة في تاريخ الحياة النيابية بمصر. ويصف خطبة العرش «بأنها في مجموعها سديدة المعاني، وجيزة العبارة، وأهم ما فيها أنها قررت قاعدة الشورى في نظام الحكم، واستندت في تقريرها إلى القرآن الكريم، مما يجعلها قاعدة لا محيص عنها، ويثبتها في نفوس الشعب، وفيها تمجيد لنظام الشورى وإشادة بمزاياه ومنافعه، وإعلان بأن الغاية

من الحم هي منفعة الجمهور، فورود هذه المبادئ الهامة في النطق الخديو هو خير دعاية لها وإعلان عنها.

ولاأدرى كيف فات على مؤرخنا الكبير أن الشورى تفقد مفعولها إذا لم تكن ملزمة للحاكم، ولايكفي تمجيد الحاكم لنظام الشورى والإشادة بمزاياه، إذا لم يقترن ذلك بإعلان الحاكم احترامه لما تسفر عنه الشورى. وبذلك يتجنب المزالق التى تنجم عن الانفراد بالرأى. ولو كان إسماعيل صادقاً في احترام مبدأ الشورى منذ البداية، لما انزلق إلى الهاوية التى انتهت بخلعه، ووقوع البلاد فريسة للنفوذ الأجنبى والاحتلال الإنجليزى.

أما الرد على خطاب العرش فقد تكفلت به لجنة من عشرة أعضاء صاغوا خطابهم في قالب تمجيد وتقديس الذات الخديوية، يكاد يقرب من العبودية - على حد تعبير الرافعى - مما لا يتفق والروح النيابية الصحيحة، ويتضمن خلاصة لتاريخ مصر، وما كان لها من المجد والسؤدد في سالف العصور، وماآلت إليه من الاضمحلال والتقهقر إلى أن تولى زمامها محمد على باشا، فنهض بها وأعاد مجدها القديم، ونوه بفضل إبراهيم باشا لموازرة أبيه في أعماله الجليلة، وماأعقب عصرهما من انكماش نهضة التقدم، إلى أن تولى الخديو إسماعيل الحكم فاستأنف العمل لنهضتها، وأفاض الجواب في ذكر مآثر إسماعيل، ثم أظهر ابتهاج المجلس لما ناله الخديو من تعديل نظام وراثة العرش وحصره في أكبر أنجال الوالى بعد أن كان في أكبر أفراد الأسرة العلوية. أما من حيث الأسلوب فقد كان خطاب الرد صورة أدبيات العصر التى تهتم بالسجع المتكلف، و العبارات الركيكة، والتملق المرذول.

وفي الجلسة التالية تشكلت خمس لجان أو (أقلام) وفقاً للعرف الحكومي السائد. وجاء تشكيل اللجان على أساس إقليمي.. فهذه لجنة الشرقية وأخرى للبحيرة وهكذا.. وليس على أساس المهام الموكولة إلى المجالس النيابية مثل لجنة الشئون الدستورية ولجنة الأمن القومي ولجنة الميزانية.. إلخ وانتهى الدور الأول لمجلس شورى النواب في ٢٤ يناير ١٨٦٧ أي أن فترة الانعقاد لم تستغرق سوى شهرين تداول فيها الأعضاء حول المشاكل المحلية.. وفي جلسة الختام ألقى رئيس المجلس خطبة وجيزة أعرب فيها عن التشكرات للخديو على منشأته العظيمة «الموجبة لازدياد العمران».. وعلى الأخص إنشاء هذا المجلس. وشكر الأعضاء على سديد أفكارهم التى أبدوها أثناء مداولاتهم. أما كيف تمت هذه المداولات. .وماهي القضايا التى تداولوها.. فهو الذى يهمنا ونحن نرصد بدايات الحياة النيابية..

حول طريقة المناقشات وحدودها يقول الرافعي: كان للمجلس أن يتداول فيما تعرضه عليه الحكومة من الشئون ويبدى رأيه فيها، كما أن له أن يتداول فى الاقتراحات التى يقدمها أحد الأعضاء، فإذا تقدم عضو بأى اقتراح، يعرضه رئيس المجلس على الهيئة لتبحث أولاً في: هل تنظر فيه أم لا.. فإذا استقر رأيها على المداولة فيه ترسل صورته إلى المجلس الخصوصي (مجلس الوزراء) ليحاط به علماً، ثم يطرح على بساط البحث، ويتداول الأعضاء فيه، ويحيلونه في الغالب على لجنة تنتخبها الأقلام (اللجان) فإذا أتمت الجنة بحثه قدمت عنه تقريراً يطبع ويوزع على الأعضاء، ثم يتداولون فيه، وإذا استقر رأى المجلس على قرار فى موضوعه، يرسل القرار إلى المعية السنية لعرضة على الخديو ليقرر فيه

مايراه، وإذا استدعت المناقشة حضور بعض كبار الموظفين لتوضيح وجهة نظر الحكومة يحضر الناظر (الوزير) المختص أو الموظف الفنى فيدلى بالإيضاحات المطلوبة، ويكون حضور النظار أو كبار الموظفين بناء على طلب المجلس أو برأى الحكومة.

مقترحات الأعضاء:

أما المقترحات التى تقدم بها الأعضاد وشغلت جلسات الدور الأول فتعطينا صورة عن القضايا التى كانت تشغل الرأى العام فى ذلك الوقت. وقد استخلصها الرافعى من المضابط الأصلية المحفوظة فى مكتبة البرلمان. ويرجع الفضل فى جمعها وتبويبها وتنسيقها إلى الأستاذ محمد خليل صبحى رئيس قلم مكتب مجلس النواب. فأدى بهذه الجهود خدمة للتاريخ يستحق من أجلها الشكر والثناء. وقد أوجز الرافعى أهم المقراحات التى بحثها مجلس شورى النواب فيما يلى:

١ - أول المقترحات التى تقدم بها الأعضاء اقتراح من هلال بك أحد نواب الدقهلية فى بحث مسألة السخرة ووضع نظام يخفف من وطأتها، فتداول الأعضاء عدة جلسات فى هذه المسألة، ثم أحيلت على لجنة (قومسيون) سميت لجنة (العمليات) مؤلفة من خمسة أعضاء، وهم محمد بك سعيد، وحسن أفندى شعراوى، ويوسف محمد، والسيد أحمد الشريف، والشيخ محمد الصيرفى.

وقد بحثت اللجنة هذه المسألة واشترك معها فى البحث إسماعيل باشا صديق وسلامة بك إبراهيم، وثاقب باشا، وعلى بك مبارك، وكان إفاد هؤلاء المهندسين من طرف الحكومة لارتباط مسألة السخرة

بمشروعات الرى والهندسة، فقدمت اللجنة تقريراً مطولاً خلاصته تنظيم السخرة على أساس اعتبارها من المنافع العامة، وأنها مفروضة على من تتراوح أعمارهم بين ١٥ ، ٥٠ سنة من أهل البلاد التى تستفيد من أعمال السخرة، وجعلها مبنية على قاعدة المساواة بين الأهلين (والمساواة فى الظلم عدل)، فوافق المجلس على تقرير اللجنة، وطلب عمل إحصاء للأنفس تطبيقا لهذه القاعدة حتى يؤخذ الأنفار للسخرة بالدور.

واستتبع بحث السخرة إثارة مسألة أخرى أوعزت بها الحكومة، وكان المجلس فى غنى عنها وهى ضريبة على المواشى وحجتها فى ذلك أن أعمال المنافع العامة التى تنفذ بواسطة السخرة تقتضى مهمات وأدوات يجب شراؤها بالثمن، ولما كانت المواشى الموجودة بالأقاليم مخصصة لأعمال الزراعة، فوجب أن يفرض عليها مقدار معلوم من الضريبة، بما يوفى ثمن هذه المهمات، وعلى ذلك وافق المجلس على فرض هذه الضريبة، ومقدارها عشرون قرشاً فى السنة على كل رأس من مواشى الزراعة كالأبقار والجاموس والثيران والخيول والبغال، أما الجمال ففرض على كل رأس منها ثلاثون قرشاً، وعلى كل رأس من الحمير عشرة قروش، واستثنيت من هذه الضريبة مواشى المدن والبنادر.

٢ - اقترح إبراهيم أفندى الشريعى رئيس لجنة المنيا، النظر فى مسألة تقسيط الأموال الأميرية، وتحديد مواعيد لدفعها تسهيلاً لسدادها، فأحيلت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من خمسة أعضاء وهم: محمد أفندى شعير، ونصر الشواربى، وميخائيل أثناسيوس، ومحمد عفيفى،

وحميد أبوستيت، ورأت اللجنة وجوب تحديد مواعيد للسداد فى أوقات جنى المحاصيل توفيراً لراحة الأهالى فى دفع الأموال، وقد حضر حافظ باشا وزير المالية إلى المجلس بعد أن قدمت اللجنة تقريرها فى هذا الموضوع، وأوضح وجهة نظر الحكومة، وهى أن رأى المجلس فى محله، ولكن الحكومة لايمكنها تعديل مواعيد الضرائب لأنها مرتبطة بدفع فوائد ديونها فى المواعيد المحددة لسداد الأموال، واستحسن تأجيل النظر فى هذه المسألة إلى السنة المقبلة، إذ ينظر المجلس فى مسألة الديون ومسألة التقسيط معا، فأقر المجلس ذلك.

٣ ـ اقترح أتربى بك أبو العز أحد نواب الغربية، تعميم المدارس (الإبتدائية) بإنشاء مدرسة فى كل مديرية، فأقر أعضاء المجلس الاقتراح وحبذوه، وظهر منهم الميل الشديد إلى تعميم التعليم بين طبقات الأمة كافة، وأحالوا المشروع على لجنة مؤلفة من عمر أفندى أبو يحيى، ومحمود حمودة، وعلى سيد أحمد، والسيد محمود العطار، وأحمد أفندى أباظة، وأنتهت اللجنة فى تقريرها إلى وجوب إنشاء مدرسة فى كل مديرية وكل محافظة ، ويكون التعليم فيها مجاناً، وحضر شريف باشا ووافق باسم الحكومة على تقرير اللجنة، غير أنه طلب تأجيل إنشاء المدارس فى السويس والقصير والعريش حتى يتم إنشاء المدارس فى المديريات والمحافظات الأخرى، فوافق المجلس على ذلك، وأفضى شريف باشا فى بيانه بالجهود التى تبذلها الحكومة فى سبيل نشر التعليم، وأنهى إلى المجلس أن الخديو وقف على المدارس جميع الأطيان التى يتألف منها تفتيش الوادى، فقابل المجلس هذا البيان بالشكر والدعاء للخديو.

٤ ـ اقترح سليمان أفندى عبدالعال من نواب أسيوط النظر فى وضع نظام لسندات التعـامل بين الناس، وأحيلت هذه المسـألة على اللجنة المؤلفة لبحث مـسألة التقسيط، وحضر إسماعيل صديق باشـا حين المناقشة فيها، وأنهى إلى المجلس أن الحكومـة مشـتغلة بسن قانون عن الرهون.

٥ ـ اقترح ميخائيل أفندى أثناسيوس من نواب المنيا إلغاء نظام العهد (جمع عهده)، وخلاصة هذا النظام أن الحكومة فى عـهد محـمد على باشا كانت تعهد إلى بعض الأعيان والمأمورين ورجال الجهادية جباية ضرائب بلاد بأكملها ممن كان أهلها غير قادرين على زراعـة جميع زمانها أو متـأخرين فى سداد مالها، فكان المتعـهدون يتكلفون بسداد الضـريبـة من مالـها الخـاص إذا لم يجـبـوها من الأهلين، وقد أدى هذا النظام إلى إرهاق الفلاحين لأن المتعهدين كانوا يسخـرونهم لمصـالحـهم الخاصة فألغته الحكومة سنة ١٨٥٠ إذ أصدرت أمرها باسترجاع البلاد من المتعهدين ثم عاد العمل به فى أوائل عـهد إسماعيل، فضج الناس من مـساوئه، فـلا غرو إن قوبل اقـتراح مـيخـائيل أفندى أثناسـيوس بالاستحسان.

وحبذ الأعضاء فك العهدة وإعادة الأطيان إلى أصحابها، ثم قرروا إحالة المسألة على لجنة انتخبت لهذا الغرض، مؤلفة من الشيخ العدل أحمد، وأحمد على، والحاج شتا يوسف وأحمد عبدالصادق، ومحمد الوكيل.

وانتهت المناقشة فى الموضوع بأن قرر المجلس فك العهد جـميعها ابتداء من سنة ١٢٨٤ هـ ووافقت على هذا القرار ونفذته.

٦ ـ اقترح محمد أفندى حمادى من نواب جرجاء وضع نظام لضبط عملية تحصيل الأموال فى المديريات لمنع العبث فى قيد المتحصلات، وذكر أن الأهالى فى الوجه القبلى يدفعون المال ليد (الشاهد) ويقيد ما يدفعونه فى ورق عادة ويبقى المتحصل عند (الشاهد) لآخر الشهر حتى يحضر الصرف، وإنه لطول المدة وعدم القيد بالدفاتر المعتمدة يحصل «لخبطة ومغشوشية فى الإيراد».

٧ ـ اقترح سليمان أفندى الملوانى من نواب الغربية، منع مجازاة العمد بالضرب، وقال الشيخ محمد الشواربى بمنع الضرب عن العمد وغيرهم من الأفراد، وأن يرفع من القانون النص الذى يبيح الضرب للحكام، وتناقش الأعضاء طويلا فى هذه المادة، ثم صرح رئيس المجلس بأن القانون الذى تجرى الحكومة وضعه وتنقيحة منصوص فيه على منع الضرب فاكتفى المجلس بذلك.

٨ ـ اقترح هلال بك النظر فى الأطيان الناشئة عن زيادة المساحة من صالحة وبور، وإضافتها بالمال إلى أصحاب الأطيانا االمتداخلة فيها أو الملحقة بها.

٩ـ اقترح الشيخ محرم على من نواب الدقهلية فتح قنطرة البوهية وإزالة ما بها من السدود التجرى المياه فى ترعة البو هية ولاتحرم بلاد مركز السنبلاوين من الرى

١٠ـ اقترح الشيخ العدل أحمد من نواب الدقهلية. إعادة فم البحر الصغير على النيل بدلا من فمه كان على ترعة المنصورية لسهولة وصول مياه الرى إلى البلاد الواقعة عليه.

١١- واقترح على بك خفاجى نائب دمياط توصيل مياه ترعة الشرقاوية إلى البلاد الكائنة بشطوط دمياط.

١٢- واقترح كل من حميد أوسديت ومحمد سحلى من نواب قنا إصلاح الرى بحوض سمهود الواقع على حدود مديرية قنا وعمل مصرف للحوض المذكور.

وفى تعليق الرافعى على مقترحات الأعضاء ومداولاتهم بأنها كان يبدو عليها حسن القصد، والرغبة الصادقة فى خدمة المصالح العامة، وإصلاح حالة البلاد من الوجهة الاقتصادية، وتحسين حالة الأهلين الإجتماعية، كما يبدو عليهم الإتزان فى الآراء، وسلامة المنطق، والخبرة بالمسائل المحلية التى تباحثوا فيها، وكان يعوذهم - إلى حد ما - الاستقلال فى الرأى، والإضطلاع بالمسائل العلمية والمالية، أما الحكومة فكانت تعنى بتتبع مباحثات المجلس. وتوفد رجالها فى بعض الجلسات للاتصال بالاعضاء فى مباحثهم وإطلاعهم على وجهة نظرها، وكان حضورهم يحكم صلة التفاهم بين الأعضاء والمجلس، وكان أكثر رجال الحكومة عملا فى هذا الصدد:

إسماعيل باشا صديق مفتش عموم الأقاليم وقتئذ، وصاحب الحظوة الكبرى عند الخديو إسماعيل.

ولم يتناول الأعضاء فى مباحثهم بدور الانعقاد الأول إلا الاصلاحات المحلية ، أما المسألة المالية التى كانت تشغل الأفكار فى ذلك الحين فإنهم لم يعرضوا لها، كما لم يطلبوا إطلاعهم على ميزانية الحكومة ليتباحثوا فيها، ولم يبدأ تطلعهم إلى البحث فى المسألة المالية إلا فى دور الانعقاد الثانى.

قصة كاذبة :

وقبل أن نمضي مع مجلس شورى النواب في دورته الثانية يهمنا الإشارة إلى قصة روج لها بعض الكتاب الأجانب حول موقف المعارضة ومكانها أثناء الجلسة الأولى للمجلس. فقد زعموا أن شريف باشا - وزير الداخلية إذ ذاك - تحدث إلى النواب أثناء دخولهم القاعة، وأفهمهم أن المجالس النيابية تنقسم دائماً إلى حزبين: أحدهما حزب يؤيد الحكومة، والآخر يعارضها، وأنه يجدر بهم أن يؤلفوا من بينهم هذين الحزبين. ويختار كل منهم الحزب الذي يتفق مع ميوله، فالأعضاء المؤيدون للحكومة يجلسون على اليمين، ونواب المارضة يجلسون في اليسار، وتمضي الراوية الموضوعة فتزعم أن النواب استنكروا أن يكون من بينهم من يعارض الحكومة (!!) وجلسوا جميعا في مقاعد اليمين إعلاناً عن ولائهم للحكومة والعرش.. فأفهمهم شريف باشا أنه لابد أن يجلس بعضهم في مقاعد اليسار.. فما كان منهم إلا أن تحولوا جميعهم إلى مقاعد اليسار (!!).

وقد تكفل الرافعي بتفنيد هذه القصة المختلقة التي تهدف إلى التهكم والسخرية من الحياة النيابية المصرية في مراحلها الأولى. فهي ولاشك من مخترعات بعض الكتاب الأوربيين الذين يطيب لهم اختلاق أمثال هذه الحكاية. يقول: لقد بحثنا كثيرا فلم نجد لها سندا من أقوال شاهد عيان ولم يرد ذكرها ولو تلميحا في مضابط المجلس. على أن الراوية في ذاتها لايسيغها المنطق، فان نظام المجلس وحدوده واختصاصه وملابساته، كل ذلك لايدع مجالا لتأليف حزب للحكومة وحزب

للمعارضة .. فالأحزاب الموالية والمعارضة إنما توجد حيث يكون للمجلس حق الاقتراع على الثقة بالوزارة، ولم يكن لمجلس شورى النواب هذا الحق اصلا، هذا من الجهة .. ومن جهة أخرى فقد شهد أحد الكتاب الفرنسيين وهو المسيو (جليون دنجلار) حوادث مصر فى الفترة من سنة ١٨٦٥ إلى سنة ١٨٧٥ وله عن مشاهدات فيها مذكرات ورسائل تكلم فيها عن مجلس شورى النواب، فلم يذكر هذه الحكاية، ولا أشار إليها، ولو كان لها ظل من الواقع لما فاته أن يذكرها ، وهذا يقطع ببطلانها، وكل ما ذكره المسيو «دنجلار» عن موقف المعارضة في المجلس: أنه ظهر من بين أعضائه نائبان معارضان أبديا رأيهما بما يخالف وجهة نظر الحكومة، فكان جزاؤهما الطرد من المجلس بأمر الخديو باعتبار أنهما عضوان مشاغبان وخطر على الأمن العام (!!) .

فهذه الرواية يسيغها العقل ويؤيدها المنطق، فإن نزعة الحكومة الاستبدادية تأبى أن يقف نائب في ذلك العصر موقف المعارضة، فلا غرابة أن تبادر الحكومة إلى طرد النائبين المعارضين من المجلس، وكنا نود إن نعرف من هما هذان النائبان الجريئان اللذان ظهرا بهذا المظهر المشرف في أدوار الانعقاد الأولى لمجلس شورى النواب ولكننا لم نظفر بهذه الأمنية (!!) .

الفلاح الفصيح

لكى نكون منصفين فى الحكم على مجلس شورى النواب يجب أن نعيد قراءة خطبة العرش التى تليت باسم إسماعيل صبيحة افتتاح المجلس بالقلعة فى ٢٥ نوفمبر ١٨٦٦م، والتى حدد فيها إسماعيل مهمة المجلس فى التداول فى المنافع العامة وإبداء الآراء السديدة ، وجرد الأعضاء من أوليات حقوق المجالس النيابية، وهى مناقشة الميزانية العامة للبلاد.. ولقد رأيت كيف استهل إسماعيل خطبته بذكر مناقب جده محمد على وأبيه إبراهيم باشا وما لهم على مصر من أفضال جعلتها مليئة عامرة بالخيرات بعد أن كانت خاوية على عروشها. كما عرضت عليك رأى المورخ عبدالرحمن الرافعى ، فى هذه الخطبة وكيف أنها وثيقة هامة فى تاريخ الحياة النيابية بمصر، وأنها فى مجموعها سديدة المعانى، وجيزة العبارة ، وقررت قاعدة الشورى فى نظام الحكم.. إلخ.

أرى من كمال البحث، واتساع الرؤية أن أعرض عليك رأيا آخر لباحث معاصر هو الدكتور لويس عوض، ففى رأيه أن أهم المعانى

التي قصد الخديو إسماعيل إيصالها إلى الأعضاء - ليس مجرد التباهي بما أداه جده وأبوه لمصر من خدمات - وإنما إعلانه بأنه يعد عهده امتدادا واستكمالا لعهد محمد علي إبراهيم باشا، وإدانته صراحة لعهد عباس الأول وسعيد باشا الذي عده انقطاعا بل انقلابا في تاريخ مصر الحديث. وهذا - في رأي لويس عوض - بمثابة إعلان من جانب إسماعيل أن سياسته مبنية على المبادئ التالية: أولا: بناء الدولة العصرية بكافة مقوماتها المادية والمعنوية على أرض مصر.

ثانيا: اتباع سياسة استقلالية عن الباب العالي على عكس عباس الأول، واستقلالية عن الدول الأوروبية على العكس سعيد.

ثالثا: تدعيم روابط مصر بأوروبا لبناء الدولة العصرية على غرار ما فعل محمد علي إبراهيم باشا بمنطق تعامل الند من الند.

أما المعنى الثاني الهام الذي أراد الخديو إسماعيل إيصاله لأعضاء برلمانه الأول فهو أن حدود اختصاصهم تقف عند السياسة الداخلية وليس لهم أن يتدخلوا في السياسة الخارجية.

وأما المعنى الثالث الهام الذي اهتم الخديو إسماعيل بإبرازه، فهو أنه يعتد فقط بحدود الشورى التي قالت بها الشريعة الإسلامية، فالمجلس إذن مجرد مجلس استشاري، وليس له أن يتصور أنه سلطة شعبية داخل الدولة يمكن أن تملي إرادتها على العرش أو على السلطة التنفيذية. (راجع كتاب الدكتور لويس عوض: تاريخ الفكر المصري الحديث من عصر إسماعيل إلى ثورة ١٩١٩ المبحث الأول: الخلفية التاريخية - الجزء الثاني - الهيئة العامة للكتاب).

اطن المعاني:

ويمتد الخلاف بين رأى لويس عوض والرافعي إلى خطاب الرد لى خطبة العرش الذى أعده عشرة من أعضاب المجلس. فالرافعي تقد الخطاب ووصفه بأنه ملىء بالزراية، وصيغ في قالب تمجيد تقديس للذات الخديوية يكاد يقترب من العبودية، وفي اعتقاد لويس عوض أن الرافعي أخطأ الفهم لأنه وقف عند الحروف والعبارات ولم تغلغل في باطن المعاني. بل يرى أن الرد على خطبة العرش نموذج جدد من خطبة الفلاح الفصيح الذى غلف مطالبه في معسول الكلام، عبر عن مراده بالأدب المصرى التقليدى الذى يحسبه من لايفهم مصريين نفاقا ورياء.

وهذا نص الرد على خطبة العرش:

«بعد ما تشرفنا بالإصغاء للمقالة الجليلة، الجامعة جوامع الكلم جليلة، نبادر إلى الاعتراف بما حوته بغاية الانشراح وكمال الارتياح. نقول: إن ما قطفناه من زواهر الأخبار التاريخية وعرفناه من سوالف ديار المصرية، أنها كانت في الأعصار الخالية رافلة في حلل المفاخر حالية، وأن بقية الأقطار كانت تستمد من نيل معارفها الوافر، معترفة أنها مغترفة في الأصل من نيل عوارفها الزاخر. لكن لتداول أيدى من م يحسن تدبير ملكها من الملوك السالفين، تداولتها نوائب الزمن، تداولتها أيدى المحن، حينا بعد حين، فاندرست معالمها الباهرة إنطمست آثار مفاخرها الزاهرة، ولعبت بها أيدى الدهور وتكاثرت فيها حروب والشرور حتى رجعت القهقرى واصبح غيرها من الممالك في

أنواع التمدن متقدما وملكها متأخرا وقاسى أهلها من الذلة والمسكنة مما صاروا به فى غاية الحقارة والمهانة، إلى أن أراد الله تعالى أن يعيد شبابها بعد الهرم، ويجدد ما كان من بنيان محاسنها قد انهدم وينقذ أهلها من هذه المهالك، وينظمها في سلك أحاسن الممالك: فشرفها بجد العزيز جنتمكان محمد على باشا، فأعاد لها من العمارية ومحاسن الآثار الأصلية ما كان قد تلاشى، وأفرغ وقالبه فى إصلاح حالها، وأعمل سديد رأية وشديد عزمه فى إعادة جمالها وكمالها. حتى أزاح عنها تلك الوخامة وألبسها حلل الشهامة والفخامة وأحكم معالم الإحكام وأقام بها دعائم العدل بين الأنام، ودون فيها دواوين المعارف المتسقة. وجمع بها أصناف المآثر المفترقة. وجدد فيها القوانين العسكرية وانشأ دوارس المدارس العلمية والحكمية حتى ظهرت بعد الخفا وازهرت أقنتها بزهور الصفا، وعاد إليها من البهاء والبهجة ما كانت فقدته فى سالف الايام، وانتظمت مصالحها الاهلية والملكية بحسن تدبيره أحسن نظام، مع ما فازت به من غرائب الصناع الفائقة، وعجائب الآثار الرائقة، مما شوهد لنا جميعا، وتبوأنا به بيتا من العز رفيعا، فضلا عما أورثها من الغنى الأتم والفخار الأعم من الاستحكامات الملكية وإحكام العمليات الوطنية العائدة بعظيم النفع على عموم الرعية حتى بذلك حسدت مصرنا الأمصار وصرنا بحمد الله متقدمين فى درجات العمار.

وقد كان والد العزيز الأكرم عونا لوالده، وهو الجد الأمجد من حال حياته ممضيا الطرق الموصلة إلى التقدم والعمار بسديد آرائه وشديد عزماته. ولما آلت إليه الحكومة سلك سبيل أبيه، وبنى على تأسيساته الباهرة مما حسن مساعيه، وأخذ ينشيء ما يكمل به رونق الوطن،

ويجدد من العمارية والآثار الجليلة ما يبقى على ممر الزمن: من انشاء المجالس الحقانية وتكثير الرجال الحربية والاستحكامات الملكية، وغير ذلك مما عقدته نيته، وأضمرته طويته فحسدتنا الأيام عليه فلم نتمتع بنافع حكومته إلا قليلا حتى نقله الله إليه. ثم تولى على الأقطار المصرية وولايتها من لم يراعوا تلك المآثر العظيمة حق رعايتها ففترت همة مصر السابقة، وضعفت حركة تقدمها الفائقة إلى أن نفحتنا النفحات الإلهية، وإسعفتنا العناية الربانية بالحضرة الإسماعيلية، وأعطى القوس باريها، لطف من الله بهذه الديار ومن فيها، وتولاها، العزيز بن العزيز ذلك الجانب الأفخم، والدوارى الأكرم فقام فى تنظيم أمورها على ساق وقدم وشمر عن ساعد الجد والاجتهاد فى تجديد ما انهدم وإحياء ما انعدم وأخذ يداوى تلك العلل، ويسد ما تخلل بعد أبيه من الخلل وسعى فى مقاصد أبيه وجده باذلا فى مواجهات التقدم والتمدن الوطنى غاية جهده، شاغلا باله باقصى أنواع العمارية، مديرا فكره فيما يستدعى لهذه الأقطار كمال الرفاهية، فأبدى من ذلك مالم يكن فى الحساب وأراها من البهجة وأسباب الثروة ما لم تره فى سالف الأحقاب، ورتب ملكها أحسن ترتيب، ونظم عقده فى سلك غريب بأسلوب عجيب. ومن تمام عناية رب العالمين أن ألهم سلطاننا الأعظم، ولا غرو لأن الملوك من الملهمين، حصر وراثة الحكومة على التأبيد فى نسل إسماعيل بأن يتولاها أكبر أولاده بعد عمره المديد: فيالها من فكرة جليلة رائقة أسست فى هذه الديار من دواعى العمار الأسباب الفائقة، واستلزمت تحسينا لأحوالها وتأمينا لحالها واستقبالها أطال الله عمر سلطاننا المهاب، وذلك دعاء إن شاء الله مستجاب. ثم ازدادت الهمهم

الاسماعيلية بصرف أفكاره الخيرية العلية، فيما يعلى قدر الوطن، ويرقى انتظام حاله على أسنى سنن، ومن كمال همته السنية، وتمام رأفته ورحمته بالرعية، وشغفه بدوام راحتهم وتمام رفاهيتهم، اقتضت إرادته العلية إنشاء مجلس شورى أهلية وطنية، لما يعلمه من أن جمع الآراء في أمور العالمين، والمداولة في مصالح الرعية مع عقلاء الوطنيين من مقتضيات حسن النظام وموجهات كما لالالتئام، وتمام راحة الأنام. وفوض أعضاء ذلك المجلس لعموم الأهالي حتى ما يحكمون فيه من الأمور بواقع مألوفهم وعرض جميع ذلك إلى حضرة الوالي تبرؤا من غوائل المغدورية، وتوفيرا لدواعي العدالة العمومية. فكنا نحن المنتخبين من سائر الجهات، المصادقين بموسم دولة الحضرة الخديوية بأمر الأوقاف.

وإذا كان إنشاء هذا المجلس الأنيق من أجل المساعي الحميدة، وأتم نعمة أسداها وفوض ولي النعم عبيده، فمن الواجب الأهم التشكر لتلك الحضرة العلية، والتباهي بتلك المنقبة البهية. ورفع أكفنا آناء الليل وأطراف النهار بالدعوات في أجل الأوقات وسائر الحالات أن يخلد عز قطرنا هذا بدوام سعود افندينا الأفخم وولي عهده حضرة محمد توفيق باشا الأعز أفكارهم بجاه خاتم الرسل الكرام عليه أفضل الصلاة وأتم السلام» . (الرافعي: «عصر إسماعيل» ج٢) .

الاعتراض الوحيد :

والاعتراض الوحيد، من جانب لويس عوض، على هذا الرد الذي وضعته لجنة الرد على خطاب العرش هو أسلوبه السقيم القائم على

الإسراف في الكليشيهات اللغوية والجناس وبقية زخارف المقامات وقد كانت خطبة العرش أرقى أسلوبا وأشد تركيزا من رد النواب. ومع ذلك فلا ينبغي أن يصرفنا ذلك عن تأمل المعاني التي تضمنها هذا الرد.

وأهم ما جاء فيه أنه يبدأ بتصحيح كلام إسماعيل في أدب شديد. إسماعيل يقول: إن جده محمد على انتشل الشعب المصرى من العدم والانحطاط فجعل لمصر كيانا ونشر المدنية فيها، فيجيبه النواب بأن مصر لم تكن دائما زرية ولا منحطة وإنما كل من يدرس «الأخبار التاريخية» و«سوالف آثار الديار المصرية» يعرف أن مصر كانت في تاريخها القديم أم المدنية والعمران وينبوع العلوم والفنون والآداب الذى ارتوت منه كل الحضارات الأخرى باختصار: لاتباهنا بجدك العظيم فنحن أيضا لنا وجود أعظم. والمبدأ الثانى الهام الذى أوضحه نواب البلاد هو أن انحطاط الأمة المصرية بعد مجدها القديم لم يكن من انحطاط المصريين أنفسهم ولكن من انحطاط ملوكهم: «لكن لتداول أيدى من لم يحسن تدبير ملكها من الملوك السابقين، تناوبتها نوائب الزمن». والشاهد على ذلك يا مولاى أن ملكين من أسرتك، عباس وسعيد، خربا كل آيات المدنية والعمران التى أقامها الملكان الآخران محمد على وإبراهيم باشا، على أرض مصر. وإعلان مبدأ أن فساد الأمم من فساد ملوكها، إعلان خطير لأن فيه تحميلا ضمنيا لإسماعيل نفسه للمسئولية عن عمار مصر أو خرابها.

والمبدأ الثالث الهام الذى أعلنه النواب يشبه أن يكون برنامجا للعمل رسمه النواب للخديو إسماعيل فخطبة العرش غامضة ليس فيها تفصيل واحد عما ينتوى الخديو أن يفعله لمصر غير قوله أنه سعيد بأنه

سيستكمل ما بدأه محمد على وإبراهيم باشا من المدنية والعمران. أما النواب فيحددون له أن محمد على وإبراهيم باشا لم يجددوا مجد مصر القديم إلا بالعمل على إزالة الفساد والفوضى المملوكية بإزاحة «الوخامة» وعلى إقرار الأحكام وإقامة «دعائم العدل بين الأنام» وعلى نشر التعليم «وإنشاء دوارس المدارس العلمية والحكمية»، أى إنشاء مدارس العلوم والآداب وعلى بناء قوة مصر العسكرية «من الاستحكامات الملكية، وإحكام العمليات الوطنية العائدة بعظيم النفع على عموم الرعية حتى بذلك حسدت مصرنا الأمصار» وتألبت على محمد على وحطمته.

والمبدأ الرابع الذى أعلنه الرد على خطاب العرش هو إدانته لعهد عباس وسعيد بوصفه عهدا مخربا للمدنية «ثم تولى على الأقطار المصرية وولايتها من لم يراعوا تلك المآثر العظيمة حق رعايتها ففترت همة مصر السابقة، وضعفت حركة تقدمها الفائقة». أما المبدأ الخامس الذى أعلنه النواب فى الرد على خطاب العرش فهو أن المصريين يعدون نجاح إسماعيل فى تغيير فرمان وراثة العرش فى ٢٧ مايو ١٨٦٦ عملا حضاريا خطيرا، لان نظام الوراثة العثمانى الذى كان يحصر وراثة العرش فى أرشد أعضاء البيت الملكى ملأ القصر الملكى بدسائس الأمراء والطامعين ورجال البلاط فخرب الحياة السياسية المصرية وحال دون استقرار البلاد.

ومن أهم ما ورد فى الرد على خطبة العرش اصرار النواب على تلقيب الخديو اسماعيل آنا «بعزيز مصر» (وتولاها العزيز بن العزيز) وآنا آخر «بسلطان مصر» (أطال الله عمر سلطاننا المهاب)، رغم علمهم بأن

الباب العالي رفض تغيير لقب إسماعيل إلى «عزيز مصر» حتى لايصبح السلطان عبدالعزيز عبدالعزيز، كما رفض تغيير لقبه إلى «السلطان إسماعيل» لان لقب «السلطان يضع والى مصر التابع على قدم المساواة مع سلطان تركيا المتبوع، فتم التراضى على أن يحمل إسماعيل لقب «الخديو» التى يقال أنها تعنى شيئا قريبا من «الإلهى» باللغة الفارسية واصرار النواب على التمسك بلقب «العزيز» أو بلقب «السلطان» يحمل معنى التحدى للباب العالى والنزوع إلى الاستقلال عن الدولة العثمانية.

ديكور.. أم منحة:

والخلاف بين الرافعى ولويس عوض حول تقويم مجلس الشورى لايقف عند تحليل خطب العرش والردود عليها، وإنما يمتد إلى فكرة إنشاء المجلس نفسه والأسباب التى دفعت الخديو إسماعيل إلى خوض المعترك البرلمانى، مما ألقى على المجلس شبهة «الديكور» أو «المنحة».. وهو ما يقول به الرافعى، وهو ما يرفضه لويس عوض فى فصل من أمتع فصول كتابه المذكور فيقول:

الشائع بين المؤرخين أن الخديو إسماعيل حين استحدث فى مصر الحياة النيابية فأنشأ أول برلمان مصرى باسم «مجلس شورى النواب» فى ١٨٦٦، إنما فعل ذلك تحقيقا لسياسته العامة وهى أن يجعل من مصر قطعة من أوروبا. وبهذا تكون الحياة النيابية فى مصر «منحة» من الخديو، وليست ثمرة كفاح ديمقراطى أو مطالبة شعبية، مما يغض من أهلية الشعب المصرى للحياة الديمقراطية. وهو رأى لم يسأم الاستعمار البريطانى من ترديده ليس فقط فى عصر إسماعيل، ولكن

طوال فترة الاحتلال البريطاني من ١٨٨٢ إلى ١٩٥٦ . وقد شارك الاستعمار الأوروبي الإستعمار البريطاني هذا الرأى الذى تبناه الاستعمار الامريكي أيضا بعد خروج أمريكا من الحرب العالمية الثانية الدولة الأعظم بين الدول العظمى . وقد كان طبيعيا أن يتبنى الاستعمار هذا ليتسنى له حكم مصر بالحديد والنار مباشرة أو من خلال الأوتوقراطية المصرية المستبدة لكي يقمع إرادته ويعرقل تقدمه ويحول دون خروجه من ظلمات العصور الوسطى إلى نور العصر الحديث، فيضمن بذلك تبعيته وييسر نهبه .

وقد وقع في هذا الفخ مؤرخ كبير مثل عبدالرحمن الرافعي حيث يقول فى الجزء الثانى من كتابه «عصر إسماعيل» ثم إن تأسيس هذا المجلس من غير أن تتبعه حركة مطالبة من الأمة جعله يأخذ شكل المنحة، ومن هنا نشأت سلطته ضئيلة ونفوذه يكاد يكون شكلياً . ومن جهة أخرى فنظام الانتخاب كان له أثر بال في تكوين المجلس، ذلك أن حصر حق الانتخاب في العمد والمشايخ أسفر عن انتخاب معظم النواب من بين العمد وأعيان البلاد، حتى صار جديرا بأن يسمى «مجلس الأعيان» . وهو يقول:

«ولو جعل إسماعيل باشا المجلس سلطة قطعية فى شئون الحكم، وخاصة في مسألة الضرائب والقروض، لبعث فيه روحاً من الحياة والنهضة ولأمكن أن تنال مصر على يده مزايا عظيمة، فإن تصرفات الحكومة المالية كانت فى حاجة إلى رقابة فعلية تتولاها هيئة نيابية . ولو وجدت هذه الرقابة لوضعت حدا للقروض الجسيمة التى تلاحقت فى عصر إسماعيل وأفضت إلى التدخل الأجنبى فى شئون مصر» .

وفى تقديرى - يقول لويس عوض - إن المثاليين من طلاب الكمال دفعة واحدة ينتظرون من كل شيء أن يكون كالسيد البدوى، يولد بأسنانه كاملة، ويريدون من الطفل أن يمشي دون أن يحبو ويتعجلون أن يروا فى مصر مجلس العموم البريطانى أو البرلمان الفرنسى دون ثورات أو فلسفات ثورية سابقة. ومع ذلك فهم يعلمون أن ٨٠٠ سنة من التاريخ الإنجليزى والتشنجات الشعبية الانجليزية تفصل الماجنا كارتا Magna Charta (١٢١٥) أيام الملك چون King John عن البرلمان الانجليزى اليوم، وإن قرونا دموية تفصل «مجلس الطبقات Etats G'e'eneraux (١٣٠٢) أيام الملك فيليب الرابع) Pbilippeiv عن البرلمان الفرنسى اليوم. ومع ذلك فهم يعلمون أن البرلمان الانجليزى احتاج إلى حرب أهلية امتدت خمس سنوات من ١٦٤٠ إلى ١٦٤٥ وإلى اعدام ملك هو شارل الأول ليقرر مبدأ أن التاج الانجليزى لايحق له فرض الضرائب دون موافقة البرلمان أى بعد أربعة قرون من الماجنا كارتا، تاريخ بدء الحياة الدستورية فى انجلترا.

وهم يعلمون أنه حتى صدور قانون التصويت العام فى انجلترا عام ١٨٦٠ كان حق انتخاب أعضاء البرلمان الانجليزى محصورا فيمن يدفعون للدولة ضريبة قدرها ٥٠ جنيها سنويا ، وإن هذا النصاب كان قبل قانون الإصلاح الأعظم فى ١٨٣٢ مائة جنيه سنويا.

وفى فرنسا تقرر مبدأ التصويت العام فى دستور ثورة ١٨٤٨ فأى عجب أن تبدأ مصر حياتها النيابية عام ١٨٦٦ بمبدأ «حصر حق الانتخاب فى العمد والمشايخ»، وأى عجب فى أن تبدأ مصر حياتها النيابية بإصرار التاج المصرى على الاستئثار بحق فرض الضرائب وعقد القروض بدون موافقة ممثلى الأمة؟

ويستطرد لويس عوض: وليس صحيحاً ما يفترضه الرافعي واللورد كرومر من أن إسماعيل أنشأ «مجلس شورى النواب» منحة منه ومنة على الأمة المصرية ليزيد من «رونق الحكم وبهائه» بلغة الرافعي أو كمجرد «ديكور» بلغة اللورد كرومر، «من غير أن تسبقه حركة مطالبة من الأمة». فمن يتأمل تحول «مجلس الأحكام» من هيئة عسكرية بحتة في عهد محمد علي وعباس الأول إلى هيئة مدنية تضم أعيان البلاد المصريين وذواتها الاتراك المتمصرين. ومن يتأمل انتقال الأغلبية في مجلس الأحكام إلى أيدي الأعيان المصريين، ومن يتأمل كثرة صراعات سعيد باشا مع «مجلس الأحكام» إلى حد البطش به مرتين خلال عهده القصير، ومن يتأمل انتقال رئاسة مجلس الأحكام من أحد أمراء البيت المالك وهو الأمير إسماعيل إلى شريف باشا يستطيع أن يرى بجلاء أن الملوك لايمنحون وإنما يرضخون صاغرين، ويستطيع أن يرى بجلاء أن سعيد باشا «صديق الفلاح» لم يكن صديق الفلاح لمجرد طيب النوايا وحسن السجايا، وإنما صادق الفلاح تحت ضغط اجتماعي قوي نشأ من استفحال طبقة جديدة تكونت في مصر من أوساط الملاك الزراعيين وغير الزراعيين المصريين هي طبقة المشايخ والعمد، ويستطيع أن يرى بجلاء أن كل حاكم مصري استقلالي النزعة وقع في تناقض أساسي مع الاستعمار العثماني - بل وأي استعمار على إطلاق القول - وقع نتيجة لذلك في مأزق الاختيار بين إرضاء سيده التركي وإرضاء رعاياه المصريين، فآثر إرضاء الرعايا لأنهم في نهاية الأمر رجاله وسنده في تحطيم التبعية على إرضاء سيده الذي لايكتفي بشيء أقل من التبعية. فلا محمد علي حين أنشأ مجلس المشورة في

١٨٢٩ من ٩٩ من الأعيان المصريين إلى جانب ٥٧ من علماء الدين ورجال الادارة، ولاسعيد حين أعاد إنشاء «مجلس الأحكام» من ١١ عضوا من الأعيان المصريين إلى جانب أعضائه من الذوات، ولا إسماعيل حين إنشاء «مجلس شورى النواب» بمرسوم ٢٢ أكتوبر ١٨٦٦ من ٧٥ عضوا ينتخبهم لمدة ثلاث سنوات عمد البلاد ومشايخها وأعيان القاهرة والإسكندرية ودمياط، لا هذا ولا ذاك ولا الثالث كان يمنح الأمة المصرية «منحة» الحكم النيابي، وإنما كان يتجاوب مع ضغط الطبقات المصرية الجديدة في الريف والحضر التي بدأت تتخلق في مصر درجة درجة منذ أن صفي بونابرت نفوذ المماليك وأملاكهم ومصر الحكم المصري حتى تحولت إلى طبقات قادرة على الحركة الإجتماعية والسياسية وعلى الفكر الإجتماعي والسياسي بعد أن أصبحت قادرة على الحركة الاقتصادية.

وقد سار محمد علي وسعيد وإسماعيل في نفس اتجاه التمصير والتجاوب مع الضغط المصري للمشاركة في الحكم والإدارة، فواجهوه بهذه المجالس النيابية لا حبا منهم في الديمقراطية، فقد كانوا جميعا أوتوقراطيين، ولكن تحالفا مع المصريين في مواجهة الباب العالي. وقد كان طبيعياً جداً منهم أن يجعلوا من هذه المجالس النيابية مجالس «مشورة» لامجالس تشريع حتى لاتنتقل السلطة الفعلية من أيديهم إلى أيدي الطبقات الجديدة. وما تاريخ الديمقراطية المصرية إلا تاريخ هذا الصراع على السلطة بين «العرش» و«الأمة» ثم بين «العرش» و«الشعب» وكان محور هذا الصراع هو أسس الدستور والبرلمان، أما ملوك مصر الذين قبلوا التبعية للباب العالي (عباس الأول وتوفيق وعباس الثاني)

أوقبلوا التبعية لانجلترا (السلطان حسين والملك فؤاد) فقد دخلوا فى صراع رهيب مع حركة الديمقراطية المصرية، وحلوا أزمة الاختيار بين السيد الأجنبى ورعاياهم المصريين بالتحالف مع السيد الأجنبي لتجميد إرادة الأمة المصرية.

فإسماعيل الذى كان يعد لإعلان استقلال مصر عن الدولة العثمانية فى ١٨٦٩ مع افتتاح السويس أنشأ تمهيدا لذلك «مجلس شورى النواب» منتخبا من أعيان المصريين ليواجه إرادة تركيا بإرادة مصر. وقد أكد هذا معنى خطيرا في التاريخ المصرى وهو أن تاريخ الديمقراطية المصرية كان دائما الوجه الآخر من تاريخ القومية المصرية ومن دعوة «مصر للمصريين» فى جميع المجالات، ومن تاريخ الكفاح من أجل استقلال مصر. فخريطة مصر السياسية عبر قرنين من الزمان تسجل بصورة رتيبة أن كل عهد بطش بالديقراطية المصرية كان يقترن دائما بمحاولة نسف القومية المصرية وتذويبها في ولاءات وإطارات روحية أو ثقافية أو حضارية أشمل منها ولاسيطرة لمصر عليها تحت شعار وحدة العالم العثمانى أو حدة العالم الإسلامي أو حدة العالم العربى أو وحدة مصر والغرب أو الشرق.

الأزمة المالية

سواء ولدت الحياة النيابية المصرية في شكل «منحة» من ولي النعم الخديو إسماعيل، أو جاءت استجابة للأفكار العصرية التي غرس بذرتها رفاعة رافع الطهطاوي في عهد محمد علي ونضجت ثمرتها في عصر إسماعيل، فمما لاشك فيه أن سنة التطور التي هي أقوى من القوانين والإرادات الخاصة، فرضت على مجلس شورى النواب أن يمضي في طريق النمو والارتقاء. وجاءت الأزمة المالية التي تفاقمت بسبب سفه الخديو لتعجل بنضج المجلس الوليد، وتضعه في موضع المسئولية النيابية، حتى لو تم ذلك على غير رغبة الخديو وهواه، بل نقول أن هذه الأزمة التي استحكمت حول رقبة إسماعيل، فرضت عليه أن يفزع إلى نواب الأمة، ويستنهض همتهم ليقفوا إلى جانبه في مواجهة النفوذ الأجنبي الذي استفحل حتى أوشك أن يضع البلاد ومعها العرش على حافة الهاوية.

ومن هنا نتبين أن الأزمة المالية ـ وما يتصل بها من فرض الضرائب على الأهالي ـ كانت سببا من أسباب تطور الحياة النيابية في

مصر، مثلما حدث في انجلترا عندما أضطر الملك «جون» إلى التوقيع على وثيقة العهد الأعظم «الماجنا كارتا» في سنة ١٢١٥ ويلتزم بمقتضاها بعدم فرض ضرائب إلا بعد الرجوع إلى البرلمان. الأمر الذى أدى في النهاية إلى تطور النظام البرلماني في انجلترا، وإعطاء مجلس العموم سلطات كانت حكرا على الملوك من قبل. وحدث في مصر في أواسط القرن التاسع عشر ما حدث في انجلترا في القرن الثالث عشر.

سوف نرى في غضون هذا البحث كيف اضطر إسماعيل إلى الاستنجاد بمجلس شورى النواب ليسمحوا له بفرض ضرائب جديدة توفر له سيولة نقدية تخفف من القبضة الأوروبية الجديدة التي أخذت بخناقه. وكان رجوع الخديو - سليل الأتوقراطية والحكم المطلق - كسبا دستوريا هاما، وتحولا خطيرا في مجرى العلاقات الأزلية بين الشعب المصرى وحكامه، فلأول مرة يكتسب الشعب هذا الحق الذى افتقده منذ قرون سحيقة حيث كان الحكام والسلاطين والأباطرة ينفردون بفرض الضرائب على الشعب دون استئذان أو استشارة، ويستخدمون في جبايتها وسائل القمع والبطش والإرهاب(٤٤) .

● كيف انتقلت الأزمة المالية من الشرنقة الصماء في قصر إسماعيل إلى دهاليز مجلس شورى النواب؟ وكيف تسللت من أيدى دهاقنة المال والبنوك والسماسرة والمرابين إلى أيدى ممثلى الشعب، وقد كان محرما عليهم النظر في هذه الأمور السيادية التى اختص بها الخديو وبطانته ؟

لقد مر دور الانعقاد الأول لهذا المجلس (من ٢٥ نوفمبر ١٨٦٦ إلى ٢٤ يناير ١٨٦٧) دون أن تسجل مضابط المجلس أية مناقشة حول

مسألة الديون أو الضرائب، ورأينا كيف انحصرت مداولات الأعضاء حول مسائل محلية بحتة مثل التعليم وردم البرك ونظام السخرة وإلغاء عقوبة الضرب على العمد وكان أقصى ما وصلت إليه المداولات حول مسألة الضرائب هو اقتراح من إبراهيم أفندى الشريعى (المنيا) بتقسيط الأموال الأميرية (الضرائب على الأطيان الزراعية) وتحديد مواعيد تقسيطها منعا للفوضى ولإرهاق المواطنين، ومع أن الاقتراح كان يتعلق - فقط - بتنظيم عملية الدفع، وليس الحديث عن فداحة الضرائب - فإن الحكومة طلبت تأجيل النظر فى هذا الاقتراح إلى السنة التالية «نظرا لأن تعديل مواعيد الضرائب مرتبط بدفع الحكومة فوائد ديونها الأجنبية فى المواعيد المحددة لسداد الأموال الأميرية، مع وعد بأن يبحث المجلس مستقبلا موضوع الديون وموضوع الضرائب وتقسيطها فى وقت واحد» . فأقر المجلس وجهة نظر الحكومة .

مسألة عابرة :

كانت هذه هى الاشارة الوحيدة إلى موضوع «الضرائب والديون» التى وردت فى مساجلات دور الانعقاد الأول، وهى - وإن كانت قد جاءت عبر مسألة ثانوية هى تقسيط الأموال الاميرية - إلا أنها إشارة لها دلالة لايجوز أن تفوت على الباحث الذى يرصد التفاعلات التى كانت تجرى فى رحم الحياة السياسية المصرية، وتبشر بميلاد دور جديد للرأى العام المصرى، وأعنى به حق المشاركة فى مناقشة مسألة الضرائب والديون الأجنبية، وارتباط كل منهما بالآخر، وانعكاس كل

منهما على دافع الضرائب الذى أصبح من الآن فصاعداً مسئولاً عن تسديد الديون التى اقترضها إسماعيل.

في يوم الإثنين ١٦ مارس ١٨٦٨ افتتح الخديو اجتماع المجلس فى مكانه المعتاد بالقلعة، وكان يصحبه كبار رجاله وعلى رأسهم شريف باشا رئيس مجلس الأحكام، وعبر الخديو عن أسفه للتأخير فى عقد المجلس عن موعده بسبب وعكة صحية ألمت به وبعد اختيار عبدالله باشا عزت رئيسا للمجلس، قام خيرى باشا بإلقاء خطبة العرش. وهى خطبة طويلة أشار الخديو فيها إلى المسائل التى قررها المجلس في دوره الأول، وما أنفذته الحكومة منها، وما لم تنفذه وبيان الأسباب، فذكر مما نفذ: إنشاء مدرستى بنها وأسيوط «والباقى تحت الإجراء» وفك العهد، وإضافة الأطيان الزائدة فى المساحة، وضم الأراضى القابلة للزراعة فى المساحة، وضم الأراضى القابلة للزراعة إلى من يرغبها من الأهلين، وذكر أن ترتيب الأنفار للسخرة بالدور - طبقا لقرار المجلس - متوقف على إتمام تعداد الأنفس، وأن مسألة سندات المعاملة موقوفة على إصدار قانون الرهون الذى كان موضع البحث.

أما عن مسألة تعديل أقساط الأموال الأميرية فقال عنها خطاب العرش: إن اجراء هذا التعديل لايخلو من صعوبة «والحكومة لا تقصر عن إجرائه حسب الإمكان» ووعد بإطلاع أعضاء المجلس على الأسباب التى أخرت تنفيذه، وطلب المذاكرة فى هذا الموضوع لتقريره على «صورة مستحسنة» وأشار الخطاب إلى مشاريع الاصلاح التى تعتزم الحكومة إجراءها وعرضها على المجلس للمداولة فيها.

وختم الخطبة بقوله: «والواجب علينا الاجتهاد في تدارك الأسباب الموصلة إلى عمارية الوطن، والله المرشد إلى أقوم طريق ومنه العناية والتوفيق».

وأعدت لجنة الرد على خطاب العرش جوابا مشتملا - في رأى الرافعي - على العبارات المألوفة في تقديم فروض التشكر للذات الخديوية، مع التنويه بمشاريع الإصلاح التي جاءت في خطبة العرش، وأعرب المجلس عن ابتهاجه لما أذن به الخديو من إطلاع الأعضاء على الأحوال المالية للوقوف على الأسباب التي أخرت أقساط الأموال الأميرية.

وبالفعل، تشكلت لجنة من ثلاثة أعضاء انتقلت إلى ديوان وزارة المالية والتقت بوزيرها الجديد: إسماعيل باشا صديق المفتش الذي عين في هذا المنصب مع الاحتفاظ بمنصبه الأصلي مفتشا لعموم الأقاليم، وبهذا القرار الخطير ارتفعت مكانة هذا الرجل الخطير، وتجمعت في يده خيوط الأمور المالية كلها، وتهيأت له الفرصة كي يلعب الدور الأكبر في إفساد الحياة السياسية بفضل قدراته الفائقة على النصب والاحتيال والكذب والتضليل. وقد وضحت هذه الخصال الذميمة في أول لقاء له مع لجنة مجلس شورى النواب التي كلفت ببحث مسألة الديون بناء على إشارة من الخديو.

ماذا فعل هذا الأفاق مع اللجنة الثلاثية؟

لقد أطلعهم على دفاتر مزيفة تحتوى على أرقام وبيانات مضللة، قلبت الوضع المالي من حالة السوء والتدهور، إلى حالة من الانتعاش

والرخاء.. وزعم لهم أن الميزانية تحتوى على فائض فى الايرادات يبلغ مليونين و٥٨٤ ألف جنيه (!!) فى الوقت الذى كانت فيه الميزانية تئن من فداحة الديون (!!) ويصف الرافعى هذه الأرقام بأنها مبنية على الكذب والتضليل، وتخالف الواقع من كل الوجوه، فإن مصروفات تلك السنة (٨٦ ـ ١٨٦٩) زادت على إيراداتها بنحو عشرة ملايين جنيه، استدانتها الحكومة بقروضها المتلاحقة وديونها السائرة (!!) ولم يقم فى المجلس أحد يناقش الحكومة ويسألها عن سبب الضيق المالى الذى تشعر به ويستدعى عقد سلفه جديدة، إذا كانت الايرادات تزيد على المصروفات بالمقدار الذى ظهر فى الميزانية (!!) وألف المجلس لجنة أخرى من خمسة أعضاء منهم أعضاء اللجنة الأولى للبحث عن الوسائل الأولى للبحث عن الوسائل الكفيلة بمعالجة الحالة المالية، فقدمت اللجنة تقريرا تدل القرائن والملابسات على أنه موعز به من الحكومة، واقترحت زيادة الضرائب على الأطيان بمقدار السدس وعقد قرض داخلى.

وألقى إسماعيل صديق (المفتش) بيانا أمام المجلس خلاصته أنه، مع مايزعمه من زيادة الإيرادات على المصروفات، فإن الحاجة تدعو إلى زيادة الضرائب وعقد قرض داخلى بخمسة ملايين من الجنيهات، لأداء الباقى من ديون الحكومة، فوافق المجلس على وجهة نظره، وانتهت المناقشة فى المسألة المالية بنتيجتين سيئتين:

● الأولى: زيادة الضرائب على الأطيان بمقدار سدس المربوط من الأموال لمدة أربع سنوات (وبعد انتائها تقررت بصفة دائمة).

● الثانية: عقد قرض جديد زاد من عبء القروض، ولم يخصص شيء منه لسداد الديون السابقة، بل ابتلعته سياسة الإسراف التي كان يتبعها الخديو، وينفذها إسماعيل صديق. ولم يعقد القرض الجديد داخل البلاد، بل اقترضته الحكومة في الخارج من بيت (اوبنهايم) المالي، ولعلها أرادت بذلك أن تكتم حقيقته وشروطه عن الأنظار، ولم يكن مقداره خمسة ملايين جنيه، كما وعد إسماعيل صديق باشا، بل كان مبلغا ضخما بلغ حوالي ١٢ مليونا من الجنيهات. ويصف الرافعي هذا التصرف بأنه دليل على مبلغ استهانة الحكومة بقرارات مجلس شورى النواب، وانفرادها بالتصرف في المسائل المالية التي تعتبر الرقابة عليها من أخص حقوق الهيئات النيابية.

على كف عفريت:

لقد أخذت الغيوم تتجمع في سماء مصر بسبب استفحال الديون التي اقترضها الخديو من بيوت المال اليهودية في فرنسا وانجلترا، وبات مستقبل الديار المصرية وكأنه على كف عفريت بعد أن تكالب المرابون والسماسرة على أرض الكنانة، وكلهم يسعى إلى تلبية ظمأ الخديو إلى المال، وكان العقل المدبر لهذه الصفقات الخسيسة هو إسماعيل صديق (المفتش) الذي كان يعرف شبق سيده ومولاه إلى المال. فسخر عبقريته الفذة في النصب والتحايل للحصول على القروض من أي سبيل.

● فمن يكون هذا الوزير الذي كانت حياته وصمة عار في تاريخ مصر الحديث؟ والذي كان يوصف بأنه «الخديو الصغير» و«الصدر

الأعظم المصرى»، رغم أنه خرج من قاع المجتمع، فهو «ابن فلا
وصعلوك الأصل، طالما سد أجداده، بل أبوه ذاته، تحت الكربا
وازرقت أرجلهم، وتدفقت دما من تعاقب السياط عليها.. ولـ
تصاريف القدر دفعت بأمه إلى قصر الأميرة «خوشيار» لتعمل مرضـ
لابنها إسماعيل. وبذلك انفتحت أبواب العز أمام إسماعيل صديق ليصـ
أخا في الرضاعة للخديو إسماعيل، ورفيقا له في مراتع الصـ
والشباب.. وظل يرافق الخديو وهو يصعد أريكة الحكم فحظى بالمناصـ
العالية ومنها وظيفة «المفتش» على أعمال دائرة الخديو أولا، ثم مفـ
على أعمال الحكومة المصرية ثانيا. فلما اطاح الخديو بوزير ماليـ
اسماعيل باشا راغب، وقع اختياره على اسماعيل المفتش ليتقلد ـ
المنصب الخطير في وقت كانت فيه مالية البلاد تترنح تحت ضربا
أصحاب الديون. ومن المؤكد أن هذا الاختيار لم يكن خالصا لوجه ا
والوطن، وانما لرغبة الخديو في اختيار رجلي يلبي كل نزواته. وإلـ
صورة وصفية لهذا الرجل الفذ كما رسمها إلياس الأيوبي مؤرخ عـ
إسماعيل:

كان إسماعيل صديق هذا رجلا ماهرا في الواقع، ثاقب الرأ
متفتق الذهن، يدرى، كما لا يدرى غيره، كيف تستخرج النقود ـ
مدافنها، وكيف يتوصل إلى تحقيق الرغائب ونيل الأغراض، لا يوقـ
في سبيل إحراز رضا مولاه هاجس، ولايهمه أن يرتكب دنية، ولا إثـ
إذا كانت تلك الدنية وذلك الإثم يعززان مركزه، ويظهرانه في مظـ
الرجل المخلص، وكان علاوة على ذلك، هماماً نشيطاً، يحب الشغـ
ويلج أبوابه برغبة أكيدة.

كما أنه كان كبير المطامع، شبقا نساء وأموالا ولذائذ، فما استلم وزارة المالية، إلا وظهر الفرق حالا بينه وبين سلفه، وحل تشهيل الأعمال محل المطل فيها، والبت بسرعة في الأمور محل التخبط والتردد، ودفعت الأذنات المالية في أوقات استحقاقها، بدون إبطاء، لإدراك الوزير الجديد ما في عمل ذلك من المصلحة لمركز الحكومة، ولما كان اسماعيل صديق يفتقر إلى الخبرة في الأمور المالية - وإن صحت تسميته ماليا ولادة - فإنه اتخذ أخصاء من ذوى الدراية فيها، وتلقى عليهم دروسا عملية جعلته في مدة يسيرة كفئا لمقاومة أحذق عمليات السلفيات والاقتراض، ولم يعد يوقفه وسواس، مهما كان نوعه عن السوق مباشرة إلى ما يقصد من الأغراض، وبرع في ضروب المخاتلة براعة حملت البعض على إلباسه بحق قول القائل: إنما أعطيت الكلمة للإنسان لكي يخفي فكره». وظهر ذلك جليا للماليين الغربيين الذين استمرأوا حلاوة التوسط بين الخديو والأسواق المالية للأوروبيين.

وسوف نرى صدق هذا الوصف في مسلك المفتش، وبراعته في الغش والتضليل والخداع.

قصة الديون:

لقد ظهر اسماعيل صديق في وقت مناسب تماما لأطماعه وجشعه وقدرته على جلب الأموال، وهو نفس الوقت الذى اضطربت فيه مالية البلاد بسبب ديون الخديو. وقصة الديون يجب أن تدرس من بدايتها لما لها من آثار جسيمة على استقلال مصر ووقوعها فريسة للاحتلال البريطاني لفترة تزيد على سبعين عاما.

لم تمد حكومة مصر يدها إلى القروض الأجنبية طوال عهد محمد علي وحفيده عباس الأول، وكان سعيد باشا هو أول حكام الأسرة العلوية الذي اقترض من الخارج، ومضى إلى حتفه تاركا لخلفه إسماعيل ديناً قدره أحد عشر مليونا من الجنيهات، وبدلا من أن يقوم إسماعيل بتسديد هذا القرض ويجفف ميزانية البلاد من أية أعباء خارجية، اكتفى بتسديد الفوائد المقررة على القرض الذي ظل ثابتاً، ولم يمض العام الأول من حكمه حتى بدأ ينتهج سياسة الاقتراض من البنوك الاجنبية. وفي خلال الأعوام الأربعة التالية كانت ديونه قد بلغت أربعة عشر مليون جنيه، بخلاف عشرة ملايين جنيه قيمة الديون السائرة المحلية، وبذلك بلغ مجموع الديون غداة نشأة مجلس شورى النواب: حوالى خمسة وثلاثين مليون جنيه، ورغم أن هذه السياسة الخرقاء كانت موضع استهجان المؤرخين، إلا أن إسماعيل لم يعدم محامياً قديراً يدافع عنه ويبرر لجوءة إلى الاقتراض. أما هذا المحامي فهو الدكتور لويس عوض. فهو يبرر لإسماعيل الاستدانة من الخارج لأن مشروعاته العمرانية والحضارية، ومشروعاته العسكرية ومشروعاته الاستقلالية تجاوزت حصيلة إيرادات الدولة التى قدرت فى الميزانيات «المريبة» التى أعدها إسماعيل باشا المفتش بمبلغ سبعة ملايين و٢٩٠ ألف جنيه ورغم أن لويس عوض يعترف بأن هذه الميزانيات «مريبة» إلا أنه يعتمدها ويوافق عليها لأنها كانت تستخدم فى مشروعات حضارية، ومعنى ذلك أنه لا مانع من إرهاق ميزانية البلاد وتهديد استقلالها طالما أنها تستخدم في أغراض حضارية، بل يمضي لويس عوض إلى ما هو أبعد لتبرير مسلك إسماعيل والرد على منتقديه في صيغة أدبية

عاطفية فيقول: وكانت أكثر مشروعات إسماعيل التى كان ينفذها بسرعة محمومة لاهثة، وكأنه يسابق الموت أو يريد أن يسطع مجده في السماكين بأسرع مما سطع مجد محمد علي: مشروعات استثمارية طويلة المدى لاتدر عائداً فورياً، ولذا انتفع بها من جاء بعده، ولم يصب هو منها إلا الارتباك المالى، ومثلها: حفر الترعة الاسماعيلية وحفر الترعة الإبراهيمية ومد السكك الحديدية وخطوط التلغراف وتوسيع الموانى.. الخ. أو مشروعات خدمات مدنية وحضارية بلا عائد مادى مباشر مثل: نشر التعليم وإنشاء الكبارى وبناء الأوبرا والعناية بالصحة العامة، ورصف الطرق وتجميلها، أو مشروعات وطنية تحسب بحساب المجازفة: كبناء قوة مصر العسكرية والتغلغل فى إفريقيا، ومشروعات لشراء سيادة مصر بالمال، وهذه يصعب تقييمها

هذه وجهة نظر مفكر ينظر إلى ديون إسماعيل نظرة مستقبلية تقدمية، تتجاوز الواقع المرير الذى عانته مصر وشعبها، ويتجاهل المصير الذى انتهى باحتلال مصر، ويستشرف خيوط النور التى انبثقت من وراء ليل طويل كالح السواد.

مجلس الأعيان

في يقين بعض الباحثين في تاريخ الخديو إسماعيل، أنه لم يشرع في إقامة حياة شبه نيابة، إلا بعد أن ظهرت بوادر الأزمة المالية التى نجمت عن سياسة الاقتراض الوبيلة، وما جلبته على ميزانية البلاد من خراب، فتفتق ذهن إسماعيل عن فكرة قيام مجلس شورى النواب ليكون مجمعا لأعيان البلاد وكبار ملاك الأطيان، وهم الذين يتحملون العبء الأكبر في ضريبة الأرض.. التي هي الشريان التاجي الذى يضخ المال الميرى في خزينة البلاد، وهم أيضا أصحاب النفوذ والثراء في الريف، وإليهم المرجعية في حركة الفلاحين، وبيدهم مقاليد الأمور في مجتمع تحتم تقاليده بأن يحترموا كبيرهم، ويستمعوا له ويطيعوا، وقد صنع إسماعيل بيده هذا «الكبير» عندما وضع نظام العمد، فصار لكل قرية عمدة - وهي وصف مشتق من العميد أو العمود - يجرى انتخابه من كل أهل القرية انتخابا حرا مباشرا وعلينا، وفي يوم الانتخاب يجتمع الأهالي في جرن القرية، مثلما كان يحدث في مدن اليونان القديمة، وتعلن الحكومة عليهم أسماء المرشحين، فيتقدم الفلاح إلى الصندوق

تحت إشـراف المأمـور، ويعلن علـى المـلأ اسم المرشح الذى يخـتـاره، فيصبح صاحب الأغلبية «عمدة» يعاونه مشايخ القرية الذى كانوا - قبل نظام العمد - يهيمنون على شئون القرية، ويمثلون حلقة الوصل بين جهاز الدولة فى عليائه، وجموع الشعب فى الريف.

من هذا اليوم من عام ١٨٦٤ نشأت حلقة وسيطة فى سلسلة الجهاز الإدارى بين القمـة والقـاعـدة، القمـة التى تحكم البلاد حكمـا مطلقـا، والقاعدة التى لا ترى من وجوه السلطة، على مدار العام، سوى وجه جابى الضرائب الذى ينقض عليهم كالوحش الكاسر، إذا حدث قصور أو تلاعب أو عبث فى جمع الضرائب، وحوله شر ذمة من القواصين فى أيديهم كرابيج لاسعة، وفى قلوبهم قسوة بالغة، وفى نفوسهم رغبة دفينة فى الشر والإيذاء والتنكيل.

هكذا كان الحال فى عهد محمد على وولده إبراهيم وحفيده عباس الأول، فلما جاء سعيد - وكان ميالا بعواطفه نحو المصريين - منحهم حق تملك الأرض الزراعية بمقتضى اللائحة السعيدية الصادرة فى ١٥ أغسطس ١٨٥٨، فأحدثت طفرة هائلة فى الكيان الاجتماعى المصرى، كان لابد أن تعقبها طفرة سياسية آتت أكلها فى عصر إسماعيل، فقد ظهرت على قمة الهرم الاجتماعى طبقة كبار ملاك الأراضى - بعد أن كانت حكراً على الذوات الترك والشركس - وأصبح من حقها ومن واجبها أن تشارك فى صياغة الحياة السياسية المصرية بمقتضى ملكيتها لمصدر الثروة الأساسى - الأرض - وبمقتضى ارتباطها بالسواد الأعظم

من الشعب، فمن هؤلاء الأعيان كان العمد، ومن العمد كان الناخبون الذين اختاروا أعضاء مجلس شورى النواب.

أراد إسماعيل أن يمد يده إلى أعيان البلاد، ويتقرب إليهم لعله يسد الفجوة الموروثة بين حكام مصر وشعبها، وهي فجوة قديمة جعلت المصريين يتهيبون حكامهم، وينظرون إليهم نظرة الشك والكراهية، وبدأ إسماعيل أولى محاولات التقريب سنة ١٨٦٤ بأن دعا لفيفا من عمد كل أقليم للاجتماع مع مدير الأقليم لدراسة الشئون والمشاكل المحلية، ثم ذهب إلى طنطا بدعوة من أعيان الغربية للاجتماع بهم، وهو في كل هذا يسعى إلى اجتذاب طبقة كبار الملاك لتقف إلى جانبه في محنة الديون، وإلى هذه الطبقة المصرية الأصيلة اتجهت أبصار إسماعيل الذكي لكي تشاركه هموم الديون وتبعاتها، ومن هذه المصلحة المشتركة أشرقت طلائع الفجر الجديد للحياة النيابية، التي ما لبثت أن تطورت مع تفاقم الأمة ويعد أن كان المجلس الوليد ظلاً باهتا للخديوية المطلقة، تشكلت ملامحه البارزة وصار له أنياب تقاوم النفوذ الأجنبي وتتصدى له، وتحبط محاولاته لاعلان إفلاس مصر.

أزمة ثقة:

كان إسماعيل يعرف في قرارة نفسه أن هناك أزمة ثقة بينه وبين المصريين واعترف هو نفسه بأنهم «محكومون بالمنخفط»، فأراد أن يكسب ثقتهم لتحقيق مشروعه الحضاري الكبير، وإقامة نظامه الجديد على زعامة الريف والأعيان، ليستطيع بهم، ويفضل نفوذهم ومكانتهم التغلغل في صميم الخلايا الريفية، وإرشاد الحكومة إلى خير السبل

لتحسين الإدارة وتدبير المال، وقد كانوا جديرين بذلك لمكانتهم بين الناس، ولما كان هؤلاء الأعيان يمثلون في ذاتهم الإرادة الحية للجماعة الريفية التي تهيمن على جوانب الريف، فقد رأى الخديو دعما لجهازه الإداري وتقويته، تطعيمه بنخبة قوية من هذه العناصر، ليتمكن بهم من حمل رغباته إلى سائر أفراد الشعب، والاتصال بهم أتصالا مباشرا، ولذلك تعمد إسماعيل أن يأتي تشكيل مجلس شورى النواب معبرا تعبيرا عمليا عن الحقيقة التي تقول إن السواد الأعظم من شعب مصر من الفلاحين، ولكي يستطيع الخديو أن يتصل أتصالا مباشرا بشئون الملكية الزراعية وصميم الريف، كان لابد أن يكون ذلك عن طريق هيئة منتخبة من الملاك، وكان في إستطاعة الخديو ألا يراعي هذا الشكل النيابي القائم على الانتخاب، فينص على تشكيل المجلس بالتعيين، فلماذا لجأ إسماعيل إلى الانتخاب عن طريق العمد، ولم يلجأ إلى التعيين؟

يبرز الدكتور عبدالعزيز رفاعي في كتابه «فجر الحياة النيابية» لجوء إسماعيل إلى الانتخاب، وليس التعيين، رغبة منه في كسب طبقة كبار الملاك إلى جانبه لضمان معنى التعاون، وعلاج أزمة الثقة بينه وبين الفلاحين التي سار عليها أسلافه منذ محمد علي، ولذلك قصرت اللائحة الاساسية حق الانتخاب على طبقة أصحاب الأراضي من العمد الأثرياء، ومن العناصر القوية الخبيرة بشئون الزراعة والريف، ونظراً لعدم وجود هذه الطبقة في عواصم الحضر مثل القاهرة والاسكندرية ودمياط، فقد نصت اللائحة على تمثيل نظراء هؤلاء من تجار هذه المدن وأعيانها، وبذلك كان الانتخاب مقصورا على طبقة كبار الملاك

ليتمشى ذلك وأهداف المجلس، إذ لم يكن الخديو بحاجة إلى تمثيل المتعلمين أو التجار، لأنه لم يكن يسعى لتحقيق أهداف «أمة».. بل يسعى إلى أهدافه على حساب الملكية الزراعية.

نظامنامه:

لقد وضع رسماعيل لمجلس شورى النواب لائحة تنظيمية «نظامنامه» تحدد طريقة الانتخاب وأسلوب المناقشة والحصانة.. إلخ أهم أركانها:

● يتألف المجلس من ٧٥ عضوا ينتخبون لمدة ثلاث سنوات، ويتولى أنتخابهم عمد البلاد ومشايخها فى المديريات (المحافظات)، وأعيان القاهرة وينتخبون ٣ نواب، والاسكندرية ولهم نائبان، ودمياط ويمثلها واحد، على أن يكون التمثيل بحسب تعداد كل منطقة.

● يشترط فيمن ينتخب عضوا أن يكون مصريا، ولا يقل سنة عن ٢٥ سنة، وأن لا يكون قد صدر ضده حكم فى جناية، أو حكم بالافلاس، أو حكم بالفصل من الحكومة من هيئة تأديبية، وأن يكون ملما بالقراءة والكتابة فى الانتخاب السابع (أى بعد ١٨ سنة) أما الناخبون فقد أشترط فيهم الإلمام بالقراءة والكتابة فى الأنتخاب الحادى عشر أى بعد ٣٠ سنة من تأسيس النظام النيابى (ومعنى ذلك أن الخديو كان يخطط لمحو الأمية خلال ٣٠ سنة).

● يعين الخديو رئيس المجلس ووكيله دون ترشيح من المجلس.

يفتتح الخديو المجلس بمقال الافتتاح (خطبة العرش) ويرد عليها

المجلس دون إبدا رأى قاطع فيما ورد فيها.

● يتمتع أعضاء المجلس بالحصانة البرلمانية أثناء انعقاده - فقط - إلا في جرائم القتل.

● لا يجوز لعضو أن يتكلم إلا بإذن من رئيس المجلس، وعلى المجلس احترام رأى الأقلية، والاصغاء لأقوالها وملاحظاتها، ويكون التصويت علنيا، والقرارات تتخذ بالأغلبية، ولا يجوز لعضو طبع أو نشر مناقشات المجلس إلا بإذن من رئيس المجلس.

● جميع قرارات المجلس استشارية، فهي بمثابة توصيات للخديو يفعل بها ما يشاء.

للخديو الحق في دعوة المجلس للانعقاد، وفي مد دورته، أو تأجيلها وفى حل المجلس وتبديل أعضائه بإجراء انتخابات جديدة.

ينعقد المجلس شهرين كل سنة من ١٥ كيهك إلى ١٥ أمشير (منتصف ديسمبر إلى منتصف فبراير) ويكون اجتماعه في القاهرة، وجلساته سرية.

أسلافنا :

أسفرت أول انتخابات عن فوز ٧٥ عضوا نشر الرافعي أسماءهم حسب محافظاتهم في الجزء الثاني من كتابه (عصر إسماعيل) حتى نتعرف على أسلافنا في الحياة النيابية ونتبين مبلغ ما أدوا من واجبات النيابة وتكاليفها. وهم :

القاهرة : موسى بك العقاد، الحاج يوسف عبدالفتاح، السيد محمود العطار.

الاسكندرية: الشيخ مصطفى جميعي، السيد عبدالرازق الشوربجي.

دمياط : علي بك خفاجي.

الغربية : أتربي بك أبوالعز، علي كامل عمدة القصرية، الحاج شتا يوسف عمدة أبو مندور، محمد حمودة عمدة برما، سيد أحمد رمضان عمدة قسطا، عبدالحميد زهرة عمدة حانوت، علي أبو سالم دنيا عمدة مسهلة، سليمان الملواني عمدة ميت حبيش القبلية، أحمد الشريف عمدة ابيار.

المنوفية : الحاج علي الجزار عمدة شبين الكوم، محمد أفندي شعير عمدة كفر عشما، موسى أفندي الجندي عمدة ملوف، أحمد أبوحسين عمدة كفر ربيع، حماد أبو عامر عمدة جنزور، علي أبو عمارة عمدة مليج، محمد الانبابي عمدة جزي.

البحيرة: الشيخ محمد الصيرفي عمدة قليشان، حسنين حمزة عمدة البريجات، أحمد موسى عمدة نكلة العنب، الحاج علي عمار عمدة ببيان، الشيخ محمد الوكيل عمدة سمخراط.

الشرقية والقليوبية: الحاج نصر الشواربي من قليوب، محمد الشواربي من قليوب، أحمد افندي أباظة من منيا القمح، الإمام الشافعي أبوشنب عمدة الخانكة، علي حسن حجاج عمدة الرملة، الشيخ محمد جمال الدين عمدة الجديدة، محمد عبدالله عمدة الصنافين، المعلم

سليمان سيدهم عمدة بندق، بركات الديب عمدة القرين، محمد أفندى عفيفي عمدة الزوامل، عبدالله عياد عمدة كفر عياد.

الدقهلية: هلال بك، سيد أحمد أفندى نافع عمدة دنديط، محمد بك سعيد من نوسا البحر، إسماعيل أفندى حسن عمدة تمى الامديد، الشيخ محرم على عمدة السنبلاوين، الشيخ العدل أحمد عمدة جزيرة القباب.

الجيزة: عامر أفندى الزمر عمدة ناهية، إبراهيم أحمد المنشاوى عمدة زاوية دهشور، عبدالباقي عزوز عمدة الرقق (الرقة).

الفيوم وبنى سويف: حزين الجاحد عمدة العجميين، على سيد أحمد عمدة الزربى، زايد هندى عمدة جزيرة بباء محمد حسن كساب عمدة النويرة، جرجس برسوم عمدة بنى سلامة.

المنيا وبنى مزار: إبراهيم أفندى الشريعى عمدة سمالوط، حسن أفندى شعراوى عمدة المطاهرة، إسماعيل أحمد عمدة بنى أحمد، أحمد على عمدة الزاوية، أحمد حبيب عمدة الفنت، ميخائيل اثناسيوس عمدة أشروبة.

أسيوط: سليمان افندى عبدالعال من ساحل سليم (أبو محمود سليمان باشا وجد محمد محمود باشا)، عثمان محمود غزالى عمدة بنى رزاح، يوسف محمد عمر عمدة الشيخ تمى، رميح شحاته عمدة القوصية، عمر حمد عمدة الشغبة، عبدالعال موسى عمدة دروة.

جرجا: محمد حمادى عمدة بلصفورة، حميد أبوستيت من أولاد عليوة، عبدالرحمن حمد الله عمدة الجبيرات، عثمان أبو ليلة من الكتكاتة، عطية مهران من ناحية نزه، أحمد سلطان عمدة بندار.

قنا وأسوان: عمر أفندى أبو يحيى عمدة أبو مناع، محمد سحلى عمدة فرشوط، على إبراهيم عمدة حجازة، أحمد أفندى عبدالصادق من أسوان، أحمد على إسماعيل عمدة السليمية.

قوة حقيقية :

وفي قراءة نقدية لأسماء هؤلاء الأعضاء لاحظ الدكتور لويس عوض أن هذه العائلات ظلت تشترك في الحياة العامة وفي حكم البلاد خلال الثورة العرابية، وحركة الحزب الوطنى الخديوى، وثورة ١٩١٩ حتى ثورة ١٩٥٢ وهى عائلات: العقاد والعطار من القاهرة (ليس بالضرورة أصلا أو ملاكا) وجميعى والشوريجى من الاسكندرية، والشواربى من القليوبية، وأباظة من الشرقية، وأبو العز والشريف من الغربية، والجزار وشعير والجندى وأبوحسين من المنوفية، والوكيل من البحيرة، والزمر من الجيزة، والشريعى وشعراوى من المنيا، وسليمان من أسيوط، وأبوستيت من جرجا، وأبو سحلى من قنا، وليس معنى ذلك أن كل الباقين لم يكن لهم أو لنسلهم دور فى الحياة العامة أو أنهم انقرضوا كعائلات، فمنهم من كانت لهم سطوة الملكية الزراعية دون أن يشتغلوا مباشرة بالسياسة، ومنهم من لا تزال أسماء عائلاتهم دارجة حتى اليوم دون أن يكون لهم دور بارز فى الحياة العامة مثل عائلات الصير في وأبوشنب وعياد ودنيا وكساب ودوس وهلال .. الخ. ولكن المهم - في رأى لويس عوض - أن أعضاء مجلس شورى النواب في عهد إسماعيل - حتى من انقرضت أسماؤهم - كانوا في عصرهم قوة

حقيقية فى البلاد لأنهم كانوا يمثلون طبقة عريضة من العمد والمشايخ فى البلاد تبلغ الآلاف عددا، وبذلك يمثلون أصحاب المصالح الحقيقية فى الريف المصرى.

أوروبا تتساءل :

ولقد أحدث ميلاد أول مجلس نيابى مصرى، دوياً كبيراً بين الرأى العام الأوروبى حتى أن صحافة انجلترا وفرنسا وبلجيكا خلعت عليه معاييرها الدستورية أوصافا كثيرة أبعدته عن حقيقته ومرماه، وقد رصد الدكتور عبدالعزيز رفاعى بعض تعليقات الصحف الأوروبية، وكيف أن مصر على أبواب التحول إلى ملكية دستورية برلمانية، وذهب بعضها إلى حد المقارنة بين المجلس المصرى الوليد ومجلس الشيوخ الفرنسى، ومجلس الدولة بها، وكان لتمثيل العناصر المسيحية فى المجلس أطيب الأثر فى الدعاية لإسماعيل والتدليل على سماحة عصره، وقد رحب أحرار فرنسا بأنباء نشأة المجلس كعمل فريد فى الشرق، ألا أن وقعه كان مقلقا لحكومة فرنسا خشية أن يكون محاولة لسلخ مصر عن تركيا (صديقة فرنسا وقتئذ) وإقامة حكم وطنى نيابى فيها، واستفسرت الحكومة الفرنسية من نوبار باشا الذى كان متواجدا فى باريس عن صحة هذا الاحتمال، فقال لهم إن المجلس النيابى ليس أكثر من تتويج لمسعى الخديو لتقوية جهازه الإدارى واستكماله على أساس العرف المتبع فى انتخاب رؤساء القرى والإعلاء من شأنهم بدافع الرغبة فى تنمية الثروة المصرية، ووضع بذلك حدا للشائعات حول النظام الجديد.

أما رد الفعل في تركيا فكان سيئا، وقالت صحفها أن إسماعيل وضع لمصر دستورا ومجلسا نيابيا، وكان من شأن هذه التعليقات أن تسيء إلى علاقة الخديو بتركيا، ولم ترحب الحكومتان الانجليزية والفرنسية لهـذا التطور لأن الدولتين كـانتـا تعمـلان على الإبقـاء على حـالة مصرالسياسية في حدود التبعية لتركيا. ولذا كانت نشأة المجلس مثيرة لفضولهما، فلما أوجس إسماعيل خيفة من الآثار العكسية أوعز إلى نوبار أن يؤكد للدولتين بأن القصد من المجلس إرساء قاعدة للتعاون بينه وبين شعبه.

نكبة القروض

سارت الحياة شبه النيابية التى أقامها الخديو اسماعيل، فى خط متواز مع الأزمة المالية التى صنعها اسماعيل بيديه، وتسبب فيها باسرافه وتبذيره وعدم تبصره بعواقب الافتراض من البنوك الأجنبية، فكلما اشتدت وطأة الأزمة المالية، شعر أعضاء مجلس شورى النواب بثقل المسئولية، فالبلد بلدهم، والأرض أرضهم، وعليهم يقع عبء تسديد الديون الباهظة التى اقترضها الخديو، واذا كانت الحكومة - ممثلة فى وزير المالية الكذوب إسماعيل باشا صديق - تقدم لهم بيانات مضللة حول انتعاش الحالة الاقتصادية وزيادة الايرادات على المصروفات، فان هذه الأكاذيب لم تفلح فى تزييف الحقائق المرة التى كان يشعر بها النواب فى قرارة أنفسهم، ولايستطيعون الافصاح عما يخالج شعورهم من قلق وتذمر، فهم أصحاب المصالح الحقيقية، وملاك الأطيان التى تتزايد عليها الأموال الأميرية بطريقة تفضح حالة الانتعاش الكاذب الذى تروج له الحكومة حتى تخدع الناس، وتستنزف ما فى جيوبهم من نقود.

وفي ١٦ مارس ١٨٦٨ افتتح الخديو دور الانعقاد الثاني للمجلس بالقلعة، وألقيت خطبة العرش فحفلت مثل سابقتها، بذكر مناقب ولى النعم، والانجازات العظيمة التى تحققت على يديه دون أى اشارة إلى القروض التى عقدها مع المرابين اليهود، ولم يتطرق إلى المشاكل المالية الداخلية، باستثناء الرد على مطلب سابق بتعديل مواعيد سداد أقساط الأموال الأميرية. وتهرب الخديو من تنفيذ الاقتراح بحجة أنه «لا يخلو من صعوبة»، وقال أن الحكومة لاتقصر عن إجرائه حسب الامكان. ووعد بإطلاع أعضاء المجلس على الأسباب التى تؤخر تنفيذه.

لقد انعقدت هذه الدورة في وقت استحكمت فيه الأزمة المالية، وصارت الخزينة خاوية حتى أن الحكومة عجزت عن دفع مرتبات الموظفين، وتعرضت البلاد إلى حالة من العسر الاقتصادى بسبب هبوط أسعار القطن، بعد انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية، واستغناء المصانع الأوروبية عن استيراد الأقطان المصرية، فعادت الأسعار إلى مستواها القديم، وتعرض الفلاحون إلى أزمة رهيبة قصمت ظهورهم، لأنهم اعتادوا - أثناء ارتفاع الأسعار - الاستدانة من المرابين بفوائد فاحشة وصلت إلى ٤٨ ٪ فى السنة (!!) وبلغ مجموع الديون المتراكمة على الفلاحين حوالي مليون و٤٠٠ ألف جنيه، أضف إلى هذا ما أصيبت به البلاد من قحط في الحبوب بسبب هبوط فيضان النيل، وإصابة الثروة الحيوانية بالطاعون.

موارد جديدة:

وبدأت الحكومة تفكر في البحث عن موارد مالية جديدة سواء من المصادر المحلية أو الخارجية. وبالنسبة للداخل هداها تفكيرها إلى

مشروع بإعفاء المواطنين من الخدمة العسكرية مقابل دفع بدل نقدى (ثمانين جنيهاً) وعرضت الحكومة المشروع على مجلس شورى النواب تمشياً مع سياستها فى إشراك النواب فى الأمور المالية، فكان أمراً طبيعياً أن يستحسنه العمد وكبار الملاك ليفسح المجال أمام كل منهم لافتداء أتباعه من الجندية بدفع البدل النقدى، فلم تكن الجندية وقتئذ تشجع على الانخراط فى سلكها، وذكريات حروب محمد على لاتزال ماثلة فى النفوس، كما كانت أساليب الجندية بطبيعتها تدفع للنفور منها، لذلك ما كادت الحكومة تعرض المشروع على المجلس حتى وافق على دفع البدل العسكرى نقداً، ومن ثم استطاعت الحكومة أن تفتح لماليتها مصدراً كبيراً لتنمية ايراداتها على حساب هذه الفئات، بل وعلى حساب الطبقات الفقيرة ذاتها أيضاً، فقد كان ذلك القانون مشجعاً لهم - برغم فقرهم - على إرهاق أنفسهم من أجل التخلص من الخدمة العسكرية، ليضمنوا لأبنائهم العافية بدل المعاناة من سيئاتها.

ومن المسائل التى لها علاقة مباشرة بالقضية المالية، مسألة الأراضى البور التى أرادت الحكومة أن تجعل منها مورداً مالياً، فعرضت على أعضاء مجلس الشورى مشروعاً لضمها إلى الملاك فى حدود نظم مالية معينة، وقوبل المشروع بالموافقة والرضا من جانب النواب لأنه يضيف إلى ممتلكاتهم الزراعية مساحات جديدة، وفى نفس الوقت يحقق للحكومة مصدراً مالياً خاصة إذا عرفنا أن مساحة هذه الأراضى بلغت مليوناً ونصف مليون فدان، ولاتحتاج إلا إلى الماء لتصبح أرضاً زراعية ترفع من حجم الضرائب التى تجبيها الحكومة، وانسياقاً وراء عمليات زيادة الموارد المالية للدولة. وافقت الحكومة على اقتراح بعض أعضاء المجلس بتسجيل الأراضى الزراعية، وترغيب

الأهالي بتحرير حجج أملاكهم بالمحاكم ، والتصريح لكل مالك بإثبات ملكيته أمام القضاء، مقابل رسوم تدخل خزينة الدولة . وهكذا قام مجلس شورى النواب بإسعاف الحكومة بالموارد المالية التى تنقذ خزينتها الخاوية عن طريق بيع أراضي الفيضان (طرح النهر) وأراضي الجزائر وضم الأراضي البور للملاك نظير اجراءات مالية، ثم فرض ضرائب جديدة على الأراضي البور والمالحة والبراري وتوسيع الرقعة الزراعية بالتشجيع على اصلاحها وزيادة امكانياتها على تقبل ضرائب أخرى، وجاءت هذه القرارات تدعم هدف الحكومة من خلال تكليف كبار الملاك بالتزامات جديدة، وعندما أثار بعض النواب مسألة امتلاك الأراضي الواقعة على جانبي الاسماعيلية، رحبت الحكومة بالاقتراح اذ وجدت فيه وسيلة لزيادة المساحات الزراعية وتنمية الانتاج الزراعي، وبالتالي مصدرا جديدا من مصادر المال، وبعد مناقشة مستفيضة قرر المجلس إعطاءها للراغبين بمثل الطريقة التي اتبعها المجلس في توزيع أراضي البراري السابقة بالمجان لاجال محدودة، على أن تدفع عنها الضرائب بعد مضي مدةواعتمد الخديو اسماعيل هذه القرارات، وعهد الى وزارة الداخلية بتنفيذها . (راجع كتاب فجر الحياة النيابية في مصر الحديثة للدكتور عبدالعزيز رفاعي) .

بوابة الجحيم:

إلى هنا .. وبعد هذا العرض الموجز .. يمكن القول ان حكومة الخديو اسماعيل، ومعها مجلس شورى القوانين، خطت خطوات عملية لمواجهة الأزمة المالية، واتخذت التدابير الكفيلة لزيادة الموارد، وسد حاجة الخزينة العامة الى المال، وتدبير مصادر جديدة تقيل الميزانية

من علترتها، وتجنب البلاد مغبة الوقوع فى براثن المرابين الاجانب.. ولكن.. ما حدث لم يكن في الحسبان.. فبينما كان المجلس يشارك الحكومة فى همومها المالية، كان الخديو اسماعيل يبعث أعوانه إلى باريس للتفاوض مع البنوك وبيوت المال للحصول على قروض، ويفتح بوابة الجحيم حتى يشبع نهمه إلى المال، ويغدقه فى أمور لاتعود على البلاد بأى منفعة، ويتخلى عن العهد الذى قطعه على نفسه عشية جلوسه على الأريكة الخديوية بأن يتجنب المسلك الوعر الذى سلكه عمه سعيد باشا عندما استن سنة الاقتراض من الخارج. وقال اسماعيل فى حشد من قناصل الدول الأجنبية: «إن أساس الادارة هو النظام والاقتصاد في المالية، وسأبذل جهدى فى اتباع قواعد النظام والاقتصاد، وقد عزمت أن أرتب لنفسي مخصصات محدودة، لا أتجاوزها أبداً.

«لقد ندد اسماعيل، حينما تبوأ العرش بإسراف سلفه سعيد، لأنه اقترض أحد عشر مليوناً من الجنيهات.. ولكن لم تمض عدة شهور حتى نقض العهد، واتخذ من الاقتراض عادة سنوية ظلت ملازمة له حتى بلغت القروض في نهاية عهده أكثر من ١٢٦ مليون جنيه انجليزى (!!) فى وقت لم تكن حالة البلاد المالية تستدعى الاقتراض، لأن مصر تعد - كما يقول المورخ عبدالرحمن الرافعى - من أغنى دول العالم ، وتستطيع اذا وجدت ادارة حكيمة أن تسلك سبيل التقدم والعمران دون أن تحتاج إلى القروض. وينقل الرافعى عن مؤلف كتاب (تاريخ مصر المالى) وهو مؤلف مجهول عاش فى مصر خلال هذا العصر وألف فيه كتابه القيم: اقترض اسماعيل أول قروضه عام ١٨٦٤ (يعنى

فى العام التالى لجلوسه على العرش) وتذرع لتسويفه بحاجة الحكومة إلى المال لمقاومة الطاعون البقرى الذى انتاب البلاد، ولسداد أقساط ديون سعيد باشا.. فأما مقاومة الطاعون البقرى فكانت حجة واهية لأن الفلاحين والملاك هم الذين احتملوا وحدهم الخسائر الناشئة عن هذا الطاعون، ولم يرد بميزانية ١٨٦٤ مما أنفقته الحكومة فى هذا الصدد سوى ١٢٥ ألف جنيه، وتعجب المؤلف من أن تلجأ الحكومة إلى الاقتراض برغم ما جاء فى الميزانية من زيادة الدخل على المنصرف. وقال أن السبب الحقيقى لهذا القرض الأول هو أن اسماعيل لم يحقق وعود الاقتصاد التى قطعها على نفسه، بل سار سيرة بذخ وهوى وإسراف، واستكثر من شراء الأطيان والأملاك لنفسه والإنفاق عليها، فهذه الأسباب هى التى جعلته يعقد القرض الأول، وما كان سداد ديون سعيد ولا الانفاق على مقاومة الطاعون البقرى الا ذريعة شكلية لذر الرماد فى العيون (!!). هذا ما يقوله مؤلف كتاب (تاريخ مصر المالى) الذى يصفه الرافعى بأنه كاتب مشهود له بتحرى الحقائق، والاعتدال فى الرأى، وليس فى كلامه مبالغة، لأن المعروف عن اسماعيل باشا أنه كان بطبعه ميالاً إلى الاستكثار من المال والعقار، وظهرت عليه هذه الميول منذ ولايته الحكم، فقد كان نظار أملاكه يرغمون الفلاحين على بيع أطيانهم أو التنازل عنها للخديو، حتى صار مالكاً لخمس أطيان القطر المصرى (!!). أما مدام (أولمب إدوار) فقالت فى كتابها (كشف الستار عن أسرار مصر) لم يكن اسماعيل يهتم الا بجمع الملايين، وكان يقتنى الأطيان فى كل ناحية قدر ما يستطاع، ويلجأ إلى السخرة لزرعها واستصلاحها، ويعقد القرض تلو القرض لآجال طويلة. تاركاً

لمن يخلفه فى الحكم أن يسدد ديونه، حتى كأنه يقصد أن يعقد مهمة الحكم لمن يأتى بعده.

مدافعون عن القروض:

ومع ذلك لم يعدم إسماعيل باشا من يدافع عن سياسة الاقتراض ويجد لها ألف مبرر، ويضعها فى قائمة الأعمال الصالحات التى أراد بها الخديو خير مصر ونفعها. والعمل على استقلالها عن تركيا. والرغبة فى أن يضع مصر فى مصارف الدول العظمى ولو عن طريق السلف والدين. انظر ما يقوله مؤلف كتاب عصر اسماعيل - إلياس الأيوبى - عن مبررات ديون اسماعيل، فى فصل جعل عنوانه «السحاب فى السماء»: أن تنفيذ الخطة التى رسمها اسماعيل لنفسه، يوم ارتقى عرش جده وأبيه، استلزم مصاريف جمة للتمكن من إزالة جميع العقبات - أياً كان نوعها وسببها - فاضطر إلى الاستدانة والاقتراض، ولما كانت مصر من أغنى بلاد الأرض، وكان المشهور عن الأمراء الشرقيين عموماً، عدم التدقيق فى المحاسبة، وعن (اسماعيل) على الأخص، سعة سماحة الكف، وعظم كرم النفس، فأما الماليين الغربيين، لاسيما اليهود، أظهروا من الاستعداد لإجابة جميع طلباته أغرب ما يتصوره الإنسان، بل بالغوا، فى بادى أمرهم، فى إغرائه على الاستدانة منهم إلى حد من المرغبات والمحببات يكاد لايتخيله التصور: فتلا الاقتراض منهم الاقتراض، وإسماعيل فى تلهبه الفائق لتحقيق أمنياته السامية لايفكر فى أن يعمل للأعباء المالية ولكيفية تراكمها حساباً، ولايرى من نفسه ميلاً مطلقاً إلى تقدير عواقبها، بفعل تربيته ومنبته ومركزه،

فاستمر فى سيره الرسيع وعيناه غير شاخصتين إلا إلى المرمى الفخيم الذى كان سيره يدنيه منه، ولايهمه من أمره الا أن يرى الذهب طوع بنانه دوماً (!!).

فما هى الأمنيات الساميات التى طمحت إليها نفس اسماعيل، واستهون من أجلها أن يضع الأغلال فى عنق بلاده ويجعلها تحت رحمة المرابين اليهود؟. هل إغداقه الرشاوى والهدايا على السلطان وبطانته الفاسدة من أجل تغيير نظام وراثة العرش مما يعد من المصالح العامة التى تعقد من أجلها القروض..؟ وهل شراء قصر (الأميركون) على ضفاف البسفور لينزل فيه الخديو بضعة أيام من المنافع القومية التى يهون من أجلها استقلال مصر وحريتها وكرامتها؟ بعد أيام من جلوسه على عرش مصر، توجه اسماعيل إلى الآستانة ليقدم إلى السلطان عبدالعزيز فروض الولاء، ويوجه له الدعوة لزيارة مصر، فلبى السلطان الدعوة، وقضى فى مصر عشرة أيام تمتع فيها بكل ما وفره له الخديو من عناصر المتعة والنعيم، وعندما غادر السلطان الديار المصرية عائداً إلى بلاده حشد له الخديو من الهدايا والتحف والنفائس ما ملأ جوف سفينة بأكملها.. كما غمس فى جيب الصدر الأعظم - رئيس الوزراء التركى - ستين ألفاً من الجنيهات .. بخلاف ما حصل عليه الآخرون .. لماذا فعل اسماعيل ذلك؟. ولماذا أغدق كل هذه الأموال من دم الشعب المصرى؟ من أجل أن يستصدر من السلطان فرماناً بتغيير نظام توارث العرش - حتى يؤول إلى أكبر أبناء اسماعيل، بدلاً من النظام القديم الذى يورث العرش لأكبر أفراد الأسرة العلوية (!!). وقبضت السلطنة العثمانية الثمن: ثلاث ملايين جنيه أبتلعها السلطان

ى كرشه، وزيادة الجزية السنوية التى تدفعها مصر لتركيا من ٤٠٠
ف جنيه عثماني، إلى ٧٥٠ ألفاً، أي ما يقرب من الضعف (!!). وقد
يعلم القارئ أن مصر تحملت أعباء هذه الزيادة الجسيمة حتى عام
١٩٥ والتى بلغت ٢٥ مليون جنيه عدا فوائدها، لأن حكومة تركيا
ستدانت على (حس) الجزية المصرية من دول أخرى، وتعهدت
حكومة المصرية بتسديد أقساط الديون إلى تلك الدول وظلت تدفعها
ى عام ١٩٥٥ م. يقول الرافعى عن هذه الخسارة الفادحة التى تكبدها
سماعيل من أجل تغيير نظام الوراثة: من الاسراف فى القول ما يزعمه
عض المؤرخين أن اسماعيل قصد بسعيه فى هذه المسألة مصلحة
بلاد، وأغلب الظن أن الباعث له على هذا التغيير، هو ما كان بينه
بين أخيه من أبيه مصطفى فاضل، وعمه عبدالحليم من الشقاق
الشحناء، ولم يكن إسماعيل يخفى كرهه لهما وحقده عليهما، وكان
لأميران أيضاً لايكتمان كراهيتهما لإسماعيل، ومن أجل ذلك سعى فى
عرمانهم من وراثة العرش وجعلها فى ذريته من صلبه. وقد اغتنم
حكام تركيا وذوو النفوذ فيها فرصة هذا التنافس، ليبتزوا من أموال
مصر ما تصل إليه أيديهم، فقد بذل الأميران عبدالحليم ومصطفى
اضل أموالاً طائلة فى الآستانة لإحباط مسعى اسماعيل، فاستفادت من
لناحيتين، ولكن اسماعيل كان أكثر مالاً، وأعز جانباً، فنجح فى مسعاه،
هكذا كان للمال الأثر الفعال فى نفوس حكام الآستانة (...) ولا يعد
هذا التغيير فى نظام التوارث مكسباً كبيراً لمصر حتى تبذل من أجله
تلك التضحيات المالية الباهظة، ولقد برهنت الحوادث على صحة هذا
لقول، لأن النتيجة الأولى للنظام الجديد كانت أيلولة العرش إلى

(توفيق) ولم تكن ولايته خيراً على البلاد (...) ولاننسى انه في عهد توفيق رزئت البلاد بالاحتلال الانجليزى، وكان عليه جانب كبير من تبعة وقوعه، فلو لم يتقرر نظام التوريث الجديد، لكان جائزاً أن يخلف اسماعيل على العرش أمير أنفع للبلاد وأخلص لها من توفيق.

القرض الأول:

روى إلياس الأيوبي قصة القرض الأول حينما كلف الخديو أثناء وجوده في باريس وزيره المقرب نوبار باشا بالتفاوض مع بيوت المال في شأن ذلك القرض. واستغرقت المفاوضات ثلاثة شهور تمكن بعدها من عقد الاتفاق في ٢٤ سبتمبر ١٨٦٤، وبموجبه تعهد المتعاقدون بأن يدفعوا إلى الحكومة المصرية خمسة ملايين جنيه انجليزى على أربع دفعات متساوية تقدم الدفعة الأولى في نوفمبر من نفس العام، أما الدفعات الثلاث فتقدم في يناير وفبراير وابريل ١٨٦٥، وأن تسدد لهم الحكومة المصرية (لاحظ أن الحكومة المصرية هي التي تلتزم بالسداد وليس الخديو الذي اقترض من أجل قضية شخصية بحتة) ذلك المبلغ بفوائده على خمسة عشر قسطاً سنوياً، قدر كل قسط منها ٦٢٠ ألفاً و٢٩٤ جنيهاً وأن تكون ايرادات مديريات الدقهلية والشرقية والبحيرة ضمانة لذلك، وتحول رأساً إلى الدائنين (لاحظ مرة أخرى أن ضمانة القرض ايرادات حكومية صرفه.. وليس ايرادات الدائرة السنية أو الخاصة الخديوية). أما الرافعي فيروى أوجه الصرف في هذا القرض، فيؤكد أن إسماعيل لم ينفق شيئاً يذكر من قرض ١٨٦٤ على مرافق البلاد العامة، بل أنفق معظمه على توسيع دائرة أطيانه وأملاكه،

واشترى في ذلك الحين قصر (الأمريكون) على ضفاف البوسفور ليتخذه مقراً له عندما يزور الآستانة، ولم يكن لولاة مصر قصور خاصة في هذه المدينة ينزلون بها من قبل، ولكن اسماعيل رأى من استكمال مظاهر البذخ، أن يكون له قصر فخم لايقل بهاء عن قصور السلاطين، فابتاع ذلك القصر، وأنفق المبالغ الطائلة في توسيعة وزخرفته، ثم بدأ ينشيء القصور الفخمة في مصر، فشرع في اقامة سراي الجيزة المشهورة وكان التصميم على أن تكون داراً أنيقة، ثم اتسعت فصارت قصراً فخماً، وتعددت المباني حولها، ومدت الطرق الجميلة بين الجيزة والجزيرة، وأنفقت الأموال جزافاً في سبيل انشائها.. وكل هذه النفقات الباهظة جعلت الخديو يفكر في قرض آخر.. ولما تمض ثمانية شهور فقط على القرض الأول (!!).

وليس من ضير - يقول الرافعي - أن يبتني ولى الأمر ما شاء من القصور والساريات، ولكن إذا كانت مالية البلاد لاتسمح بنفقات تلك المباني، ولاسبيل إلي أقامتها إلا من القروض، فلا تسوغ الاستدانة لهذا الغرض، لأنه لايجوز أن تقترض حكومة رشيدة قرضاً ما لإنفاق قيمته على مثل هذه الكماليات.

الخديو الفنجرى

فى رأى بعض المؤرخين المدافعين عن السياسة المالية للخديو إسماعيل، أنه لم يقدم على الاستدانة من الخارج، إلا من أجل مصر ورفعة شأنها بين الأمم، وتحقيق المزيد من استقلالها عن السلطانية العثمانية، ولما كان كرش السلطانية لا يهضم إلا الذهب الرنان، فقد كان إسماعيل مضطرا إلى الاقتراض من الخارج لسد بالوعة الاستانة كى يحصل على الفرمانات الشاهانية التى تثبت استقلال مصر وتدفع بها بعيدا عن الهيمنة التركية(!!).

حسناً.. فمبدأ الاستقلال الوطنى هدف مشروع لا يختلف عليه مصرى يؤمن باستقلال بلاده عن أى نفوذ خارجى، ولكن ما هو معنى الاستقلال فى مخيلة الخديو إسماعيل حتى يناضل من أجله، ويبذل فى سبيله النفس والنفيس؟ هل كان معناه طرد قوات الاحتلال العثمانى من مصر؟ الجواب بالنفى.. لأن مصر لم يكن على أرضها جندى عثمانى واحد منذ عصر محمد على، ولم يكن يربطها بالدولة العلية سوى أداء أقساط الجزية المقررة منذ عام ١٥١٧م عندما فتحها سليم الأول، والتى

ظلت مصر تدفعها حتى عام ١٩٥٥م. وتحقق استقلال مصر - عمليا - في مضمون فرمان ١٨٤١م الذى أعطى مصر طعمة لمحمد على وذريته يحكمونها هنيئا مريئا بعد استصدار الموافقة الشرعية من خليفة الاستانة، وباستثناء هذا القيد الشكلي، فقد كان محمد على يتصرف فى شئون مصر تصرف المالك فى ملكة دون اعتبار للباب العالي، وكانت صورة استقلال مصر - في عهد محمد على - جلية كالشمس، وهل هناك أوضح من بناء قوة مصر الذاتية ممثلة فى الجيش المصرى الذى صال وجال فى أنحاء الشرق الأوسط، وبلغ من الجسارة أن دق أبواب الاستانة نفسها متحديا السلطان الجالس على عرش آل عثمان(!!).

أى استقلال كان يسمى إليه إسماعيل، ويسوغ له خنق مصر بالديون؟ وهل نقل ولاية العرش من أكبر أفراد الأسرة العلوية إلى أكبر أنجال الوالى مما يحقق استقلال مصر عن تركيا؟ وهو الإجراء الذى دفع فيه إسماعيل ثلاثة ملايين جنيه ليطعم فم السلطان عبدالعزيز، بخلاف ما حصلت عليه بطانة السلطان من هدايا وأموال؟ وماذا جنت مصر فى هذا الصراع العائلى والعناد الشخصي سوى الابتلاء بحكم توفيق.. الخديو الذى خان بلاده، وفتح أبوابها للاحتلال الانجليزى (!!) وماذا عاد على مصر من هذا الاستقلال، الذى سعى إليه إسماعيل، وأهدرت فى سبيله الملايين من دم قلبها؟ لقد أدت كل جهود إسماعيل «الاستقلالية» إلى ضياع استقلال مصر.. ووقوعها تحت الوصاية الأجنبية التي بدأت بإنشاء صندوق الدين، ثم فرض الرقابة الثنائية على مالية مصر، ثم تعيين لجنة تحقيق أوروبية، ثم تعيين وزيرين أجنبيين - أحدهما انجليزى والآخر فرنسي - لهما حق الاعتراض على

أى قرار وزارى، ثم انتهت بطرد الخديو أولا، واحتلال مصر ثانيا.. وتصدع صرح الاستقلال الذى نالته مصر بجهودها وتضحياتها العظيمة من عهد محمد على (!!).

صروح الحضارة:

ويرى المدافعون عن سياسة إسماعيل الخرقاء، أنه أنفق هذه القروض على مشروعات تمدين مصر وتحديثها، ونقلها ـ حضاريا ـ من خريطة أفريقيا المظلمة، إلى خريطة أوروبا التى تشع بالنور والثقافة والعلم والمدنية.. إلخ. وكلها أهداف جليلة.. ولا ننكر أن إسماعيل أقام صروح الحضارة الحديثة.. ولكن.. هل أنفقت كل هذه القروض على المشروعات العمرانية؟ أم أن نصيب هذه المشروعات كان ضئيلا بالقياس إلى الأموال التى أهدرت على بناء القصور والملاعب والمراقص والملاهى والحفلات المخملية والليالى الحمراء التى تضاهى أساطير ألف ليلة وليلة (!!)

* هذا هو السؤال الذى يجب أن نطرحه كى نمنع الخلط بين الأوراق، ونفرز عمليات التعمير والتحديث التى اتخذت ستارا للتغطية على عمليات السفه والتبذير.. بل التخريب.. فى ظل نظام سياسى يختلط فيه المال العام مع المال الخاص للخديو.. وحيث لا توجد فواصل وحدود بين ما هو عام.. وما هو خاص (!!).

ثم .. من يقول إن التحديث يستوجب الاقتراض من الخارج، وتحميل ميزانية البلاد فوق طاقتها.. واعتصار أموال الناس لتسديد فوائد القروض ـ ولا نقول القروض نفسها ـ لأن ميزانية البلاد ناءت بهذه

الأحمال الثقيلة، وعجزت عن الوفاء بها.. مما وضع البلاد على شفا الإفلاس (!!).

لقد أقام محمد على منشآت التحديث والتعمير وأرسل البعثات وأقام الجيش واشترى المدرعات والمدافع والبوارج، ولم يقترض فلسا واحدا من الخارج، وقديما أقام الملك خوفو الهرم الأكبر ولم نسمع أنه مديده إلى لئيم، وشاد ملوك مصر وسلاطينها العمائر والمساجد والقناطر والسدود وشقوا الترع والمصارف دون أن يقترضوا من الأجانب، وكان هؤلاء العواهل - وهم أدنى ثقافة من إسماعيل المتفرنج - يدركون مخاطر التدخل الأجنبى فى شئون مصر، ولو نظر إسماعيل فى تاريخ أبيه وجده، لتعلم منهما خطر التعامل مع الأجانب، وبلغ حرص محمد على فى هذا المجال شأوا كبيرا، حتى أنه رفض منح شركة انجليزية امتياز مد السكة الحديدية بين القاهرة والسويس، ورفض شق قناة السويس لأنه كان يدرك أن هذا المشروع سيضع مصر تحت وصاية الدول البحرية الأوروبية، وهو مالم يفطن إليه سعيد أو إسماعيل، حتى ليصدق على كل منهما المثل الشعبى: يخلق من ظهر الشاطر خايب (!!).

شخصية الخديو:

وللأمانة : يجب أن نسبر غور شخصية الخديو إسماعيل، لعلنا نحيط بما كان يعتريها من ضعف وعيوب دفعت به إلى الهاوية، ولم أجد أصدق من الصورة الوصفية التى رسمها بقلمه المؤرخ عبدالرحمن الرافعى عن شخصية إسماعيل حيث اجتمع الجانب الحسن إلى الجانب السيء، وظهرت آثار الجانبين معا فى أعماله وسياسته خلال الثمانية

عاما التى تولى فيها حكم مصر، ولما كانت أخلاق إسماعيل هى العامل الأول فى شخصيته، فإن دراسة أخلاقه تعطينا عنه صورة عامة، فلقد كان بلا مراء: اية فى الذكاء والفهم وسرعة الخاطر، وقوة الذاكرة، ومضاء العزيمة، وعلو الهمة، وكان شجاعا لا يعرف الجبن والإحجام، قوى الشخصية، عظيم المهابة.

وبعد أن يعرض الرافعى الجانب الإيجابى فى شخصية إسماعيل، والمشروعات العظيمة التى قام بها - مما لا يدخل فى موضوعنا الآن - ينتقل إلى الجانب السيىء من شخصية إسماعيل ويتمثل فى: بذخه وإسرافه، وعدم تقديره العواقب، وضعفه أمام الملذات والشهوات، وقد أدت به هذه العوامل مجتمعة إلى التبذير فى أموال الخزانة العامة، فلم تكفه الملايين التى كان يجبيها من الضرائب، بل عمد إلى البيوت المالية والمرابين الأجانب يستدين منهم القروض الجسيمة، ولا يخفى أن هذه القروض هى الوسيلة التى تذرعت بها الدول للتدخل فى شئون مصر، ووضع الرقابة المالية عليها (...) ولم يكن إسماعيل فى حاجة إلى من يبصره بمطامع انجلترا والدول الأوروبية فى مصر، فإن تاريخ محمد على وإبراهيم، صفحة ناطقة بتطلع انجلترا إلى وضع يدها على البلاد وما وقوفها فى وجه فتوحات إبراهيم وإئتمارها بمصر فى مؤتمر لندن ١٨٤٠م ببعيد عن ذاكرة إسماعيل، فلم يكن ينقصه الاعتبار بالحوادث السياسية.

ثم يشير الرافعى إلى عيب كبير فى شخصية إسماعيل هو: ركونه الشديد إلى الأوروبيين والدول الأجنبية، واعتماده عليهم، وثقته بهم ثقة

لا حد لها، وهذه الثقة كانت من عوامل تورطه في القروض الخارجية، فقد كان لحسن ظنه بالأجانب، لا يحسب حسابا لليوم الذي ينقلبون عليه، وتتحول تلك القروض إلى أداة للتدخل الأجنبي، ومن مظاهر هذه الثقة أنه عهد إلى الأجانب، من رعايا الدول الاستعمارية بمهمات خطيرة من شئون الدولة، وأطلعهم على أسرارها، ومكَّن لهم من مرافقها، ففي عهده تعددت البيوت المالية والشركات الأجنبية التي تغلغلت في البلاد، وعهد إلى الأجانب بمناصب كبرى من التي كانت الحكمة تقتضي إبعادهم عنها، كتعيين السير صمويل بيكر الرحالة الانجليزي حاكما لمديرية خط الاستواء، والكولونيل غوردون حاكما لها من بعده، ثم حاكما عاما على السودان، وهلم جرا.. كل هذه التعيينات ترجع إلى إسراف إسماعيل في ثقته بالأجانب والاعتماد عليهم، وتلك نقطة ضعف كبير في سياسته تبين لنا الفرق بينه وبين محمد علي» ...).

والخلاصة - عند الرافعي - أن عصر إسماعيل كان عهد تقدم وعمران اختلطت به أغلاط وأخطاء أفضت إلى تصدع بناء الاستقلال المالي والسياسي، ولو خلت شخصيته من عيوبها لجعل من مصر (يابان) أخرى، ولصارت على يده دولة من أقوى الدول المستقلة وأعظمها شأنا، ولكن هكذا شاء حظ مصر العاثر أن تتلاحق الأخطاء، وتختلط السيئات بالحسنات في تاريخ إسماعيل، فاغتنمت الدول الاستعمارية الفرصة في أغلاطه، والضعف الذي انتاب البلاد على عهده، ووجدت من ذلك سبيلا إلى تحقيق أطماعها في أرض الكنانة، والضعف في كل عصر آفة الأمم، والقوة هي سياج حريتها واستقلالها.

قطار بدون سائق :

كان إسماعيل في شططه واندفاعه نحو الغرب الأوروبي، أشبه بقطار بدون سائق يضبط حركته، ويلزمه التأني في المنحنيات التي تتطلب الهويدى، أو يجبره على الوقوف في المحطات التي تستوجب ذلك، ومضى إسماعيل في تقليد الأوروبيين في عاداتهم وسلوكياتهم وملابسهم وسهراتهم، متناسيا أنه حاكم مسلم يحكم شعبا مسلما له موروثاته وعاداته وتقاليده، وأن تبديل العادات والتقاليد عن طريق الصدمات والطفرات يؤدى إلى نتائج عكسية لأن عملية التطور الاجتماعى تتطلب تهيئة ذهنية وثقافية طويلة المدى، ولم يلتفت إلى ملاحظات وانتقادات رجال الدين لمظاهر التفرنج، بل بطش بمشاريخ الأزهر عندما عارضوه، وانتشي بمدائح الكتاب الأوروبيين الذين باركوا سياسته، وانهالت مقالاتهم بنزعته التحررية ومسايرته لروح العصر، ولم تكن هذه المقالات لوجه الله، وإنما مقابل الأعطيات التى كان يغدقها عليهم الخديو والتى بلغت خمسة ملايين جنيه في تقدير بعض المؤرخين.

كان أقصى ما يريده إسماعيل: أن يبدو أمام ملوك أوروبا في صورة الفنجرى القاعد على أموال قارون، ثم ينثرها ذات اليمين وذات الشمال، ولو عن طريق السلف من بيوت الربا والبنوك الأوروبية وكان هؤلاء الملوك يعرفون الحقيقة المفزعة، وهى أن هذه الأموال هى من خزائن بنوكهم، وهى بضاعتهم ردت إليهم فى أشكال من السفه والبذخ والفشخرة الكدابة لم يعرف لها التاريخ مثيلا (!!).

انظر .. ثم أحكم.. بعد أن تقرأ هذه النادرة التى رواها إلياس الأيوبى فى الجزء الأول من كتابه (عصر إسماعيل) :

ذهب الخديو لحضور المعرض الدولى فى باريس، وصدرت الصحف الباريسية تبشر بوصول «خديو» مصر إلى عاصمة الإمبراطورية الفرنساوية، ولما كان هذا اللقب جديدا على المسامع، أقبل الناس يتساءلون : خديو؟ ما هو الخديو؟ وأشرأبت أعناق أفهامهم إلى الوقوف على معنى الكلمة، بالتعرف بحقيقة الأمير المطلقة عليه، وكان (إسماعيل) قد ذهب إلى باريس، وجيوبه ملأى بالنقود، وخزائن المصارف بباريس ولندن تحت أمره وتصرفه، ففتح يده بسخاء وبذخ لم يعهدهما العالم الغربى فى عاهل من العواهل الذين زاروا المعرض، فبات أحدوثة إعجاب الجميع ولقبته الدوائر الاجتماعية (أسد اليوم)، وإنكسفت أمام أصفره الرنان، والمبذول بجود حاتمى، شمس جلالة السلطان عبدالعزيز على شدة سطوعها. ووقع فى خلد العامة أن (الخديو) إنما هو أحد ملوك ألف ليلة وليلة، بعث إلى الحياة، ثانية، ليؤكد للملأ أن أقاصيص تلك الرواية إنما هى حقائق، لا حديث خرافة، وأنه (خليفة الفراعنة على عرش القطرين) أكبر ملك حلت قدماه أرض فرنسا، كما أنه أغنى عواهل الأرض قاطبة (!!)

فتاة القصر :

ومن الأحداث التى وقعت خلال زيارة الخديو لباريس، تلك القصة التى رواها «الكونت دى لافيزون» فى مذكراته، وهى أن أحد كبار النبلاء الفرنساوية دعا الخديو إسماعيل إلى وليمة فى قصره، بضواحى

باريس، فأجاب الخديو دعوته، وإذا به يرى قصرا بلغ من الجمال والجلال، وفاخر الرياش، مالم يكن أحد يتوقع وجود مثله أبدا، في حوزة غير الملوك، فأعجب (إسماعيل) به أيما إعجاب، وبعد تناول الغداء - وبينما المحادثة دائرة في قاعة التدخين - أبدى لمضيفه استحسانه العظيم لقصره، فشكره النبيل على تلطفه، وكان قد قيل لإسماعيل إن النبيل في ضيق مالي شديد، فأحب مساعدته بشكل لا ينجرح له إحساسه، فسأله عما إذا كان يريد بيع قصره، وكان الرجل على شدة احتياجه إلى النقود، لا يرى في استطاعته التجرد من ملكية ذلك البناء الفخيم، وتحرج أن يقابل لطف الخديو بخشونة الرفض، فخطر له أن يبالغ في تقدير الثمن ليحمله على العدول عن رغبته في المشترى، فأجاب : إني قد أبيعه يا مولاي، مقابل خمسة ملايين من الفرنكات.

ولم يكن القصر يساوي أكثر من مليون ونصف مليون فرنك، ولكن إسماعيل التقط الكلمة من فم الرجل وهي طائرة، وقال : إني اشتريته منك بهذا المبلغ، وحرر له في الحال حوالة بثمنه على أحد البنوك بباريس، ولم يجد الرجل مفرا من قبول البيع، غير أن إسماعيل التفت فوجد فتاة هيفاء لا تتجاوز الخامسة عشر ربيعا، وعرف أنها ابنة النبيل، فقال بابتسام جميل مخاطبا والدها : (على أني لا أحسبك تمانع في تحرير عقد البيع للآنسة ابنتك هذه اللطيفة تخليدا لذكرى استحسان خديو مصر ظرفها وآدابها ولكيلا يقال أني زرتك لأجردك م قصرك).

وبدلاً من أن يعلق المؤرخ (الأيوبي) على هذا التصرف بالاستنكار والزراية والتنديد بخديو مصر الذي يبدد أموالها في السفه والفجور، نراه

يقول: فكان لهذه الهبة الجليلة، وكيفية منحها، رنة إعجاب في العاصمة الفرنساوية، جعلت (إسماعيل) موضع رشارات البنان. والتفاتات الأعين، حيثما توجه، وأينما حل، وسهلت عليه جدا تحقيق الرغائب السامية الدائرة في فؤاده، ألا وهي القضاء على القيدين المقيدين لاستقلال بلاده، وهما: ما تبقى من ظل السيادة العثمانية، والامتيازات الأجنبية (!!).

يد مثقوبة:

بالله عليكم.. هل رأيتم أشد سخفا من هذا التبرير الأبلة لسفاهة خديو مصر؟ وهل فطنتم إلى هذا الربط المتعسف بين يد إسماعيل المثقوبة، وبين استقلال مصر، وتبديد الملايين من أجل كشح ما تبقى من ظلال السيادة العثمانية والامتيازات الأجنبية..؟ وأين الفوائد التي عادت على رفعة مصر ورقيها في عيون الأجانب، من إغداق خمسة ملايين فرنك على فتاة هيفاء فرنسية ذات خمسة عشر ربيعا (!!).

أنه الضعف الذي يصيب المؤرخ حين يكتب في ظل العصر الذي يؤرخ له، فيطلق لقلمه عنان الرياء والمديح وتبرير الفساد، ويجعل من الفسيخ شربات حتى يحظى برضاء سادة العهد الذي يكتب فيه، ولا غرو أن يفوز (الأيوبي) بالجائزة الأولى في المسابقة التي تمت عام ١٩٢٣ تحت رعاية الملك فؤاد بين المؤلفين لوضع كتاب يؤرخ لعصر أبيه.. ومع ذلك فالكتاب حافل بالنوادر التي تكشف عن فساد إسماعيل وتصرفاته الخرقاء، وتبذيره المال في وقت كانت مصر تئن فيه من

وطأة الديون حتى أن السلطان عبدالعزيز أصدر في عام ١٨٦٨م فرمانا يغل يد الخديو عن الاستدانة الأجنبية لمدة خمس سنوات عاشها إسماعيل كما يعيش الفأر في المصيدة، فلما أوشكت السنوات الخمس على نهايتها، شد الخديو الرحال إلى الاستانة ليعمل على تحرير نفسه من هذا القيد، ولم يتورع أن يصحب معه والدته، الأميرة خوشيار، ليستخدمها في تطويع إرادة الحريم السلطاني ليسانده في مطالبه من السلطان وأخذ الخديو معه صفائح الذهب والهدايا التي تدخل السرور على قلب عبدالعزيز، وفي طليعة هذه الهدايا خمسمائة بندقية من طراز «مرتيني هنري»، دفعت مصر ثمنها لمعامل انجلترا، فلما حل عيد جلوس عبدالعزيز على عرش السلطنة، أقام إسماعيل في قصره، على ضفاف البوسفور، سلسلة من الولائم لكبار رجال الدولة، ختمها بوليمة خاصة لجلالة السلطان، بذل فيها من صنوف اللذات، وأريق فيها من المشارب ما لم يقع في خلد أحد، وتوج ذلك جميعه بأن قدم للسلطان «طقم» سفرة من صنع باريس، كل آنيته من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة، وقد استعمل في تزيينها من الماس وحده ما يزيد على خمسة آلاف قيراط(!!).

قائمة الرشاوى:

يقول (الأيوبي) في لهجة المعجب بسخاء سيدة : على أن جميعه، رغم جسامته، لم يكن بالنسبة إلى اللاحق إلا كنسبة التوابل إ الطعام الحقيقي، فإن (إسماعيل) لم يمض على إقامته في الاستاذ شهران، حتى كانت قائمة أعطياته وهداياه كما يلي:

* مليون جنيه عثمانى للسلطان عبدالعزيز.

* خمسة وعشرون ألف جنيه انجليزى للصدر الأعظم (رئيس الوزراء).

* خمسة عشر ألف جنيه لوزير الحربية.

* عشرون ألف جنيه إلى كبار رجال السراى السلطانية.

ومن جانبها قامت الوالدة باشا باستمالة قلوب الحريم السلطانى، وفوق الهدايا النفيسة التى قدمتها إلى نساء الوزراء العثمانيين وكبار موظفى السراى، تقربت من السلطانة ذاتها - والدة عبدالعزيز - وأولمت لها الولائم الفاخرة، وقدمت لها من التحف الثمينة مالا يمكن وصفه، أو حصره، مما أكسب مصالح إسماعيل فى السراى السلطانية صوتا غير قابل للرفض، وهنا تقدم إسماعيل بمطلبه، واستجاب له عبدالعزيز، وأصدر له الفرمان الذى يسمح له باستئناف الاقتراض: إنى شاء.. ومتى شاء.. وكيفما شاء (!!).

وعاد إسماعيل إلى مصر فرحا مبتهجا بهذا الانتصار.. وتزينت الاسكندرية ثلاثة أيام.. وكذلك القاهرة.. ودقت البشائر، وعزفت الطبول، وأقبل عليه الوزراء والكبراء مهنئين بهذا الأنجاز الباهر.. وكان ولى النعم قد جاب الديب من ديله.. وما علموا أنه عاد بالنكبة والدمار على مصر.. إذ لم تمض سوى أيام حتى كان إسماعيل قد استدان أفدح وأكبر قروضه الأجنبية وهو القرض الذى أطلق عليه المؤرخون بحق: القرض المشئوم لفداحة قيمته وقد بلغ ٣٢ مليون جنيه (!!).

القرض المشئوم

فى أغسطس ١٨٧٢ عاد الخديو إسماعيل من الآستانة، بعد أن قضى فيها سحابة الصيف، وفتح على البهلى جعبته العامرة بالذهب والفضة ليغترف منها السلطان وأمه وزوجاته وحاشيته، عساه يحظى بالرضا السامى، ويفك القيد الذى فرضه عليه السلطان بعدم الاقتراض من الدول الأجنبية، وفعلت الرشاوى فعلها الساحر، واستطاع إسماعيل أن يشترى الذمم الخربة فى ذاك البلاط الفاسد، فأعطاه عبدالعزيز صك التحرير والانعتاق، وسمح له بأن يقترض كيفما شاء.. ومتى شاء.. وأنى شاء.. ورقص إسماعيل طرباً لهذا النصر المؤزر.. وما درى أن السلطان منحه الحبل لكى يشنق نفسه.. فكان رقصه أشبه برقصة الطائر وهو يترنح من سكرات الذبح.. لقد رفعت الوصاية عن إسماعيل فمضى فى طريق الغواية الى نهايته، كأى وريث سفيه، ما أن يرفع عنه الحجر حتى يبدد أمواله دون حساب لغدر الزمان (!!) . وقبل أن يصل إسماعيل إلى ديار المحروسة، كانت أنباء النصر المبين قد سبقته، فاكتست الاسكندرية أزهى حللها ثلاثة أيام بلياليها، وكذلك القاهرة.

ودقت البشائر، وعلقت الزينات، توافد كبار رجال الدولة على القلعة يقدمون التهانى إلى أميرهم لحصوله على حق الاقتراض دون استئذان السلطان، وكلهم يمنى نفسه بهبرة من الثروة التى ستهبط من بنوك أوروبا !!.

فهل رأيت اختلالاً فى القيم، وتدهوراً فى معانى الوطنية، أبشع مما حدث فى هذا العصر الذى صار فيه الاقتراض غاية المنى، ودليل استقلال وحرية.. بلد يقيم الأفراح والليالى الملاح - ليس لأنه تحرر من الاستعمار الأجنبى - ولكن لأنه دخل «خية» الاقتراض الأجنبى (!!). بعد عودة الخديو إلى عاصمة ملكه، وصلته الدفعة الأولى من الصفقة فى شكل فرمان ١٠ سيتمبر ١٨٧٢ وفيه يعترف السلطان بالامتيازات التى سبق أن حصل عليها إسماعيل من دار السعادة، وبعد ١٢ يوماً وصلته الدفعة الثانية ممثلة فى «الخط الشريف» برفع الحظر على الاقتراض الخارجى، ولكن حدثت مفاجأة لم تكن فى الحسبان. فقد تبين إن رجال البلاط العثمانى خجلوا من تدوين هاتين الوثيقتين فى السجلات الرسمية - وأن لم يخجلوا من قبض الرشوة التى دفعت ثمناً لهما - فلما دارت الأيام، وخلع السلطان عبدالعزيز ثم قتل، رفض مدحت باشا - الصدر الأعظم والمصلح المعروف - الاعتراف بالفرمانين، ولكنه أخذ بنصيحة سفير انجلترا فى الآستانة، وصاحب الكلمة النافذة فى الدولة العليا، واضطر الى الاعتراف بهما لوجود تأشيرة السلطان عليها.

هذه مجرد طرفة، وإن كانت كالحة وسمجة، ولكنها تعطيك صورة عن عاقبة التعامل مع اللصوص بعد توزيع الغنائم، ونعود بعدها إلى مشاهدة وقائع التراجيديا المصرية التى صنعها إسماعيل.

الديون السايرة :

أراد الخديو أن يمارس حريته بعد خروجه من الاعتقال، ويستمتع بعادته المرذولة فى الاستدانة من الخواجات، فأقدم على عقد أفدح قرض فى تاريخه، وهو القرض الذى سماه الماليون «القرض الكبير» وسماه الرافعي «القرض المشئوم» وهي تسمية أصدق، نظراً للمصائب التي نجمت عنه، ووضعت مصر على شفا الإفلاس، وعجلت بسقوط إسماعيل، واحتلال مصر احتلالاً عسكرياً دام سبعين عاماً أو يزيد. وقبل أن أعرض عليك قصة هذا القرض المشئوم، سأقدم إليك بياناً مختصراً عن القروض التي سبقته، وقبل هذا وذاك لابد أن تكون على بينة من القروض الداخلية التى استدانها الخديو من أبناء شعبه، وهى التي يطلق عليها اسم «الديون السايرة»، وتشتمل على المشتريات والاستجرارات والمعاملات المدنية والتوصيات، وتشتمل كذلك على الإفادات أو البونات (الأذون) المالية، أو بونات الروزنامة أو بونات الدائرة السنية، وهي عبارة عن كمبيالات تكتب بقيم مختلفة مسحوبة على الدواوين المتقدمة تحت الإذن، موقعاً عليها من وزير المالية أو من ينوب عنه، وتستحق الوفاء فى الميعاد الموضح بها، وكانت هذه البونات تودع بالخزائن ليشتريها الراغبون، وبعد مساومتهم على سعر الفائدة، يدفعون صافى قيمتها للخزانة، ويتسلمون الكمبيالات، ويتاجرون فيها، وعند حلول موعد السداد يقدمونها للخزانة ويقبضون قيمتها. وكان

المرابون الأجانب المقيمون بمصر من أكثر الفئات إقبالاً على شراء هذه الكمبيالات لارتفاع سعر فائدتها. ولم يكن للديون السايرة حساب معروف، بل كان الخديو كلما احتاج إلى المال، استدان بقدر ما تصل إليه يده، وقد اختلفت الآراء في تقدير حجم هذه الديون لصعوبة حصرها، فمؤلف كتاب (تاريخ مصر المالى) يقدرها سنة ١٨٧٤ بحوالى ٢٦ مليون جنيه، وقدرها آخرون بحوالى ٢٨ مليون جنيه، وجاء فى الوقائع المصرية بتاريخ أول ابريل ١٨٧٣ أنها بلغت ٢٥ مليون جنيه. وهذا طبعاً بخلاف ديون الدائرة السنية (أطيان الخديو الخاصة) وقد بلغت أربعة ملايين جنيه بفائدة كانت تصل إلى ٢٤ ٪ سنوياً.

مسلسل القروض :

كان هذا حجم القروض الداخلية .. والآن نتكلم عن القروض الخارجية التى استدانها الخديو من بيوت المال اليهودية فى فرنسا وانجلترا، وسبق أن ذكرت لك أن إسماعيل، عندما جلس على عرش البلاد سنة ١٨٦٣ ندد بسلفه - سعيد باشا - لأنه اقترض أحد عشر مليوناً من الجنيهات، وانتقده انتقاداً لاذعاً لأنه أقدم على هذا الفعل الوبيل، ووعد بتسديد هذا الدين فى أقرب فرصة حتى يطهر مالية مصر من أى نفوذ أجنبى .. ولكن .. شتان ما بين الأقوال التى يتفوه بها الحاكم فى مستهل حكمه ليخدع بها شعبه، وما بين الأفعال التى يدمر بها شعبه، وإليك بيان القروض السنوية التى استدانها إسماعيل :

* فى العام التالى لجلوسه على الأريكة المصرية، افتتح إسماعيل مسلسل القروض بخمسة ملايين و ٧٠٤ آلاف و ٢٠٠ جنيه استدانها من

بيت «فروهلينج وجوش» الانجليزى بفائدة ٧ ٪ ويسدد على ١٥ سنة. أما المبلغ الحقيقى الذى دخل خزينة مصر فهو أربعة ملايين و ٨٦٤ ألف جنيه بفائدة ١٢ ٪. أما أين ذهب الفرق فعلمه عند حاشية الخديو وسماسرته والقوادين الذين كانوا يقبضون عمولاتهم مسبقاً.. وقد رهنت الحكومة لسداد فوائد هذا القرض: ضرائب أطيان مديريات الدقهلية والشرقية والبحيرة.

* فى العام التالى (١٨٦٥) اقترض إسماعيل ٣٫٣٨٧٫٠٠٠ جنيه من بنك «الانجلو إجيبشيان»، لم تتسلم مصر منها سوى ٢٫٧٥٠٫٠٠٠ جنيه وبفائدة فاحشة بلغت ٤ ٪ شهرياً أى ٤٨ ٪ سنوياً. أما الرهن فكان ٣٦٥ ألف فدان من أراضى الدائرة السنية.

* فى العام التالى (١٨٦٦) وهو عام تكوين مجلس شورى النواب، اقترض إسماعيل من بنك «فروهلينج وجوش» ثلاثة ملايين جنيه لشراء أملاك الأميرين حليم وفاضل، ولرشوة السلطان حتى يوافق على تغيير نظام وراثة العرش. ولم تتسلم مصر منها سوى ٢٫٦٤٠٫٠٠٠ جنيه.

* وفى العام التالى (١٨٦٧) إقترض إسماعيل من البنك «الإمبراطورى العثمانى» مبلغ ٢٫٨٠٠٫٠٠٠ جنيه، ولسبب غير معروف، أو بحجة تسديد دين سعيد باشا، أو لتحويل الديون السايرة إلى دين ثابت. ولكن بقى كل شيء على حاله، ولم تتسلم مصر من هذ المبلغ سوى ١٫٧٠٠٫٠٠٠ جنيه.

* وفى العام التالى (١٨٦٨) اقترض إسماعيل ١١٫٨٩٠٫٠٠٠. من بنك «أوبنهايم» لم تتسلم مصر منها سوى ٧٫١٩٥٫٣٨٤ جنيهاً أن سعر القرض ٦١ ٪ وخصص لسداد أقساطه: إيرادات الجمـ

وعوائد الكبارى وإيراد الملح ومصايد الأسماك. وكان من شروط هذا القرض أن يكف الخديو عن الاستدانة لمدة خمس سنوات. ورغم فداحة الفرق بين قيمة القرض الحقيقية والاسمية، فقد أنفق منه الخديو نحو مليونين فى الاستدانة لرشوة السلطان وبطانته، وأنفق جزءاً منه على إتمام قصوره فى عابدين والقبة والعباسية والجيزة وسراى مصطفى باشا بالأسكندرية وتأثيثها بفاخر الرياش، ومن هذا القرض أيضاً أنفق النفقات الباهظة على حفلات افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ وقد بلغت مليوناً ونصف مليون جنيه، وإليك تعليق المؤرخ عبدالرحمن الرافعى على هذه المسألة : أنظر كيف أن نفقات تلك الحفلات كانت من القروض، فكان الخديو فى هذا الموقف شبيهاً ببعض الذوات والأعيان فى الاستدانة للإنفاق على إقامة الحفلات والولائم، والظهور بمظهر الفخفخة والبذخ، أمام قوم ليس فى قلوبهم ذرة من الإخلاص لمضيفهم، فإن ضيوف القناة، ومعظمهم من ذوى الرؤوس المتوجة، وأصحاب النفوذ والسلطان المالى والسياسى فى أوروبا، هم الذين استعبدوا مصر بعد أنتهاء تلك الحفلات، وهم الذين ضربوا عليها الوصاية الشديدة الوطأة، ولقد أحدثت نفقات حفلات القناة فراغاً كبيراً فى الخزانة، وبدأت مظاهر الضيق والارتباك تبدو على وزارة المالية، لقرب المواعيد المضروبة لأداء أقساط الديون، ولم يكن فى خزائنها ما يفى بذلك، فاضطر الخديو تفريجاً للضائقة، وكتماناً لأسرارها، أن يستدين من أحد معارفه ٣٠٠ ألف جنيه، وقبلت وزارة المالية أن تخصم سنداتها بفائدة ١٤٪ لمدة ثلاثة أشهر، وبديهى أن قبول هذه الشروط القاسية دليل على ما وصلت إليه الحالة من الضيق والإعسار.

غلطة قاتلة :

في غضون هذا الوضع المتردى الذي كان يتطلب حكمة وتعقلاً، أقدم الخديو إسماعيل على غلطة قاتلة بتعيينه إسماعيل باشا صديق (المفتش) وزيراً للمالية، فكان أشبه بالقط الذي سلموه مفتاح الكرار. فعاث فيه فساداً ونهباً وغشاً وتلفيقاً. وكان بارعاً في جلب الأموال بالنصب والاحتيال دون خوف لأنه كان مطمئناً إلى أن مهمته الأساسية هي إسعاد مولاه، وتدبير الأموال التي تنعشه من أي سبيل. وكان يبتكر أساليب لا تخطر على بال عتاة النصابين والأفاقين منها أنه في صيف ١٨٦٩ باع للتجار الأجانب نصف مليون أردب من بذرة القطن، والقطن لا يزال قائماً على سيقانه في الأرض. وتسلم الثمن نقداً وعداً.. فلما تم جنى القطن وحل موعد تسليم البضاعة ذهب المشترون إلى الشون لاستلام البذرة فلم يجدوا شيئاً، وتبين لهم أن الوزير باع البذرة إلى مشترين آخرين.. أي أنه باعها مرتين.. وعندما ارتفعت أصوات المشتريات بالاحتجاج، استدعاهم الوزير وقال لهم: ولا تزعلوا.. كم دفعتهم في ثمن الأردب؟ قالوا : دفعنا ٧١ قرشاً. قال: وأنا اشتريت منكم الأردب بسعر ٧٨ قرشاً.. واتفقوا على أن تدفع لهم القيمة كمبيالات بفائدة ١٢ ٪ سنوياً.. أي أن ربحهم من الصفقة الوهمية ١٨ ٪ سنوياً وتكررت هذه العملية أكثر من مرة، وتبين للجنة التحقيق الأوروبية أن الحكومة كانت تبيع للتجار الأجانب غلالاً ليست في حوزتها، ولا ينتظر أن تحوزها، وتقبض ثمنها فوراً، فإذا جاء موعد التسليم، اشترت الحكومة الغلال من ذات التاجر الذي باعته إياها، ودفعت ثمنها أوراقاً وسندات على الخزانة مع فوائد تصل إلى ٢٠ ٪ ولا تحتسب

الفوائد على المبلغ الأصلى الذى دفعه التاجر، بل على المبلغ التالى المقدر ثمناً لغلاله.. وبهذه السرقات الفاحشة كانت خزينة الحكومة تنزف أموالاً بلا حساب أو عقاب.

قرض الدائرة السنية :

ولما حل عام ١٨٧٠، والخديو مقيد بعدم الاقتراض من الخارج طبقاً لشروط قرض ١٨٦٨، وبمقتضى فرمان الباب العالى، لم يجد إسماعيل بدأ من الاقتراض لحسابه الشخصي، فاستدان من البنك «الفرنساوى - المصرى» ٧٫١٤٢٫٨٦٠ جنيهاً بفائدة ٧٪ بضمان أطيانه الخاصة، ولذا سمى هذا القرض: قرض الدائرة السنية الثاني، وصدر بواقع ٦٧٪ فقط بعد استبعاد السمسرة والعمولة، فكانت النتيجة: إنه لم يدخل من القرض إلى خزائن الخديوى سوى خمسة ملايين جنيه، حتى بلغ العبء الذى احتملته الدائرة السنية سنوياً لأداء هذا القرض ٦٦٨,٩٦٠ جنيهاً أى ١٣٪ تقريباً من رأس المال المدفوع، وزعم الخديو أنه عقد هذا القرض ليستخدمه فى إنشاء مصانع السكر ومد السكك الحديدية فى أطيانه لنقل محصول القصب. وعند إنشاء المصانع والسكك بلغت تكاليفها أضعاف ما تستحقه، فضلاً عن أن أرباحها تقل عن فوائد الدين. ولهذا القرض حكاية يرويها إلياس الأيوبى وتكشف عن سفاهة الخديو. فيقول إن الذى قدم هذا القرض هو محل «بيشوفشهم وجولد شمدت» ونال فى مقابل ذلك امتيازاً لتأسيس بنك يدعى «البنك الفرنساوى - المصرى» كان الخديو نفسه أكبر مساهميه، واكتتب بربع أسهمه أى بما بلغت قيمته ٦٫٢٥٠٫٠٠٠ فرنك، وقام مؤسسوه ببعض شئون تصدير القرض،

وعلى الرغم من تصديره بواقع ٧٠٪ فقط، وبالرغم من هبوط صافي التصدير إلى ٦٧٪، فإن القرض لم يغط سوى ثلثيه فقط، ولم يكتتب أحد في الثلث الباقي، فأوصيت الحال خفض أسعاره، وكانت النتيجة أنه لم يقبض منه سوى خمسة ملايين جنيه فقط، ويحكي الأيوبي عن الأساليب السوقية التي كان يسلكها الوزير إسماعيل صديق للترويج لهذا القرض وتشجيع الناس على الاكتتاب فيه، فكان يذهب بنفسه على رأس فئة من رجال الحكومة إلى مقر البنك ليوهم الناس بثبات الموقف المالي، ويكون قدرة للسذج، ولو للحظة، ولكنه لم يجد قبولاً عند الناس، وارتفعت أصوات الصحف الوطنية تطالب الباب العالي بالتدخل لمنع هذا القرض. وإذا بأنباء حرب السبعين بين فرنسا وألمانيا تلقى بظلالها الكئيبة على الخديو بعد أن رأى عرش صديقه الحميم نابليون الثالث ينهار أمام الجحافل الألمانية. ويرى صديقته العزيزة «أوجيني» تهرب كجرذان السفينة، ولما عمَّ الضيق واشتد الكرب، لجأ المفتش إلى سلاح الدعايات الكاذبة، فأشاع بين الناس أن الحكومة عازمة على بيع سككها الحديدية إلى شركة انجليزية، وتارة يزعم أن وزارة المالية على وشك أن تستبدل إفادات الديون السائرة بحيث تصيب منها ١٢ مليون جنيه، ونجحت هذه الدعايات في رفع سعر القرض المذكور إلى ٧٤٪.

قانون المقابلة :

في ذاك العام (١٨٧٠) بلغ مجموع الديون التي اقترضها إسماع ٣٣ مليون جنيه، في أقل من سبع سنوات، ومع ذلك يذكر مؤلف كتا (موقف مصر المالي) أنه كان من الممكن إنقاذ الموقف، والخروج ه

الأزمة الخانقة لو عدل الخديو عن خطته، وتنكب سبيل الأسراف والتبدير، ولما ضاقت سبل الاقتراض الخارجي أمام الخديو، تفتق ذهن وزير ماليته إسماعيل صديق عن حيلة يبتز بها أموال المصريين، فعمد في البداية إلى زيادة الضرائب، ولكن هذا المعين لم يشبع حاجة الخزينة إلى الأموال، فابتدع المفتش طريقة تعد بمثابة قرض إجبارى يجبى من الأهالى، أو ضريبة جديدة تفرض على أطيانهم، وأعد لذلك قانوناً عرف باسم «قانون المقابلة»، وبمقتضاه يدفع مالك الأطيان مجموع الضرائب المربوطة على أرضه لمدة ست سنوات مقدماً، وفى مقابل ذلك يعفى من دفع نصف المربوط على الأرض إلى الأبد. أى يدفع المالك ضرائب السنوات الست دفعة واحدة، وتحسب لهم فوائد عن هذه الدفعة الواحدة بواقع ٨٫٥٪ وأساس هذا المشروع، على حسبان إسماعيل صديق، أن الدين العام يبلغ ضعف الضرائب العقارية عن ست سنوات، فإذا دفع الأهالى الضرائب مضاعفة عن هذه السنوات الست، سدد الدين كله، وفى مقابل ذلك تعفيهم الحكومة إلى اللأبد من نصف الضريبة المربوطة على أطيانهم، وتعهدت الحكومة فى هذا القانون، بأن من يدفعون المقابلة لا يزاد سعر الضريبة على أطيانهم فى المستقبل، ولا يجوز مطالبتهم بسلفة ولو مؤقتة، ولا يجوز لوزير المالية - بعد الحصول على المبالغ المطلوبة - إصدار سندات على الخزانة أو استدانة ديون جديدة، ولا تجوز المطالبة بسلف مؤقتة ولو تحت تأثير قوة قاهرة كشرق أو غرب إلا بعد التصديق على ذلك من مجلس النواب، وقضى القانون أن تخصص المبالغ المدفوعة من المقابلة لسداد ديون الحكومة. وأرجو أن تضع خطين تحت العبارة التى تمنع وزير

المالية من الاستدانة أو إصدار سندات على الخزانة «بعد الحصول على المبالغ المطلوبة».. لأن إسماعيل صديق، العريق فى المراوغة والتحلل من الأخلاق، سوف يستخدم كل الحيل للانعتاق من هذه القيود، بحجة أن المبالغ المطلوبة لم تكتمل (!!) فرغم أن الحكومة جعلت دفع «المقابلة» اختياريا إلى أنها استخدمت التوريط بالنسبة للبشوات وكبار الأعيان، واستخدمت الضغط والإكراه والضرب بالكرباج بالنسبة لسائر الأهلين، ولولا الإكراه لما ارتضى الناس المخاطرة بأموالهم، لأنهم يعلمون براعة الحكومة فى التحلل من العهود، ورغم ذلك لم تجمع الحكومة من أموال المقابلة سوى خمسة ملايين جنيه لغاية آخر سنة ١٨٧١ . يقول الرافعي: وغنى عن البيان أنه لم يدفع شيء من هذه الملايين لتسديد الدين العام، أجنبياً كان أو سائراً، بل ابتلعتها هاوية الإسراف التى ابتلعت القروض الأخرى، وعلاوة عن ذلك فإن وزير المالية إسماعيل المفتش نقد عهده بالامتناع عن إصدار سندات على الخزانة، وأصدر إفادات مالية استدان بها عدة ملايين أخرى بلغت أثنى عشر مليون جنيه، ونقضت الحكومة عهدها أيضاً فزادت الضرائب على ذات الزطيان التى دفعت المقابلة، وكانت المقابلة طريقة معوجة فى الاستدانة، لأنه معلوم أن معظم إيرادات الحكومة السنوية فى بلاد زراعية كمصر، تجبى من الضرائب على الأطيان فإنقاص نصف المربوط من الضرائب إلى الأبد يؤدى إلى نضوب معين المال بعد انتهاء السنوات الست، مما يضاعف من الضيق المالى، هذا فضلاً عن أن الحجة التى تذرعت بها الحكومة وهى وفاء الدين العام لم تتحقق البتة، ولم يسدد شيء من هذا الدين، بل زاد عما كان عليه، فكأ «المقابلة» كانت وسيلة لاقتناص الأموال من الأهالى وتبديدها.. ومن

اتجهت همة إسماعيل «الخديو» وإسماعيل «المفتش» إلى خارج الحدود لاستئناف مسلسل الاقتراض، فكان القرض المشئوم من بيت «أوبنهايم»، وكانت الحجة هي نفس الحجج السابقة التي لم يتحقق منها شيء وهي تسديد القروض. وبلغت سندات القرض ٥ر٨٤٪ بفائدة ٧٪ ولم يدخل الخزانة منه بعد الخصم والسمسرة والعمولة سوى...ر٧٤٠ر٢٠ جنيه أي بنقص ٣٧٪ من قيمة الدين الاسمية، فخسرت الحكومة من أصل القرض ٢١ مليون جنيه في حين أنها التزمت بتسديد قسط سنوى ٦٧١ر٢٦٥ر٢ جنيهاً ثم إنها لم تقبض المبلغ نقداً، بل تسلمت منه أحد عشر مليون جنيه فقط، والباقي وقدره تسعة ملايين جعلت سندات للخزانة المصرية.

شروط جائرة :

ومن هذا يتبين - كما يذكر الرافعي في كتابه عن عصر إسماعيل - أن قرضاً ألقى على عاتق البلاد عبئاً جسيماً مقداره اثنان وثلاثون مليون جنيه، بلغ صافي ما تسلمته الحكومة منه نقداً أحد عشر مليون جنيه فقط، وليس في تاريخ القروض، في العالم قاطبة، قرض يعقد بمثل هذه الشروط الجائرة، بل هذه السرقة العلنية، كما أنه لا يمكن أن توجد حكومة عندها قليل من الشعور بالمسئولية تقبل التعاقد على مثل هذه الشروط، وقد رهن إسماعيل لسداد هذا الدين المشئوم ما بقي من موارد الإيراد التي لم تخصص كلها أو بعضها للقروض السابقة وهي:

أولاً: إيرادات السكك الحديدية وقدرها ٧٥٠ ألف جنيه في السنة.

ثانياً : الضرائب الشخصية والضرائب غير المقررة وقدرها مليون جنيه.

ثالثاً: عوايد الملح وقدرها ٢٠٠ ألف جنيه.

رابعاً : مليون جنيه من ضريبة المقابلة.

خامساً : كل الموارد التي خصصت للقروض السابقة متى أصبحت حرة، ومن تهكم الأقدار أن إسماعيل عقد هذا القرض المنحوس في نفس السنة التي حصل فيها على الفرمان الجامع الذى يعد أقصى ما حصل عليه من المزايا، أو بعبارة أخرى: فإن إسماعيل قد بلغ أوج نفوذه الرسمي في علاقته مع تركيا، في الوقت الذى أشرفت فيه البلاد على حالة من الإفلاس أفقدتها استقلالها المالى ثم السياسى.

خلع إســـماعيل

كان خلع الخديو اسماعيل وطرده من مصر، ثمرة مؤامرة خبيثة حبكتها انجلترا، وهى فى ذروة مدها الاستعمارى، وسارت الدول الأوروبية في ركابها وسايرتها دولة الخلافة العثمانية وكانت فى أضعف حالاتها، ولم يكن عزل اسماعيل بسبب عجزه عن تسديد الديون كما أشاعوا، لقد جعلوا من أزمة الديون حجة لتبرير خلعه، وصوروه على أنه «أكلنجى» يعتزم عمل تفليسة ليتهرب من سداد الديون، ولم يكن هذا صحيحا، وأن الصحيح أن انجلترا هى التى كانت تسعى إلى إعلان إفلاس مصر تمهيدا لاحتلالها والسيطرة على قناة السويس - مفتاح الهند - وهو ما حدث في عهد توفيق، وكان الوزيران الأوربيان فى حكومة نوبار ثم توفيق يعدان مشروعا لإعلان أن مصر في حالة إفلاس، ولكن.. زعماء الوطنية المصرية تحركوا.. وأعدوا مشروعاً مضاداً يكفل ضمان الديون وتسديدها من إيرادات الحكومة المصرية، وقدم هؤلاء الزعماء «اللائحة الوطنية» إلى «الخديو» إسماعيل وتضم بندين اثنين لا ثالث لهما : أولهما تسوية الديون الأجنبية على أساس أن الإيرادات تكفى المصروفات والوفاء بحقوق الأجانب،

وثانيهما: تعديل النظام البرلماني وتخويل مجلس شورى النواب السلطات المعمول بها في البرلمانات الحديثة، وتقرير مبدأ المسئولية الوزارية بحيث تكون الحكومة مسئولة أمام المجلس النيابي - وليس أمام الخديو..

ولو أمعنت النظر في هذه «اللائحة الوطنية» فسوف ترى فيها روحا جديدة على الحياة السياسية المصرية في سبعينيات القرن التاسع عشر، وأنها خطوة انتقالية في تطور البلاد، فالمجلس النيابي الذي رأى النور في عام ١٨٦٦، وولد بدون سلطات فعلية تعطيه حق المشاركة والرقابة على مقدرات البلاد، هذا المجلس الذي أراد به إسماعيل أن يكون مجرد ديكور يتباهى به أمام الدول الأوروبية - إذا به يكبر وينمو ويبلغ درجة النضج.. ويطالب بتطبيق المبادىء الأساسية التي قامت عليها الحياة البرلمانية في أوربا وأولها مبدأ المسئولية الوزارية، حتى تكون الوزراة مسئولة أمام ممثلي الشعب، وإذا بقادة الشعب يتحركون لإجهاض المؤامرة التي كان يدبرها الوزيران العميلان - أحدهما انجليزي والثاني فرنسي - ويعلن قادة الشعب أن مصر قادرة على سداد الديون مع الحفاظ على كرامتها وسمعتها أمام العالم..

كان بطل هذه الحركة الوطنية هو: شريف باشا الذي ارتبط اسمه في تاريخ النضال بالنزاهة والشرف والتشبث بالدستور ورفض الهيمنة الأجنبية على مصر. أما أعوانه الذين شاركوه في إعداد اللائحة الوطنية فهم: اسماعيل راغب باشا، شاهين باشا، حسن باشا راسم، جعفر باشا، السيد على البكري (نقيب الأشراف) الشيخ الخلفاوي، الشيخ حسن العدوي، وأعدوا عريضة أشبه بالمذكرة التفسيرية للائحة وقع عليها عشرات من أعضاء مجلس النواب والتجار والأعيان والعلماء

والضباط والموظفين العاملين والمتقاعدين، كما وقع عليها شيخ الإسلام، وبطريرك الأقباط وحاخام اليهود وحمل وفد من أحرار البلاد اللائحة الوطنية وذهبوا بها إلى قصر عابدين فقابلهم الخديو ورحب بهم، وأقر اللائحة وأمر بترجمتها وإرسالها إلى قناصل الدول الأجنبية وفى نفس اليوم (٧ أبريل ١٨٧٩) أمر بإعفاء ابنه (توفيق) من رئاسة الوزارة وتكليف شريف باشا بتشكيل وزارة جديدة وفقاً للمبادىء التى تضمنتها اللائحة الوطنية. وجاء فى خطاب التكليف: إنى بصفة كونى رئيس الحكومة ومصرياً، أرى مدم الواجب على أن أتبع رأى الأمة وأقوم بأداء ما يليق بها من جميع الأوجه الشرعية، لكنى لما نظرت السير الذى كانت عليه النظارة السابقة حصل لى غاية الأسف من أن ذلك السير كان على غير رضا الله والأهالى، حتى نشأ عنه اضطراب ونفور سرى فى جميع القلوب وحركها.. وزيادة على ذلك فإن النتيجة التى حررها ناظر المالية (الانجليزى) وأظهر بها أن القطر فى حالة إفلاس، كانت سبباً فى تغير قلوب الأمة.. لقد وكلتكم بتشكيل هيئة النظارة من أعضاء أهليين مصريين.. مكلفين بالمسئولية لدى مجلس الأمة الذى سيجرى انتخاب أعضائه وتعيين مأموريه بوجه كاف للقيام بتأدية ما يلزم للحالة الداخلية ومرغوب الأمة نفسها.. هذا ولعلمى بحسن إخلاصكم لخدمة الوطن فلا أشك فى أن تستعينوا بالرجال المشهود لهم مثلكم بالأمانة والاحترام لدى الجميع .. إلخ..

وثيقة تاريخية هامة:

فى رأى المؤرخ عبد الرحمن الرافعى أن هذا الخطاب يعد ه

الوثائق الهامة فى تاريخ الحركة القومية والحياة الدستورية فى مصر، لأن الخديو اسماعيل اعترف فى هذه الوثيقة بأن من واجباته اتباع رأى الأمة، وأنه لم يكن راضيا عن الوزارة المستقيلة لمخالفتها إرادتها، فهو يعلن أنه مؤيد لمطالب الأمة ممثلة فى نوابها تأييدا تاما، وأنه موافق على اللائحة الوطنية التى تقدمت بها، ومما هو جدير بالاعجاب: إشادة الخديو بمصريته ووطنيته. كذلك قرر اسماعيل فى كتابه مبدأ المسئولية الوزارية أمام مجلس شورى النواب، وهو أساس النظام الدستورى الحديث، فهذا المبدأ العام الذى يعد قوام الدساتير قد تقرر إذن فى مصر سنة ١٨٧٩ بالوثيقة التى استجاب بها الخديو إسماعيل إلى الأحرار فيها إلى شريف باشا تأليف الوزارة على أساس هذه القاعدة وظاهر أيضا من وثيقة ٧ أبريل أن الخديو لم ينقض تعهداته للدول، فقد أشار فى ختام الوثيقة إلى إيجاد مصلحة تفتيش الإيراد والمنصرف، والمقصود منها نظام الرقابة الثنائية الذى تقرر فى مرسوم ١٨ نوفمبر ١٨٧٦، ولو سلكت الدول الأوربية مسلك الاعتزال حيال مصر، لما اعترضت من جانبها على تأليف وزارة وطنية خالية من العنصر الأجنبى، ولكنها وقفت موقف التعنت وسوء النية وأعلنت رفضها لهذه الخطة الجديدة..

المثير للعجب والغرابة أن ترفض الدول الأوربية المسلك الجديد الذى سلكه الخديو اسماعيل، وهو ارتماؤه فى أحضان الشعب، وقبوله مبدأ المشاركة الوطنية فى إنقاذ البلاد من «الخية» التى تحبكها انجلترا حول رقبة مصر، ربما يخيل إليك أن هذه الدول «المتحضرة» غضبت من إقصاء الوزيرين الأوربيين من حكومة شريف باشا، وكانا يقومان

بمهمة الرقابة والهيمنة على شئون البلاد، ولكن الحقيقة أن انجلترا ـ وتابعتها فرنسا ـ إنما توجست خيفة من التطورات السياسية التى جدت على مصر، وخشيت من تلك الروح الجديدة التى بدأت معالمها فى تدفق الدماء الوطنية فى شرايين الحياة المصرية، وظهور زعامات وطنية تتحمل المسئولية، وتبدى استعدادها للمشاركة فى تسوية أزمة الديون.. وكل هذا يدل على أن مصر تسير فى طريق الاستقلال والتحرر من الهيمنة العثمانية. وتمضى خطوات بعيدة فى الطريق الذى شقه محمد على.. وهو بناء مصر الحديثة المستقلة عن تركيا وغير تركيا..

عشم إبليس:

هذا هو السبب الحقيقى الذى أثار مخاوف انجلترا ـ أم الديمقراطية ـ وجعلها تسعى، منذ مشروع اللائحة الوطنية، إلى خلع اسماعيل وطرده من مصر، قبل أن يتحول إلى رمز وطنى، وبدأت انجلترا تسابق الزمن قبل أن تتطور الحركة الوطنية فى مصر إلى الدرجة التى تفسد خطتها الدفينة لاحتلال مصر والسيطرة على قناة السويس..

بدأ وكلاء الدول الأوربية وقناصلها يتوافدون على قصر عابدين لإبلاغ اسماعيل احتجاجهم على اللائحة الوطنية، وهو يظهر لهم عدم الاكتراث، ثم تطور الاحتجاج إلى تهديد بالخلع والعزل وتعيين أخيه وعدوه اللدود ـ مصطفى فاضل بدلا منه.. ولكنه قابل التهديد بعد المبالاة.. فقد كان لديه أمل ضئيل فى أن تقف الدولة العثمانية إ جانبه، ولا تخذله فى هذه اللحظات العصيبة، وقد تكالبت عليه انجلتر

وحرضت عليه كل أوربا، كان يتصور أن ملايين الدنانير الذهبية التى أغدقها على السلطان وحاشيته وأهل بيته سوف تعمل عملها حيث حانت لحظة الاستنجاد بالدولة العلية، وأوفد الخديو مندوبا عنه - طلعت باشا - إلى الآستانة محملا بما أمكن جمعه من الأموال والتحف فى تلك السنين العجاف. لعل هذه الرشاوى تفلح فى إقناع السلطان عبدالرحمن بعدم الرضوخ لمطالب الدول الأوربية بعزل اسماعيل. وطالت إقامة طلعت باشا فى استانبول، مما جعل الخديو يشعر بالقلق وأدرك أن عشمه فى مساندة السلطان أصعب من عشم إبليس فى الجنة، فبدأ يهيىء نفسه للرحيل. ويختار من حريمه أقربهن إلى قلبه، ويذكر كاتب سيرته - الياس الأيوبى - جمع من كل حريمه ما كان معهن من حلى ومصاغ، واستدعى عددا من صائغى الأقباط وأقامهم بعابدين يشتغلون ليلاً ونهاراً فى نزع الحجارة والفصوص الكريمة ليسهل نقلها والتصرف فيها، وجرد سراى عابدين من كل رياشها الثمينة التى كانت ملكة الشخصى، لا ملك الحكومة، ومن آنيتها الذهب الخالص والمرصعة - وقدر ثمنها بـ ٨٠٠ ألف جنيه، ومن كل طنافسها القديمة، وأثاثها الفاخر، ولوحاتها ونجفاتها الفضية، ولم يبق لخلفه من الـ ٢٤ طاقم سفرة الفخمة الموجودة فيها سوى طاقمين، وكانا أقلها قيمة، وأرسل جميع ذلك - ما عدا نساءه - إلى الأسكندرية فى صناديق مغلقة، حملت على ظهر اليخت «المحروسة» تحت حفظ حراس مؤتمنين..

وعاب الأيوبى على إحدى صحف الأسكندرية قولها إن إسماعيل بذل مجهوداً أخيرا لجمع أموال من الأقاليم، وأنه وضع يده على كل النقود التى كانت موجودة فى خزينة المالية، وقدرها ما بين

٢٠٠ و٣٠٠ ألف جنيه، وغنمها لنفسه. وفات ذلك الأفاك - كاتب المقال كما وصفه الأيوبي - أن اسماعيل كان أدرى الناس بأنه لو فعل ذلك لعرض نفسه إلى حجز الدول والحكومة المصرية ذلك المبلغ من مرتبه السنوي، فلا يكون قد جنى من عمله سوى العار والسخط العام..

قرار العزل:

وفي تلك الأثناء كانت الدول الأوربية قد نجحت في الضغط على السلطان عبدالحميد وأجبرته على إقصاء اسماعيل عن أريكة مصر، وتعيين ابنه (محمد توفيق) وفي صباح يوم ٢٦ يونية ١٨٧٩ أبرق سفير انجلترا في الآستانة بأن الإرادة السلطانية قد صدرت بعزله، وفي ضحى نفس اليوم، تلقى زكي باشا «المر تشريفات» برقية محررة باللغة التركية ومرسله «إلى اسماعيل باشا خديو مصر سابقا» وكان زكي باشا جالساً في مكتبه بالدور الأرضي من قصر عابدين، وتصادف وجود خيري باشا (المهمندار) حامل الأختام السنية، وعدد من كبار رجال القصر، وأسقط في يديهم جميعا، وعلا الاصفرار والاضطراب جباههم جميعا، وحاروا ماذا يفعلون (!!) وكل منهم يرفض أن يكون حامل البرقية المشئومة إلى الخديو وهو يتربع على كرسي العرش في الدور العلوي، وحاولوا إقناع خيري باشا بالقيام بهذه المهمة لأنه حامل الأختام، إلا أنه رفض بإصرار.. وبينما هم يتجادلون دخل عليهم رئيس الوزراء شريف باشا، فسلموه البرقية، فتردد بعض الشيء، إلا أنه بصفته وزير مصر الأكبر، فمن واجبه أن يقوم بالتبليغ، ولم يكن بالرجل الذي يحجم عن مثل هذا العمل مهما كان شاقا..

الإرادة الهمايونية :

حمل شريف باشا البرقية وصعد إلى الطابق العلوى، وفض البرقية وهو فى الطريق فإذا نصها: «إن الصعوبات التى نجمت أخيرا فى أحوال مصر الداخلية والخارجية، بلغت مركزا عسيرا، وقد ينتج عن استمرارها كما هى خطر لمصر وللدولة العثمانية، ومن أهم واجبات الحكومة السلطانية إيجاد الوسائل لتقرير الطمأنينة والأمن والرفاهية بين الأهالى، وإنما صدرت الفرمانات لهذه الغاية عينها، فيما أنه قد ثبت أن بقاءكم في منصب الخديوية لن ينجم عنه سوى مضاعفة الصعوبات الحالية، وزيادة خطورتها، فجلالة مولانا السلطان. بناء على تداول مجلس وزارئه، قرر تعيين صاحب السعادة محمد توفيق باشا فى منصب الخديوية، وأصدر إرادته الهمايونية بذلك، وقد أبلغ هذا القرار السامى إلى سعادته بإشارة برقية على حدة، وعليه فإنى أدعوك إلى التخلى عن شئون الحكم طبقا لأوامر جلالة السلطان»..

تقدم شريف باشا على استحياء من إسماعيل، وقدم إليه البرقية، فقرأها وكأنه يعرف ما فيها، أو يتوقع هذه النهاية، وبعد أن فرغ منها التفت إلى شريف وقال له: «أدع سمو توفيق باشا حالا». فخرج شريف باشا وامتطى مركبته إلى قصر الإسماعيلية (مكان فندق هيلتون حاليا) فوجد الأمير توفيق على وشك الركوب متجها إلى قصر عابدين بعد أن تلقى فرمان التكليف، فركب شريف إلى جواره، فلما وصلا إلى عابدين، توقف شريف بالدور الأرضى، بينما صعد توفيق إلى حيث كان أبوه فى انتظاره، عندئذ نهض اسماعيل وتقدم من ابنه - الخديو

الجديد. وانحنى فلثم يده وقال: «إنى أسلم على أفنديناء ثم قبله على وجنتيه، وتمنى له أن يكون أوفر حظا وأكبر سعادة من أبيه وبعد ذلك انحنى أمامه ودخل إلى دائرة الحريم، تاركا توفيق يجلس على عرش مصر. ويبدأ حياة جديدة كانت وبالا وشؤما على البلاد والعباد..

أما اسماعيل فقد بدأ يتهيأ لمغادرة القاهرة في القطار الخاص.. الذى سيحمله إلى الأسكندرية حيث يستقل اليخت (المحروسة) ولكن إلى أين..؟ كان اسماعيل يأمل أن يقضى بقية أيامه فى الاستانة، إلا أن عبدالحميد السلطان غليظ الفؤاد حرم عليه أن يقيم فى أى بلد من ممتلكات الدولة العثمانية. وشاء القدر أن يعيش إسماعيل طريداً شريداً فى العواصم الأوربية التى طالما شهدت أيام عزه ومجده..

الساعات الأخيرة فى حياة إسماعيل

فى صباح يوم ٣٠ يونية ١٨٧٩ نهض الخديو المخلوع إسماعيل من نومه بعد آخر ليلة قضاها فى قصر عابدين، القصر الذى بناه اسماعيل وجعل منه تحفة معمارية ومقرا للحكم بعد أن ظلت القلعة المقر الرسمى لحكام مصر منذ صلاح الدين الأيوبى، هبط اسماعيل إلى الطابق الأرضى فوجد فى انتظاره جمع غفير من الأمراء والوزاره والكبراء والتجار والأعيان، جاءوا لتوديع أميرهم الوداع الأخير بعد أن عاشوا فى كنفه سبعة عشر عاما كانت أشبه بزلزال هز مصر من أعماقها ونقلها إلى مشارف المدينة الحديثة، ثم هبط بها إلى هاوية الدمار والوقوع فى براثن النفوذ الأجنبى، وها هو اسماعيل يطوى صفحته الأخيرة بخيرها وشرها، ويستعد لمغادرة البلد الذى أراد أن يجعله قطعة من أوربا. فإذا بأوربا تتآمر عليه، وتجمع كلمتها على إقصائه ونفيه من مصر، بعد أن استشعرت الخطر من تصاعد النزعة الوطنية والتفافها حول اسماعيل..

عندما حانت الساعة الحادية عشرة، جاء الخديو الجديد - محمد توفيق - ليصحب أباه إلى مثواه الأخير، وليس فى هذا الوصف مبالغة أو

خطأ، فقد كتبت نهاية اسماعيل الحقيقية يوم غادر مصر، ولسوف تصبح السنوات التي سيعيشها اسماعيل في المنافي، مجرد محطة انتظار لليوم الذي يغادر فيه الدنيا بأسرها، وصافح اسماعيل ضيوفه فردا فردا.. ثم غادر القصر متوكئا على ذراع ابنه توفيق، واستقل الاثنان العربة الخديوية ومن خلفها عربات الأمراء والكبراء. وقطع الموكب شوارع القاهرة وقد خيم عليها صمت حزين بعد أن كانت تمتلئ بالصخب في أيام اسماعيل، ولم يكن هناك من مراسم الوداع الرسمي سوى صفين من الجنود اصطفوا على الجانبين، أما الناس فكانوا بين حزين على نهاية العاهل الذي فرط في الأمانة، ولم يحافظ على السفينة من العواصف والأنواء، وبين شامت في الرجل الذي جر البلاء على البلاد وجعلها رهينة للمرابين والأفاقين وشذاذ الآفاق..

وحين بلغ الركب محطة العاصمة، ترجل اسماعيل إلى الرصيف حيث يقف القطار الذي سيحمله إلى الاسكندرية، بينما وقفت عربات مسدولة الستائر تنطلق منها صيحات البكاء والنحيب من بعض النسوة لعلهن بقايا الحريم اللاتي قرر أسماعيل تركهن في مصر، بعد أن أنتقى منهن من تصلح لمرافقته في حياته الجديدة، ولكن المفاجأة كانت في انطلاق الزغاريد من بعض جوانب المحطة، قيل أنهن من حريم اسماعيل المفتش جئن يبدين الشماتة والتهكم على الرجل الذي قتل سيدهن غيلة، ووجد اسماعيل على رصيف القطار عددا من كبار المودعين، فقال لهم: إني، وأنا تارك مصر أعهد بالخديو، ابني، إلى ولائكم وإخلاصكم. وعندئذ تقدم توفيق فقبل يد أبيه، عندئذ قال له إسماعيل وهو يجهش بالبكاء: كنت أود يا أعز يا البنين، لو استطعت أن

أعالج بعض المصاحب التي أخشى أن تسبب لك ارتباكا، على أني واثق من حزمك وعزمك، وأوصيك بإخوتك، وسائر الآل برا.. فاتبع رأي ذوي شوراك، وكن يا بني أسعد حالا من أبيك..

الطائر الشريد يبحث عن عش:

وحانت لحظة الرحيل، فصعد اسماعيل الى عربته الخاصة، وترك القطار ليشق الطريق وسط المزارع المترامية في دلتا النيل، وأخذ اسماعيل يتطلع إلى الأرض الخضراء تتخللها المساقي والطرق والقرى والمدن، ويملأ عينيه من مناظرها عساها تخفف عنه لوعة الفراق حين يقضي ما تبقى له من عمر في بلاد الفرنجة، لقد كان يود أن يمضي أيامه الأخيرة في بلاد العثمانيين أو في أي بلد شرقي، وبعث إلى السلطان عبد الحميد يستعطفه حتى يسمح له بما يريد، ولكن السلطان رفض أن يسمح له بالإقامة في أي أرض من ممتلكاته، فإلى أين يذهب الطائر الشريد؟ وفي أي عش يجد السكن والراحة النفسية؟ وعلم ملك إيطاليا «أو مبرتو» بقرار السلطان. فبعث إلى إسماعيل يبدي استعداده لقبوله ضيفاً على إيطاليا وتخصيص قصر فخم يقيم فيه يقع في أرقى ضواحي مدينة نابولي، وقبل إسماعيل العرض من هذا العاهل شاكراً له وفاءه لذكرى أبيه الملك ڤيكتور عمانوئيل الذي كانت تربطه بالخديو مودة حميمة، ولعل اسماعيل والقطار ينهب الأرض قد جاشت على خاطره ذكريات الأيام الخوالي عندما كان يهبط العواصم الأوربية، فترتج المجتمعات، وتلبس المدن أحسن حللها، وتبدي أجمل زينتها، وتتهيأ لاستقبال العاهل الشرقي الذي يذكرهم بملوك ألف ليلة

وليلة حيث ينثر عليهم القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، ترى.. كيف تستقبله هذه المجتمعات بعد أن زال عنه المجد، وجفت من يده الأموال.. وصارت خزينته خاوية إلا من الذكريات (!!).

غروب ليس له شروق:

أفاق اسماعيل من غفوته على عجلات القطار وقد توقفت عن صريرها الرتيب، فعلم أنه قد بلغ الاسكندرية، وركب اسماعيل وصحبه عربات مقفولة أقلتهم إلى الترسانة، ومنها حملتهم القوارب إلى داخل البحر حيث ترسو «المحروسة»، وقد ازدحم سطحها بجمع من ذوى المقامات الرفيعة، وتمالك إسماعيل نفسه ليظهر أمام مودعيه رابط الجأش، فأخذ يلاطفهم واحداً واحداً.. ويداعبهم بعبارات الود لعلها تذيب جبل الشجن الذى تراكم على قلبه، وكان من الصعب عليه أن يواصل تمثيل دور البطل الذى لا تهزه المحن، فترك مودعيه، وأوى إلى غرفته في جوف السفينة، وعندئذ غادرها المودعون، ورفعت المحروسة مراسيها وبدأت تمخر العباب بينما السفن الراسية في الميناء، والمدافع المنصوبة على طابية كوم الناضورة تطلق مدافعها تحية لخديو مصر المخلوع، وهو يغادر أرض مصر للمرة الأخيرة، وبينما كانت الشمس تلقى بنفسها عند حد الأفق حيث تختلط زرقة الماء بزرقة السماء، كانت شمس اسماعيل تسقط في الغروب الذى يؤذن بليل أبدى ليس له شروق (!!).

وعندما حطت المحروسة رحلها على رصيف ميناء نابولى، لم يهبط اسماعيل، وظل قابعا في جوفها خمسة عشر يوما، كان الأمل

يراوده بأن تسمح حكومة مصر ببقاء المحروسة فى حوزته، فهى آخر قطعة يشم منها ثرى مصر، ويتمنى أن يقضى فيها بقية عمره، ولكن الحكومة المصرية رفضت، وهددته بأن تقطع عنه راتبه السنوى إذا استولى على السفينة..

وعادت المحروسة إلى مصر، ونزل اسماعيل فى القصر الذى تحيط به الحدائق البديعة، وعلى البعد منه يبدو بركان فيزوف الذى تهدر النار من قمته، ولكن.. كل هذه المناظر الخلابة والحياة الرخوة، لم تفلح فى إخماد الحريق الذى يتفجر فى قلب أسماعيل حنينا إلى وطنه، وكلما سمع عن أحداث الثورة العرابية التى أخذت بخناق ابنه توفيق وتكاد تعصف بعرشه، راوده الأمل فى العودة إلى مصر، وبعث بالمكاتبات إلى ولده يستعطفه، ولكن توفيق كان صارما فى رفضه عودة أبيه إلى مصر، فلجأ اسماعيل إلى الحكومات الأوربية مبديا الندم على ما بدر منه، معلنا استعداده لتنفيذ كل مطالبها إذا سمحت له بالعودة إلى بلده، وكان موقف الدول الأوربية لا يقل صرامة عن موقف الابن الذى رأى فى عودة أبيه ضياعا لعرشه، فازداد به تشبثا خاصة بعد أن انحاز إلى انجلترا انحيازا مخزيا وسمح لهم باحتلال مصر لضمان بقائه فى مقابل إخماد الثورة..

صدود وجحود ونكران:

أخذ اسماعيل يتردد على العواصم الأوربية التى تعرفه جيدا، وتذكر إسرافه وسفهه وإنفاقه الأموال على توافه الأمور بغير حساب، ولكن.. شتان بين زياراته السابقة، وزيارته لها وهو مخلوع خاوى الوفاض، لقد وجد أبواب الفنادق الفاخرة موصدة فى وجهه لأنه لا يستطيع الوفاء

بنفقاتها، فكان يقيم في أحقر الفنادق، وكان يطرق أبواب الوزراء والكبراء ورجال المال والبنوك الذين طالما تمرغوا في كرمه، فلا يجد إلا الصدود والجحود. وارتأى اسماعيل أن يستعطف السلطان عبدالحميد ليسمح له بالإقامة في قصره - الأمركون - الذى اشتراه على ضفاف البوسفور، وجعله مقرا ومأوى كلما اقتضته الظروف الحج إلى كعبة السلطنة العثمانية ووافق عبدالحميد، وفرح اسماعيل، وما درى أنه كان كالمستجير من الرمضاء بالنار، فقد كانت إقامته في قصره أشبه بحياة العصفور في القفص، أحاط به الجواسيس من كل ناحية، وضيقوا عليه الخناق حتى اعتلت صحته، وتكالبت عليه العلل والأمراض..

لقد ظن إسماعيل أنه سيجد في كنف السلطان ما بخل به الزمان ومن بره وعطفه ما يرد إليه بعض هناء الماضي، ولكنه انتقل في الحقيقة من سجن إلى سجن، ومن منفى واسع الرحاب إلى معتقل ضيق الجناب، ولو علم إسماعيل أن حياته في الآستانة خير من مقامه في نابلي لما طلب هذه الأمنية، ولما استبدل القيد بالحرية.. فقد عاش في تركيا ما تبقى له من عمر وهو معذب النفس، منهوك القوى، عليل الجسد، فاقد الأمل، لا يطمئن إلى الحياة، ولا تطمئن الحياة إليه، ولا يسالمه الدهر، ولا يستسلم إليه، حتى أنه طلب من السلطان أن يسمح له بالسفر إلى مدينة (إمس) المشهورة بمياهها المعدنية، فكان رد السلطان: «عندك في الأناضول مياه (بروصة) المعدنية تستطيع أن تذهب إليها للعلاج.. وقد سبق لك - أيام كنت خديو مصر - أن استشفيت فيها، وأعلنت وقتها أنها أفضل من حمامات أوربا بأسرها..

ثلاثة أمراض وثلاثة أحزان:

وعندما جلس عباس الثاني - ابن توفيق - على عرش مصر ١٨٩٢، ذهب لزيارة جده في منفاه، وتجددت مساعي اسماعيل للعودة إلى مصر، ولكن تصرف عباس لم يكن أفضل من تصرف أبيه، فتجاهل مطلب جده، إلى أن جاءت التقارير الطبية تقول أن الحالة الصحية للخديو اسماعيل بلغت حد الخطر، وبينما كان الخديو عباس يشهد حفلا بدار الأوبرا تلقى برقية تنذر بسوء الحال، فاستدعى أعمامه واستشارهم، واستقر الرأى على أن يسافر الأمير أحمد فؤاد والأمير ابراهيم حلمي ليكونا بجانب والدهما ريثما يسعى عباس لعودة جده إلى مصر، وفى صباح الغد استدعى عباس مجلس الوزراء وباحثهم فى الأمر، فأجمعوا على عدم الموافقة، خشية أن تجر عليهم عودة اسماعيل أزمة سياسية، فعارضهم الخديو عباس معارضة شديدة، ثم اضطر إلى النزول على رأيهم، وسافر الأميران إلى استانبول وبعثا ببرقية تحوى قرار الأطباء بأن اسماعيل مصاب بالالتهاب الرئوى، والسرطان المعوى، ومرض الاستسقاء..

لقد اجتمعت على الخديو اسماعيل ثلاثة أمراض، كما تحالفت عليه ثلاثة أحزان: حزنه على ضياع عرشه، وحزنه لخيبة مسعاه، وحزنه لفراق وطنه.. لكن أحزانه كانت أشد إيلاما على نفسه من أمراضه، فعاد الخديو عباس يجتمع بالوزراء مرة ثانية، وثالثة، ولكنهم أصروا على رفضهم عودته إلى مصر، واحتجوا بمعارضة الإنجليز ورفض

السلطان، وأصدروا قراراً بانتهاء البحث في هذا الأمر.. بينما كان أسماعيل يسير حثيثاً نحو نهايته المفجعة..

ألحان الغروب:

للأستاذ طاهر الطناحي كتاب عنوانه (ألحان الغروب) تناول فيه بأسلوب أدبي شيق وبديع، اللحظات الأخيرة في حياة المشاهير، ومنهم الخديو إسماعيل، وما لاقاه من عنت وقسوة وهو يعاني سكرات الموت، حتى أن الخديو عباس ساءه موقف مجلس الوزراء منه ومن جده، فبعث بسر دار الجيش المصري الأسبق «محمد راتب باشا» إلى الأستانة ليكرر الرجاء في عودة إسماعيل رفقاً بصحته، فلم يظفر بالقبول، وقست الأقدار على الخديو اسماعيل، وهو على فراش الموت، وعبست له في أيامه الأخيرة بعد ما ابتسمت له عهداً زاهياً، واستسلم إسماعيل، ويئس من رجوعه إلى مصر حتى في أيام سقمه، واستوت عنده الحياة والموت، بل كان الموت أهون على نفسه، وأشوق إلى قلبه من حياة عزل فيها عن عرشه، وحرم فيها من وطنه، وعاني فيها أشد الآلام..

وفي ١٧ يناير ١٨٩٥ تنبه إسماعيل من إغماء طويل أصابه، فاستدعى نجليه الأميرين أحمد فؤاد وإبراهيم حلمي، وقال وهو يطارد عن نفسه الألم: «إذا مت فادفنوني في مصر، مقر جدي وأبي، ومواطن آلامي وأحلامي، الذي عشت له، وتمنيت سعادته، وحرم على العودة إليه»..

ولما انصرف الأميران بعثا بهذه الوصية إلى مصر، فأعد الخديو عباس قبراً فخماً لجده في مسجد الرفاعي، ومكث المريض العظيم

يعاني الآلام الفظيعة عدة أسابيع، وفي يوم ٢ مارس ١٨٩٥ لفظ النفس الأخير، فصعدت روحه إلى السماء تشكو عالم الأحياء الذى لا يرحم شيخا في شيخوخته، ولا مريضا في مرضه، ولا محتضرا على فراش موته.. مات اسماعيل بعدما قضى ستة عشر عاما في منفاه، وإذا كان الموت يحل المشكلات، ويذلل الصعاب، فقد حل موت اسماعيل تلك المشكلة الكبرى، والصعوبة العظمى التي تحطمت عندها جهود الأمراء. وتخاذلت أمامها مساعي العظماء، فما كاد يذيع نعيه في البلاد، حتى سمح السلطان بنقل جثمانه إلى مصر، فعاد في موكب حافل، ليس أشد إيلاما من موكب خروجه من وطنه، هذا الخروج الذى طوى آخر صفحة من حكمه، كما طوى الموت آخر صفحة من حياته في هذه الدنيا.

الفهرس

رقم الايداع - ٩٩/١٠٣٠٢

I.S.B.N. 977 - 01 - 6313.9



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود ولا موعد تبدأ عنده أو تنتهي إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة عامها السادس وتستمر في تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل. للشاب. للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم يخطو ويكبر ويتعاظم ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة... وإني لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن المبدع والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك

مهرجان القراءة للجميع

مهرجان القراءة للجميع
للطفل . للشباب . للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة